فلسفة الحركة القوميّة العربيّة

التحدّي الاستعماري

مقدمة

في الجزء الاول من هذا الكتاب ، الذي سميته الخلفية الفلسفية ، تحدثت عن الخلفية الفلسفية للفكر السياسي وقواعد هذا الفكر في العالم الثالث · وفي هذا الجزء ، الذي سميته التحدي الاستعماري ،اتحدث عن الصراعات الاساسية القائمة في هذا العالم ، واثرها على فكره الآني والمستقبلي ، منطلقا من تلك الخلفية وتلك القواعد ·

وما اظن ان احدا يشكك في أن الاستعمار كان اكبر تحد واجهته شعوب العالم الثالث في تاريخها الحديث · وأن كلا من الاستعمار ومن رد فعله ، المتمثل في الحركة القومية التحررية ، كانا طرفي الصراع الاساسي فيه ، وأن هذا الصراع لم يكتف بأن طبع هذا العالم بطابعه ، وانما وجهه الى الكشف عن ذاته ، وعن التناقضات الموجودة في هذه الذات ، وخلق فيه مقومات بعثه واحيائه · وانه من خلال هذه العملية هيأه ليكون ، في ربع القرن الاخير هذا ، أكبر قوة مؤثرة في تغيير وجه العالم الانساني كله ، ليستكمل خطاه نحو غاية التاريخ ، نحو الحرية ·

ولئن كان لزاما علي ان اتحدث عن طبيعة الاستعمار بشكل عام ، فلقد آثرت ان اركز اكثر ما اركز على المرحلة الاخيرة منه ، مرحلة الامبريالية الجديدة · اولا ، لاننا ما زلنا نعيش مرحلة الصراع معها · وثانيا ، لان حاجة الفكر السياسي الى بلورة هذه المرحلة وربطها بما سبقها من فكر وضعت معظم اسسه امام الاستعمار الاحتلالي ، هي الحاجة الاساسية المطروحة أمامنا اليوم ·

اننا ، على رغم كل ما مر بنا وكان خليقا أن يعلمنا وأن يبلور افكارنا ما زلنا نعيش ذلك الصراع الفكري التائه الذي يحاول أن يفرق بين الاستعمار وبين الامبريالية الجديدة ، وبين الامبريالية والصهيونية ، وأن يميز بين الصراع القومي والصراع الطبقي ، بين تحديات اليوم وتحديات المستقبل ، بين التنمية الاقتصادية والمجتمع الاشتراكي ، بين بناء الاشتراكية وتحرر المواطن ، بين القومية والانسانية ، بين النظرة القومية والنظرة الاشتراكية ، بين الطموحات والامكانات ·

وانا احاول ، في هذا الجزء ، أن أبين التداخل والترابط بين هذه القضايا جميعا تداخلا وترابطا جدليا · والقضية ، في رأيي ، ليست قضية مذهبية · وانما هي قضية منهج علمي تاريخي جدلي ثوري ، منطلق من معطيات الواقع الحي المتغير المتطور المنقلب دوما على نفسه ، والمبدع دوما ، من خلال الصراع ، لتركيب جديد ، وانسانية جديدة ، وانسان جديد ·

وبانتهاء هذا الجزء اكون قد فرغت من « المقدمة » العامة المنطبقة على العالم الثالث الذي تشكل الامة العربية جزءا مهما منه ، لاتفرغ ، في الاجزاء التالية ، لقضايا الامة العربية بالذات ، وبشكل خاص ، تلك القضايا التي تميزت بها عن غيرها من شعوب العالم الثالث ·

وكل ما أرجوه هو أن يثير هذا الجزء ، كغيره من الاجزاء ، حوارا يساعد على تحديد فكرنا السياسي وبلورته ، والخروج من التخبط الفكري الذي كاد يلازمنا منذ نهاية عهد الاستعمار الاحتلالي ·

[١]

فعل التحدي

التحدي الخارجي والتحدي الداخلي

نحن ، في الوطن العربي ، وفي العالم الثالث الذي نحن جزء هام منه ، حين نحاول ان نضع قواعد الفكر السياسي ، بمنهج تاريخي جدلي علمي ، لا بد لنا من أن ننطلق من واقع القوى التاريخية الفاعلة في أوضاعنا ، وأن نحلل هذه القوى ، ثم أن نستخلص منها ومن طبيعة الصراعات التي تخوضها اممنا وشعوبنا ومجتمعاتنا ، نظرية تاريخية شاملة ، يكون معيار حقيقتها وصدقها ، انطباقها وتطبيقها ، على الواقع « الصائر » ، ذي الماضي والحاضر والمستقبل ٠

وبالتالي ، فان علينا أن نعي ، اولا ، طبيعة التحديات التي تواجهنا ونوع القوى الفاعلة فيها ، وأن نعي ، ثانيا ، طبيعة ردود الفعل القائمة والممكنة والواجبة لهذه التحديات ، ونفرق بين الزائف منها والحقيقي ، بين العابر والباقي ، بين السطحي والعميق ، وأن نعي ، ثالثا ، القوانين المتحكمة في التحدي وفي رد فعله ، وفي الصراع القائم بينهما ، وأن نعي هذا كله ، اخيرا ، بعقل متفتح مرن ، قادر على استيعاب معنى الصيرورة في التغييرات التاريخية ، دون جمود أعمى أو دوغماتية متحجرة ٠

ان توينبي ، المؤرخ البريطاني ، يرد قيام الحضارات كلها الى قيام تحد كبير ، والى كيفية مواجهة الشعوب لتحدياتها ٠ وهو يقول ان تحديات الطبيعة ، في بدء التاريخ ، لها اكبر الاثر في توليد الحضارات ، ثم ما تلبث التحديات الانسانية ان تحل محل الطبيعة في الاهمية ٠ وان التحديات المتماثلة لا ينتج عنها حتميا ردود فعل متماثلة ٠ وانه كلما عظمت التحديات ازدادت حوافز الرد ، الا اذا كان التحدي قويا الى درجة مميتة ٠ ثم هو يقسم التحديات الانسانية الى تحديات خارجية وتحديات داخلية ، ويجعل وظيفة الرد عليها وظيفة « البروليتاريا الخارجية » و « البروليتاريا الداخلية » ٠

ان عالمنا الثالث ، مثله في ذلك مثل العالم كله ، يواجه من التحديات ، في عالمه الاجتماعي وفي عالمه الانساني ، ما لا سبيل الى حصره ٠ ولكن جميع هذه التحديات ، في العالم الثالث بالذات ، يمكن ان توضع تحت مظلتي

تحديين أساسيين ، تحدي الاستعمار ، وهو تحد خارجي ، وتحدي التخلف ، وهو تحد داخلي ، وما يقوم بينهما من علاقة جدلية متبادلة ٠

فاذا ما قارنا بين هذين التحديين ، من حيث الاهمية في تحريك ردود الفعل ، وفي تحريك قوى العالم الثالث ، وفي تحريك التاريخ فيه ، كان التحدي الخارجي ، بالضرورة ، ولحين القضاء عليه قضاء تاما ، هو الحافز الاول لردود الفعل ، بل حافز الوعي على وجود التحدي الثاني ٠

فعلى رغم أن التخلف ، بمعناه الحديث ، اقدم عهدا من الاستعمار ، وأنه يرجع الى الزمن الذي توقفت فيه الحضارات الاسلامية والهندية والصينية عن العطاء والتجدد والانبعاث ، فان روح الاستكانة الى المعطيات ، والطمأنينة الى التراث التقليدي ، افقدت الشعوب الشرقية احساسها بالتخلف ، ودفعتها الى تقبل الواقع والرضى به وكأنه قدر لا سبيل الى تغييره ٠

ولم تولد بدايات الوعي على التخلف القائم الا حين قدم الاستعمار الغربي ، في مواجهة متواضعة اول الامر ، ما لبثت أن تحولت الى مواجهة عارمة ، والا بعد انقضاء المرحلة الفطرية الاولى في مواجهة العدو الطارىء ، ووصولها الى فشل تام ، حينذاك فقط كشفت امم الشرق تخلفها الهائل الذي تعيش فيه ٠

ان الوعي على التخلف ، بذلك ، انما ولد من خلال الصراع مع الاستعمار ٠ هذا الصراع الذي دفع شعوب الشرق ، المتنقلة من هزيمة الى هزيمة في مواجهة هذا الاستعمار الطارىء ، ثم من نصر كاذب الى نصر كاذب ، الى مراجعة الذات وتكرار هذه المراجعة ، بعد كل صدام جديد ، وهزيمة جديدة ، وانكشاف لكذب النصر الذي وضعت آمالها فيه ٠ وكان لا بد لهذه المراجعة من أن تكشف وضع التخلف الذي تعيشه هذه الشعوب ، والذي يؤدي بها الى العجز عن المواجهة الحقيقية السليمة للتحدي الكبير ٠

بذلك اصبح التخلف تحديا لا بد من مواجهته ومقارعته ، من أجل مواجهة الاستعمار والانتصار عليه ٠ ولم يكن ممكنا ان يصبح التحدي الداخلي باعثا ذاتيا للحركة ، من أجل اداء رسالة الانسان في ذاته ، وقلب اوضاع المجتمع في ذاتها ، وبصرف النظر عن الاستعمار الا اذا انتقل رد الفعل من مرحلة الانعكاس السلبي الى مرحلة رد الفعل الايجابي الواعي ٠ وعلى رغم ذلك ، ولان معظم شعوب الشرق ، حتى بعد استقلالاتها السياسية الحديثة ، ما تزال ترزح تحت وطأة النفوذ الامبريالي الجديد ، فان مراجعة الذات ما تزال مستمرة ،

وما يزال ارتباطها الجدلي بالتحدي الخارجي قائما ، وتبعية كل تحد داخلي للتحدي الخارجي ما زالت حقيقة واقعة .

وفي الواقع ، فانه ليس من الغريب ان يكون التحدي الخارجي ، في شعوب الشرق ، اقوى من التحدي الداخلي ، بل باعثا له وخالقا . ذلك ان التحدي الخارجي تحد لوجود ، بينما التحدي الداخلي تحد لكيفية الوجود . وحين يجتمع التحديان معا يصبح للتحدي المهدد بالفناء اليد العليا في تحريك التاريخ . وكلما كان التحدي الخارجي اقوى كان اكبر اثرا في الكشف عن التحدي الداخلي .

فاذا كان محرك التاريخ الاساسي في الغرب الصناعي المتقدم هو التناقضات الداخلية ، والصراع الطبقي ، والتحدي الداخلي ، وكانت الطبقة العمالية هي ممثلة « البروليتاريا » الداخلية في الزخم الثوري ، فان محرك التاريخ الاساسي في الشرق المتخلف المستعمر هو التناقض مع الاستعمار ، والشعوب المستعمرة هي ممثلة « البروليتاريا » الخارجية في زخمها الثوري .

التحدي الخارجي في التاريخ

ليس في الفكر الماركسي مكان مهم لاثر التحدي الخارجي . فالفكر الماركسي — الى ان جاء لينين على الاقل — قائم في الاساس على تناقض الشيء في ذاته ، على التناقضات الداخلية في مجتمع طبقي . وليس غريبا ان يكون ذلك كذلك والفكر الماركسي وليد الاوضاع الصناعية المتقدمة في اوربا الغربية في القرن التاسع عشر ، اي في زمن لم تكن اوربا تخشى فيه اي تحد خارجي ، اذا استثنينا المنافسات الداخلية بين دول اوربا نفسها ، بل كانت هي في وضع تتحدى فيه العالم كله . ولكن الغريب حقا هو ان يجعل الفكر الماركسي من القوانين المستنتجة من وضع تاريخي معين ومحدود ، قوانين عامة للتاريخ كله ، وان يجعل الصراع الطبقي محور حركة التاريخ كله ، قديمه وحديثه .

ان الذي لا ريب فيه هو انه قد اصبح من الصعوبة بمكان كبير ، بعد النظرية الماركسية ، ان يهمل اثر الصراع الطبقي ، او ان يهمل اثر تطور الانتاج في وسائله وعلاقاته ، في اي حدث تاريخي هام . ولكن ثمة فرق كبير بين ان يكون هذا الاثر الاقتصادي موجودا ، وبين ان يكون هو ، دائما ، محور حركة التاريخ .

ان اثبات ان الحركة الاشتراكية انما ولدت في حضن النمو البورجوازي

الصناعي ، وان البروليتاريا نقيض البورجوازية الصناعية ، وأن نمو هذه البورجوازية نفسه قمين بتنمية الطبقة البروليتارية وبنشوء التناقض بينهما ، سهل ، بين جدا ، ومنطقي جدا ، لان البورجوازية نفسها قائمة على خلق طبقة البروليتاريا ، ولا وجود لتلك الا بهذه ·

ولكن ليس بنفس السهولة اطلاق القول بأن نمو البورجوازية وظهورها هو شرط من شروط وجود النظام الاقطاعي ونموه · ان نظام الاقطاع قد يستمر قرونا طويلة دون ان يحتم ولادة البورجوازية · وفي الحق فانه لمن الصعوبة بمكان كبير ان نفسر قيام البورجوازية التجارية في اوربا ، التي قامت اول ما قامت في المدن الايطالية ، دون الاشارة الى الاثر الكبير الذي تركته الحروب الصليبية في العلاقات بين هذه المدن وبين الدول الاسلامية في المشرق العربي ومغربه · كما لا يمكن تفسير قيام البورجوازية في انحاء اوروبا المختلفة، لا سيما في هولندا وفي انكلترا دون الاشارة الى الاكتشافات الجغرافية التي حققها الاسبان والبرتغال نتيجة ردهم على التحدي الخارجي المتمثل في احتلال المسلمين لشبه الجزيرة الايبرية ، وفي احتكارهم لتجارة البحر الابيض المتوسط ·

كذلك لا يمكن تفسير قيام نظام الاقطاع في اوربا بمجرد الزعم بأنه نتيجة انهيار نظام الرقيق الذي ساد الامبراطورية الرومانية ، دون الرجوع الى الهجمات المتكررة للاسكندنافيين على شمال اوربا وغربها ، ودون الرجوع الى هجمات الجرمان على الامبراطورية الرومانية ، والتحدي الخارجي الذي واجه به هؤلاء البرابرة سكان اوربا الرومانية ·

ويمكن للمؤرخ بسهولة أن يبين اثر الهجمات الفارسية المتكررة على تطور الحضارة اليونانية ، وتطور اساليب الزراعة والصناعة والملاحة فيها · كما لا يمكن للمؤرخ ان يتناسى اثر التوسع العثماني في اوربا في احياء الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقيام الحكم المركزي المطلق في وسط اوربا ·

وكما أن المؤرخين يمكن ان يقدموا اسبابا كثيرة لقيام الدعوة الاسلامية في الجزيرة العربية ، ليس منها بطبيعة الحال تطور وسائل الانتاج فيها ، فانه لا يمكن انكار اثر الاضطهاد الروماني المتبني للدعوة المسيحية ذات الطابع اليوناني الروماني ، لمسيحيي الشرق والعرب وشمال افريقيا المتبنين للدعوة المسيحية السامية الشرقية المؤمنة بوحدانية طبيعة المسيح · ذلك الاضطهاد القائم على القتل والتشريد والتعذيب والصلب ، في قيام الدعوة الاسلامية ردا

على التحدي الخارجي لشعوب هذه المنطقة ٠

وحتى في روسيا فان من العبث ان نفصل بين ثورة ١٩٠٥ وبين الاثر الذي تركته هزيمة الدولة القيصرية امام اليابان ٠ كما ان من العبث ان نفصل بين ثورة ١٩١٧ وبين الادارة الفاسدة المهترئة التي واجهت بها الدولة التحدي الجرماني في الحرب العالمية الاولى ٠

ولعلنا ، في العالم الثالث نفسه ، لا بد ان نلحظ الفرق الكبير في ردود الفعل ، على رغم التماثل في التخلف ، بين بلاد وطئها الاستعمار بالفعل ، كالهند والصين وفيتنام ومعظم البلاد العربية والافريقية ، وبين بلاد ، كاليابان والافغان وتركيا وايران وسيام والحبشة ، هددها الاستعمار دون ان يطأها ، او اضطر ، لسبب او لآخر ، الى النزوح عنها بسرعة ٠ ففي المجموعة الاولى نرى الصورة الحقيقية للرد على التحدي الخارجي الاستعماري ، وفي المجموعة الثانية نرى صورا مختلفة لردود الفعل تتراوح ما بين تبني كل مميزات الاستعمار الغربي ، كما هو الامر في اليابان ، وما بين التقوقع التخلفي الكامل ، كما هو الامر في الحبشة ٠

في كل هذه الامثلة التي ذكرنا قد لا يكفي التحدي الخارجي وحده من اجل ان يحرك ردود الفعل ٠ ان التحديات الداخلية لا بد ان تكون فاعلة ومتفاعلة في المجتمع ذاته من اجل ان تهيء للتحدي الخارجي ان يحفز رد فعله السريع ٠ فاذا لم تكن هذه التحديات الداخلية موجودة ، واذا انعدم التوتر الداخلي ، كان رد الفعل للتحدي الخارجي بطيئا ومتثاقلا ، وانعكس الوضع ، بحيث حرك التحدي الخارجي نفسه دوافع الوعي على التحديات الداخلية وخلق التوتر الداخلي ٠

بذلك يمكننا القول ان التحدي الخارجي لا يقل شانا في احداث التغييرات التاريخية الكبرى عن التحدي الداخلي ٠ وان معظم التحديات الداخلية التي لا تواجه تحديا خارجيا قويا قد تعجز عن ان تظهر ردود فعلها ٠ وان التحدي الخارجي ، حيث لا احساس بتوتر داخلي ، قد يحقق هو نفسه ، حافز البحث عن هذا التوتر ، والوعي على التحديات الداخلية ، حين تصبح معرفة الذات ، ومقاومة الذات ، فالكشف عن جوهر الذات ، ضرورة اساسية من ضرورات مقاومة التحدي الخارجي ٠

التحدي الاستعماري اكبر تحد تاريخي

كان قدوم الاستعمار الغربي الى بلدان الشرق اعظم تحد خارجي اصاب هذه البلدان في تاريخها كله ، بل اعظم تحد شهده العالم في تاريخه ·

ان غزوات شعوب الشرق بعضها لبعض ، واقامة الامبراطوريات وتقويض الامبراطوريات ، لم تكن بالشيء الجديد في تاريخ الشرق · فغزوات الفرس لليونان وسوريا ومصر ، وغزوات مصر لسوريا وليبيا والنوبة ، وغزوات آشور ، وغزوة الاسكندر الكبير ، واكتساح الامبراطورية الرومانية لحوض البحرالابيض المتوسط ، والفتوحات الاسلامية التي وصلت الى حدود الصين والى الاطلسي ، وغزوات المغول للصين والهند والبلاد العربية ، وغزوات الصين للشمال والجنوب ، وغزوة المنشوريين للصين ، كل ذلك عرفه تاريخ الشرق · ولكن واحدا منها لم يهز بلاد الشرق هزا عنيفا عنف هذه الهجمة الاستعمارية الاوربية الحديثة ·

فجميع هذه الغزوات السابقة ، وبعضها كان تحديات ضخمة ، كانت بين شعوب متجاورة يعرف بعضها بعضا ، ويختلط بعضها ببعض ، ويتناوب بعضها في غزو بعض آخر وحكمه · كانت جميعها متصلة ببر واحد لا يكاد يقطعه بحر ، الا اذا اعتبرنا البحر الابيض المتوسط بحرا · وكثيرا ما اختلطت الشعوب ببعضها بعد الغزو وامتزجت ، وضعف التمييز بين الغازي والمغزو ، ووصل المحكومون الى درجات الحكم العليا في الدول الجامعة ، كما حدث في الامبراطورية الرومانية ، والدول الاسلامية المتعاقبة ، ودولة المغول في الهند ، وحكم المانشو في الصين · ولم تكن حضارات اي شعب في هذه الشعوب غريبة كل الغرابة عن حضارة الشعب الاخر ، ولا مستعصية على التداخل والذوبان والتمثل المتبادل · بل كان الغازي احيانا ، لا سيما حين يكون ذا حضارة متخلفة ، يذوب تمام الذوبان في الحضارة المغزوة ، فيحكم الشعب المهزوم وتحكمه حضارة الشعب المهزوم ·

وعلى رغم ان القوميات التي لم تكن تنتمي الى قومية الحاكم في الدول الجامعة كانت تشعر احيانا بالغربة في ظل الدولة الحاكمة فتتململ وتثور ، فان فكرة الدولة الممثلة للقومية الواحدة لم تسد ، ولم تحل محل فكرة الدولة الجامعة · وفي الواقع فان حقوق الفرد العادي واوضاعه ، سواء انتمى الى القومية المسيطرة او الى احدى الفئات الاخرى لم تختلف كثيرا في الحالين· كما لم تختلف كثيرا حقوق وامتيازات الطبقات المسيطرة في هذه الفئات عن حقوق وامتيازات الطبقة من الفئة الحاكمة ·

على ان الغزوة الاوربية الاستعمارية كانت شيئا جديدا لا عهد لهذه الشعوب بمثله · فهي جاءت من البحر البعيد ، غريبة عن هذه الشعوب – الا ما كان منها كالعرب ، على حوض البحر الابيض المتوسط – غربة تامة ، بلغتها ، بسلاحها ، بحضارتها ، بغايات استعمارها ، وبتعاملها مع الشعوب المقهورة · وهي لم تأت لتقيم دولة جامعة ، بل اتت تقيم استعمارا فوقيا يستغل المستعمرة استغلالا كليا لمصلحة رأس مال الدولة المستعمرة ، وتتعامل مع شعب المستعمرة تعاملا استعلائيا ، مدلة عليه بحضارتها المتقدمة ، دون ان ترى في هذا الشعب سوى الانحطاط والتأخر والهمجية ، مدعية ، حين محاسبة ضميرها لها ، انها انما تقوم برسالة الرجل الابيض التمدينية نحو هذه الشعوب المتأخرة ، في نفس الوقت الذي تمضي فيه في رسالتها الحقيقية الاستغلالية الاحتكارية الامتصاصية · وكان من نتيجة هذا الاستعمار خلق « اغتراب انساني » في شعوب المستعمرات لم يعرفه انسانها في تاريخه ·

ان ماركس يتحدث عن اغتراب الانسان في المجتمع الصناعي الحديث ويعتبره الاغتراب المطلق · فتقسيم العمل ليست له اية علاقة بمواهب الفرد واستعداداته ، ولا بمصلحة المجموع ، وانما يخضع خضوعا اعمى لقوانين انتاج السلع الرأسمالية ، بحيث تصبح السلعة ، التي هي نتاج العمل ، متحكمة في طبيعة العمل الانساني وغاياته · فبدلا من ان تكون السلعة اداة لخدمة الحياة الانسانية ، تصبح الحياة الانسانية اداة لخدمة انتاج السلعة · وينتج من هذا كله انه « كلما ازداد انتاج العامل للثروة ، وكلما ازدادت قوة انتاجه واتساعها ازداد هو فقرا · بحيث يزداد رخصه من حيث هو سلعة كلما ازداد انتاجه من السلع · وكلما ازداد استغلال العالم الموضوعي كلما فقد العالم الانساني قيمته » · وهذه الحقائق الاقتصادية تخرج ، في النظرة التاريخية · عن كونها مجرد حقائق اقتصادية لتطبع بطابعها الحياة الانسانية كلها ، وتطبع الانسان كله في خصائصه وقدراته وحاجاته · ان العامل ، باغترابه عن السلعة التي ينتجها ، ثم باغترابه عن عمله الذي لا يملكه ولا يملك نتاجه ، انما يعيش في عالم ليس له ولا يمتلك منه شيئا ، بل هو لا يمتلك فيه ذاته · لان ذاته نفسها مطبوعة بطابع اغتراب العمل ، الذي يطبع بطابعه كل العلاقات الانسانية ·

ان هذا الاغتراب ، الذي يعتبره ماركس اغترابا مطلقا ، لا يقاس في واقعه ، باغتراب الانسان المستعمر ، هذا الانسان الذي يحوله الاستعمار الى انسان بلا ماهية ، انسان « مشيء » تشييئا كاملا · انه مغترب بحكم عمله ، وينطبق عليه انطباقا كاملا وصف ماركس لغربة الانسان في المجتمع الصناعي · ولكنه مغترب ، فوق ذلك ايضا ، بحكم كونه « مستعمرا » ، وبحكم كونه

« منتميا » الى « الاهالي المحليين » . ففي المستعمرات ثمة عالمـان لا عالم واحد . و « ما يقسم العالم المستعمر انما هو انتساب المرء او عدم انتسابه الى نوع معين وعرق معين . ان البنيان التحتي الاقتصادي هو في المستعمرات بنيان فوقي ايضا . السبب هنا نتيجة . المرء غني لانه ابيض ، وابيض لانه غني ... ان ما يميز الطبقة الحاكمة اولا وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الاملاك ولا المرصيد في البنك ، وانما النوع الحاكم هو اولا وقبل كل شيء ، النوع الذي جاء من مكان آخر ، النوع الذي لا يشبه السكان الاصليين ، نوع الآخرين » كما يقول فرانز فانون .

ان غربة البروليتاري في المجتمع البورجوازي ، برغم كل عواملهـا الصارخة ، قد خفض من آثارها ، كما يبدو في البلدان الصناعية المتقدمة ، ما افاضه الاستعمار على هذه البلدان من نعم وخيرات ، لم تقتصر علـى الطبقة البورجوازية او العسكرية الحاكمة ، وانما تجاوزتهـا الى طبقـة البروليتاريا نفسها ، فحولتها ، في رأي لينين ، الى طبقة انتهازية ، ضالعة مع المؤسسات الحاكمة ، بل اكثر منها تعصبا وشراسة ، كما نرى في نقابات العمال الاميركية ، والحزب الاشتراكي الفرنسي ايام حرب الجزائر . بذلـك تمكنت المؤسسات الحاكمة من امتصاص نقمة البروليتاريا ،وتمكنت ، اكثر من ذلك في اذابتها في المؤسسات الحاكمة نفسها ، فأفقدتها قدرتهـا الثوريـة المفترضة .

كان ماركس يعتقد ان البروليتاريا مؤهلة للقيام بدورهـا التاريخي في ازالة النظام الطبقي وخلق المجتمع اللاطبقي بحكم كونها ادنى الطبقات كافة . ولكن غاب عن ماركس ان المجتمع الصناعي المتقدم ، بما حقـق من استغلال لشعوب اخرى كاملة تغطي وجه الكرة الارضيـة قد خلـق من هو ادنى من البروليتاري الغربي بكثير ، خلق الانسان المستعمر .

ان غربة الانسان المستعمر غربة كاملة مطلقة حقا ، ليس كمثلها غربة . فالاسـتعمار فيه كـل خصائص الاغتـراب التي يصفهـا ماركس في المجتمـع الصناعي ، وعلى صورة ابشع واشد . فالبورجوازية ، على الاقل ، حريصة على تلبية المطالب الدنيا للطبقة العاملة لانها لا تحيا بدون هذه الطبقة . ولكن الاستعمار ليس حريصا على حياة الانسان المستعمر نفسها ، لان ثمة ملايين يصلحون للاستغلال ، يمكن ان يحلوا محل الملايين الذين يموتون . فالحـد الادنى الذي يقف عنده البورجوازي في استغلال العامل ، كما يبين ماركس ، غير موجود اصلا في استغلال الانسان المستعمر . بل ان الاستعمار ليقيم حربا من اجل اباحة نشر الافيون في شعوب الشرق ، ويستورد البشر عبيدا يعملون

في المزارع حين يكون في حاجة الى الايدي العاملة ٠ وهو لا يفعل ذلك بالنسبة لطبقته العمالية ٠

ان الصناعة المتقدمة في المجتمع البورجوازي ، مسلحة بما يفيضه عليها الاستعمار من خيرات ، تخلق في المجتمع الصناعي المتقدم ثروة قد يكون للبورجوازية فيها نصيب الاسد ، ولكن خيراتها ترشح حتى تصل الطبقة العاملة نفسها لتشارك فيها ٠ ولكن الاستعمار لا يخلق في المستعمرات ثروة وانما يبدد اي ثروة قائمة ويستغلها لمصلحة البلد الحاكم ٠

ان الاستعمار يسخر جميع موارد البلاد ، سواء من حيث كميتها ، او من حيث نوعيتها ، او من حيث اسعارها ، او من حيث التصرف بها ، لمصلحة البلد المستعمر ٠ فاستغلاله الاقتصادي ليس استغلاليا طبقيا فحسب ، مع الاحتفاظ بالثروة وتوزيعها ٠ وانما هو استغلال سارق بشع ، ينقل كل ما انتجته البلاد من ثروة ليضيفها الى ثروته هو ٠

ثم ان الاستعمار ، فوق ذلك ، احتلال عسكري ، غريب ومتعال ، في قوة كبت محض ، يكون فيها أصغر جندي من جنود الاحتلال متسلطا على اكبر كبير في البلاد ، وتكون وظيفة الشرطة فيها تأمين اخضاع الناس ، كل الناس ، للسلطة المتجبرة الحاكمة ٠

والاستعمار احتلال ثقافي ، تقطع فيه صلات الشعب المستعمر بثقافته وحضارته وتراثه ٠ يخلع من جذوره ٠ ثم لا يصل الى هذا الشعب من الثقافة الغربية الا ما يصل الى « النخبة » التي يحتاج الى جهدها الاستعمار لخدمته ، مشوبة بكثير من التبشير الديني ، والتبشير « للقيم » التي يقوم عليها الاستعمار ٠

وهو احتلال اداري ، تحطم فيه جميع الاعراف والتقاليد والقوانين المتصلة بحضارة الشعب المستعمر لتحل محلها قوانين لا هدف منها غير خدمة مصالح القوة العسكرية والمالية الحاكمة وحماية سلطانها واستغلالاتها ، من غير اعتبار لمقتضيات المجتمع القائم وعلاقاته ٠

ولكن الاستعمار ، بالاضافة الى ذلك كله ، ترفع واستعلاء وتمييز عنصري يقيم حاجزا قويا بين العرق الحاكم والعرق المحكوم لا يمكن تجاوزه ٠ فهناك عرق له المدارس والنوادي واماكن السكن الفخمة والمصانع والمزارع والوظائف ذات السلطة ، توضع في خدمته قوى الشرطة والدرك والجيش واداة الحكم ،

وهناك عرق محروم من هذا كله ، مطلوب منه ان يخدم مصالح العرق الممتاز ، مسروق من كل ما يملك . وقد يتاح ، في المجتمع الصناعي ، لبروليتاري ان يصبح بورجوازيا صغيرا ، ثم ان يصبح بورجوازيا كبيرا ، ولكن لا يتاح لاي انسان من العرق المحكوم ان ينتمي الى العرق الحاكم . ثمة فصل تام .

ان الانسان ، في ظل هذا الاستعمار المتعدد الوجوه ، انسان مغترب اغترابا تاما ، لا عن عمله فحسب ، بل وعن وطنه الذي لا يملكه ، ولا يملك معه لا اسرته ، ولا دخله ، ولا حريته ، ولا حكومته ، ولا بيته ، ولا ارضه ، ولا دينه ، ولا تراثه ، بل ، وفوق ذلك كله ، ولا نفسه .

وهو مغترب هذا الاغتراب ، لا لانه عامل فحسب ، محكوم بتقسيم العمل ، ولا لانه منزوع الملكية فحسب ، ولكن لانه ينتمي الى العرق المحكوم . والعامل والفلاح ، والبورجوازي والاقطاعي ، متساوون جميعا في هذه الغربة ، على رغم خدر البورجوازي والاقطاعي عن الاحساس بها بسبب ما يتمتع به من امتيازات تضعف تحسسه بها . بل ان غربة البورجوازي والاقطاعي قد تكون اشد واعمق . لانه ، مهما احاط نفسه بما يفيضه المستعمر عليه من نعم ، انما هو في خدمة هذا المستعمر . حتى استغلاله للكادحين ليس ملكه . وانما هو استغلال الوسيط بين هؤلاء الكادحين وبين مستغليه الاصليين ، المستعمرين .

ان البورجوازي والاقطاعي قد يتعلم كيف يلجأ من حسه بالاغتراب ، الى الامعان في الارتماء في احضان المستعمر ، والسعي الى ان يشاركه بعض نعمه وخيراته . ولكن المحروم لا يجد سبيلا الى هذا الهرب واللجوء غير الالم الذي يشده الى جماهير شعبه ، ويزرع في قلبه الامل بالله ، او بالذات ، او بالامة ، او بالمستقبل ، حتى يحين موعد الامل بالثورة .

ان غربة الانسان المستعمر غربة شاملة . « والاستغلال الاستعماري كلي وشامل » . (فانون) . وغربته هذه ليست ناشئة عن الاستغلال الاقتصادي الاستعماري له فحسب . فقد كان هذا الانسان، في كثير من الحالات ،مستغلا في وطنه في ظل الاقطاع والحكم الاستبدادي قبل قدوم الاستعمار . ولكن غربته في ظل هذا الاستعمار الاوروبي الطارىء تعدت جهده وحريته لتشمل وجوده وذاته وروحه وانسانيته . في ظل الاستعمار اكتملت غربته .

الاستعمار تحد عالمي

جميع الغزوات السابقة للاستعمار كانت غزوات « محلية » اذا قيست

بالاستعمار الغربي . الاستعمار الغربي وحده هو الذي وحد العالم كله من جهة ، وقسمه الى مستعمر ومستعمر من جهة . فاصبح الاستعمار ظاهرة تاريخية عالمية ، حين اصبح « اقتسام العالم » هما من الهموم الكبرى للدول الاستعمارية ، وحين اصبح « اقتصاد السوق الحرة » الذي ابتدعته البورجوازية الاستعمارية نظام العالم كله ، مستعمرا ومستعمرا ، الى ان افلتت من عقاله الدول الاشتراكية .

ان بلدا هنا وبلدا هناك قد يزعم انه قد افلت من هذا التقسيم وانه ليس مستعمرا ولا مستعمرا . وفي الواقع فان بلادا غربية صناعية متقدمة ، كالسويد وسويسرا مثلا ، لم يكن لها مستعمرات ولا هي اشتركت في حمى تقسيم العالم . ولكن هذا لم يعن ، ولا يعني ، انها لم تشارك في مغانم نظام السوق الحرة الاستغلالي الذي وضعت اسسه البورجوازية الاستعمارية ، بقدر ما يعني انها انما استفادت من خيرات هذا النظام ومن نعمه دون ان تضطر الى ان تدفع تكاليف المحافظة على الاستعمار ، او تكاليف الحروب التي حتمتها المنافسات الاستعمارية . بل يمكن ان يقال انه في الوقت الذي كانت فيه لندن عاصمة هذا النظام العالمي التجارية كانت زيوريخ عاصمته المالية .

لقد خلق الاستعمار ، وما رافقه من تقدم تجاري وصناعي ومالي وعلمي في بلاد الغرب ، نظاما اقتصاديا عالميا في التعامل اصبح هو لب الاستعمار ومحوره الاساسي الذي من حوله تتحدد الاهداف والوسائل . هذا النظام تمكن من احتكار تجارة العالم وصناعته ومواصلاته وجعلها جميعا في يد دول الغرب ، كما حصر ثروة العالم كله فيها ، حين تمكن ، بالاستعمار ، من احتكار موارد المستعمرات الزراعية والتعدينية ، والحصول عليها بارخص الاسعار ، واحتكار نقلها وتجارتها ، وحين تمكن من تحويل عواصم البلاد الغربية ، او موانئها الكبرى ، الى عواصم للتجارة العالمية ، وحين احتكر صناعة العالم ، وتمكن من ان يجعل موارد العالم كله موارد له ، وسوق العالم كله سوقا له ، ومن ان يجعل نفسه وسيطا بين اجزاء العالم كلها ، حتى ما تجاور منها ، بحيث اصبحت دول الغرب واسواقها ومصارفها المالك الحقيقي لثروة العالم كلها .

هذا النظام الاقتصادي الامبريالي لم تقتصر عائداته وفوائده على الدول المستعمرة فعليا ، بل امتدت فوائده لتشمل العالم المصنع كله . ولعل هذه العلاقة لم تتوضح تماما كما توضحت حين استقر امر الامبريالية في يد الولايات المتحدة الاميركية في ربع القرن المنصرم ، وهي الدولة التي لا مستعمرات لها . ومع ذلك بقيت الولايات المتحدة حامية النظام الامبريالي الجديد ، بينما

ظلت البلاد الاوروبية التي فقدت مستعمراتها تنعم في ظل هذا النظـام بنفس النعم والخيرات التي كانت تنعم بها وهي تحتفظ بمستعمراتها ، دون حاجة منها الى ان تدفع تكاليف الاستعمار ٠

مقابل هذا العالم الامبريالي المصنع المحتكر لثروات العالم ، يقف العالم المتخلف المحتكر ، المنهوبة ثرواته ونتاج عمله ، موجها اقتصاده لتلبية حاجات العالم المصنع ، مقررة اسعار منتجاته في بورصات ذلك العالم ، عاجزا عن تأمين رأس المال اللازم للانطلاق من التخلف ، مرتبطا بحكم الاستعمار السابق والامبريالية الجديدة بارادة « السوق الحرة » في كل فعالياته الاقتصـادية ، وبالتالي في سياسته الخارجية ، والدفاعية والاقتصادية والمالية والاداريـــة والاجتماعية ٠

هنا ايضا يمكن لبلد هنا وبلد هناك ان يقول انه لم يستعمر ٠ فالحبشة وايران وسيام والافغان لم تتعرض للاحتلال ، او تعرضت لفترات قصيـــرة جدا ٠ ومعظم بلدان اميركا اللاتينية لم تعرف الاستعمار ، بمعناه الاحتلالي البورجوازي ، بل لعلها هي نفسها كانت لفترة ما بعد اكتشافات الجغرافية ، مستعمرة ، بالمعنى القديم للاستعمار ، الى ان وقعت تحت النفوذ الامبريالي البورجوازي القديم والجديد للولايات المتحدة ٠ هـذه البلاد جميعا ، مثلها في ذلك مثل المستعمرات المحتلة نفسها ، دخلت في نير الاستغلال الامبريالي ، واصبحت جزءا من هذا العالم الثالث المحتكر ، التابع ، المسروق ، المحروم ٠

ان هذا يقودنا الى القول بأن **الاستعمار ظاهرة عالمية وتحد عالمي** ، يتجاوز الدولة المستعمرة والبلد المستعمر ٠ وان تحدي الاستعمار الحقيقي ليس تحديا صادرا من بلاد معينة بالذات ، وليس موجها ضد بلاد معينة بالذات ، وانما هو تحدي عدواني في ذاته ، موجه من البلاد البورجوازية المصنعة عامة ، ضد بلدان العالم الثالث عامة ٠

ومن هنا فان الكفاح ضـد الاسـتعمار ، وان يكن مجـزءا بطبيعتـه ، وموجها ، في معظم الاحيان ، من بلد معين ضد دولة معينة ، لن تتم رسالتـه حين يقضي على ذلك الوجود الاستعماري المعين في بلد ما ، وانما تتم رسالته حين يقضي على « الاستعمار » وعلى الامبريالية في العالم كله ٠

[٢]
رد الفعل

الميـــلاد

لا ريب في ان بلدان الشرق ، وبشكل خاص تلك البلدان التي لم يكن لها تاريخ نزاع طويل مع الغرب الاوروبي كما كان الوضع مع العرب والمسلمين ، لم تابه كثيرا ، اول الامر ، لهذا الغزو البحري الطارىء · فلم يكن يبـدو ان هذه السفن القليلة الآتية من وراء المحيطات ذات خطر كبير · لا سـيما وان بلدان الشرق كانت اعرق حضارة ، واكثر غنى وتمدينا ، واقوى عددا وعدة ، من هؤلاء الطارئين الخارجين لتوهم من العصور الوسطى · بالاضافة الى ان حرية الملاحة البحرية كانت ، في تقاليد الشرق ، مفتوحة لكل الناس ، بما في ذلك هؤلاء المستجدين ·

بل ان بعض البلاد رحبت بهم ترحيبا كبيرا · فسمحت اليابان لبعضهم بالسكن والتجارة في بعض انحائها ، وحاولت ان تتعلم منهم ما يتقنون مـن فنون البحر والسلاح · وسمحت لهم الصين ، تكرما ، بالتجارة في كانتون بعد ان قيدتهم بقيود لا تسمح لهم بالتاثير في السكان الصينيين ، واستعانت بهم في بعض ممالك الهندوس في جنوب الهند ليكونوا عونا لها على ممالك الهند الاسلامية في الشمال · ولم يخطر في بال هؤلاء جميعا ، الذين اعتبـــروا انفسهم المتحضرين الوحيدين في العالم ، ان حفنة من برابرة العالم وقراصنتها سوف تكون مصدر تهديد حقيقـي لحيـاتهم وتراثهـم وثروتهـم واستقلالهم وحضارتهم ·

ولكن ما ان شارف القرن الثامن عشر على نهايته حتى تبدى خطر هؤلاء الوافدين بشكل لم يكن يخطـر في بال الاولين · وبدأ خطـر الاستعمار يوقظ الشعوب من اطمئنانها الى معطياتها الحضارية الساكنة الراكدة التي اطمانت اليها قرونا طويلة · وبدأ التحدي التاريخي الكلي العالمي يخلق رد فعله · فولدت حركة النضال التحرري ، وولد مع الحركة الوعي التحرري ·

وعلى مدى تطور شكل الاستعمار ومهماته الاساسية وغاياته واساليبه ،

وعلى مدى تطور الحركة الشعبية النضالية ، وتطور الوعي الشعبي النضالي ، وتطور الوعي على معطيات المجتمع الغربي وتناقضاته ، ومن خلال التجارب النضالية المتواصلة ، نمت حركة التحرر الوطني حول محور اساسي واحد هو محور التخلص من الاستعمار ·

وعلى رغم ان « الحركة القومية » لم تطلق على هذه الحركة النضالية الا في وقت متأخر ، حين اتخذت شكل الحركة القومية وسمتها فعليا ، فليس ثمة ما يلخص حقيقة الحركة اكثر من تسميتها « بالحركة القومية » · وكذلك ، وعلى رغم توجه هذه الحركة ، في الاساس ، ضد الاستعمار ، فان عملية النضال نفسها خلقت عندها الوعي على التناقضات الداخلية القائمة في المجتمع ، واصبحت الحركة القومية هي نفسها رد فعل التحدي الخارجي ورد فعل التحدي الداخلي في ان معا ·

الرد القومي هو رد الفعل التاريخي

ان من الطبيعي ان يخلق فعل التحدي رد فعلــه · وان يولد النضال ، اولا ، فطريا ، غير محدد الاسلوب ، من غير وعي سليم على عمق التحدي ، ولا وعي سليم على اهداف النضال ووسائله ، وان يولد في نفس الاطر التي عاشها المجتمع قبل قدوم التحدي ·

على ان قوانين التاريخ التي فرضت ان يكون للتحدي ردود فعل ، هي نفسها لا بد ان تفرض على رد الفعل هذا تطوره وغاياته واساليبه · فالشعوب لا تختار ردود فعلها اختيارا فلسفيا عقلانيا عقائديا محضا · وانما هي تختارها من خلال تجربتها التاريخية ، فوعيها على معنى التجربة ، فتطبيق وعيها على ممارسة جديدة ، فالوصول الى وعي جديد ، في تصاعد جدلي مستمر ·

ان رد فعل اليابان التي تحداها الاستعمار بوصول اساطيله الى بحر الصين ، ووصول الاسطول الاميركي الى شواطىء اليابان ، كمثل رد فعل محمد علي باشا في مصر بعد فشل غزوة نابوليون ، كان رد فعل فرضه احساس الحكام بالعجز عن مواجهة هذا التهديد بالمعطيات التقليدية ، واحساسهم بأن سر تفوق الغزوة الاوربية انما يكمن في عاملين اساسيين ، السلاح والعلم · ومن هنا جرى ، في الحالين ، اهتمام كبير بهذين العاملين ، ومحاولة للاخذ منهما بكل وسيلة ممكنة · فجاء رد فعل اليابان ، كما جاء رد فعل مصر محمد علي ، فوقيا ، تقليديا في كل ما يتعلق بالمجتمع ، منفتحا على الغرب في كل ما يتعلق بالعلم والسلاح ، منغلقا في ما عدا ذلك · ولم تشعر اليابان باي حاجة

لتطوير رد فعلها منذ ولد ، عام ١٨٦٨ ، حتى هزيمتها في الحرب العالمية الثانية ، لان رد فعلها قد أمن لها ما تحتاجه من قوة ، لا لوقف الاستعمار عند حده فحسب ، بل ولمنافسته في غاياته واساليبه نفسها ، ساعدها في ذلك بعدها القصي عن اوربا ، وتنافس الدول عليها ، وخشية الولايات المتحدة من تصاعد الاحتكارات الاوربية في المنطقة على حسابها · بينما اضطرت مصر ، بعد ان احاطت بها قوى الاستعمار من كل جانب تمنع عليها قوتها الجديدة التي بنتها وهددت بها السلطنة العثمانية من جهة ، وهددت المصالح الاستعمارية في المنطقة من جهة ، الى ان تتراجع عن محاولتها ، وان تخضع للضغط الاستعماري ، وان يتابع شعبها خطه النضالي ، مشاركا شعوب العالم المستعمر في بحثها الطويل عن طريق الخلاص الحقيقية ·

ان قوانين التاريخ التي فرضت على اليابان اسلوبها في رد الفعل، ووقوفها عند ذلك الاسلوب واستمرارها فيه ، فرضت على غيرها من شعوب آسيا وافريقيا اسلوبا آخر على التحدي · اسلوب يبدأ بنضال فوقي تحمله الطبقات الحاكمة ، فالفئات المتعلمة تقليديا ، فالفئات المثقفة غربيا ، ما يلبث ان يتحول الى نضال جماهيري · اسلوب يبدأ بالاطمئنان الى معطيات الذات ، ليعيد النظر بعد ذلك في هذه المعطيات ، وليتحول من بعد ذلك الى هجرة من الذات وتبني كل ما تحمله الحضارة الغربية من مقومات ، ثم ليصل اخيرا الى موقف نقدي لهذه المقومات ، ورجعة نقدية الى الذات ، ولكن في مستوى تركيبي جديد · يبدأ بالنضال ضد التحدي الخارجي ، فما يلبث هذا النضال ان يكشف وجه التحديات الداخلية المعوقة لهذا النضال ، حتى يصبح التحديان الخارجي والداخلي تحديا متلاحما واحدا ، لا يصح النضال الا بمواجهتهما مواجهة واحدة كلية اصيلة · يبدأ برد فعل انعكاسي لا يطلب الا الخلاص من الاستعمار ، لينتهي الى مستوى رد الفعل الايجابي الذي لا يقف عند اقل من خلق مجتمع انساني جديد ، ذي مقومات حضارية جديدة ، ورسالة انسانية شاملة ·

ان معالم هذه الطريق التي سلكتها الشعوب في نضالها والمراحل التي مرت عليها ليست مجردة ولا مثالية ولا هي من خلق ارادي ذاتي · وانما هي من خلق الظروف التاريخية التي مر من خلالها النضال ، والخصائص التي احاطت بهذه الظروف ، ولا سيما خصائص الاستعمار المتحدي والمار في مراحل التجارة فالصناعة فالامبريالية الاحتكارية فالامبريالية الجديدة ، وخصائص ما اصطنع الاستعمار في المستعمرات من تغيير في الانظمة وفي الاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة وما ادى اليه ذلك من تغييرات طبقية واجتماعية عميقة ، وخصائص قيام جماهير الشعب بخوض معارك النضال ، واضطرارها الى ان

تفرز طبقة بعد طبقة رحلتها الطويلة ، وما اثاره هذا فيها من وعي ومن خلق جديد ومن تطلعات جديدة ·

ولا يخدعننا ، عن وحدة الطريق التي سلكتها الشعوب في نضالها ، هذا الاختلاف الذي قد نراه ونشاهد آثاره اليوم في دول العالم الثالث ، في غايات حكمها ، وفي اساليب هذا الحكم ، وفي انظمتها الاقتصادية والاجتماعية ، وفي مفاهيمها وقيمها ، وفي تحالفاتها وسياساتها الخارجية · ان هذا الاختلاف القائم حقا والذي لا يمكن انكاره قد يرجع الى الاختلاف في الخلفية الحضارية للشعوب ، او الى نوعية العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة قبل قدوم الاستعمار ، او الى نوعية التغييرات التي فرضها الاستعمار في البلاد ، او الى طول مدة الاستعمار ومقدار تعمقه في المجتمع ، او الى مبلغ اعتماده على الزعامات التقليدية او خصومته لها ، او الى مدى نضج الحركة النضالية وكيفية حصولها على استقلالها ، لا سيما وان شعوب البلاد المحكومة خاضت معاركها التحررية منفردة ، وفي ازمنة مختلفة ، وفي مستويات من الوعي متفاوتة ، وانها ناضلت ضد دول مستعمرة بالذات لا ضد الاستعمار الاوربي عامة · فلا عجب ان نرى ، في محصلة هذه العوامل جميعا ، اختلافا في النتائج كبيرا ، بين بلد وبلد من هذه البلدان ·

ولكن هذه الاختلافات القائمة في النتائج في اي وقت من الاوقات لا يجوز ان تخدعنا عن الوحدة القائمة بينها جميعا على مستوى الشعوب ، بل وعلى مستوى الدول والانظمة احيانا ، في وحدة الغايات والاهداف ، وفي وحدة مراحل الطريق ، وفي وحدة المحرك الاساسي لنضال هذه الشعوب · ولعلنا نرى هذه الوحدة اقوى ما يمكن ان نرى في الحركات الشعبية النضالية التقدمية التحررية ، المعبرة تعبيرا صادقا عن اماني جماهير الشعب وآماله · بل لعلنا نرى بعض آثار هذه الوحدة ، على رغم كل الاختلافات المرحلية ، في المؤتمرات الدولية لدول العالم الثالث ، لا سيما في مؤتمر باندونغ الذي وضع أسس هذه الوحدة ، ثم في مؤتمرات عدم الانحياز نفسها على رغم كل تناقضاتها ·

ان بلدان اميركا اللاتينية التي لم يطأ الاستعمار الاحتلالي ارضها الا في حالات قليلة ـ اذا استثنينا الاستعمار الاسباني البرتغالي نفسه الذي غير طبيعة السكان وخلق مجتمعا جديدا هو الذي نتعامل معه اليوم ـ والتي تعرضت ، مع ذلك ، الى ثقل ظل الاستعمار الامبريالي الاميركي الحديث ، وجدت ان من الطبيعي ان تلتقي مع بلدان آسيا وافريقيا التي مرت في تجارب اخرى مختلفة في مظاهرها كل الاختلاف · ولم يجد عبد الناصر وشو ان لاي

ونهرو وسوكارنو ، على رغم كل الاختلاف في الخلفية الحضارية والخلفية النضالية لكل من حركاتهم التقدمية التحررية ، صعوبة في ان يلتقوا وان تلتقي اهدافهم في مؤتمر باندونغ . وليس ثمة خلاف في المواقف الاساسية للجزائر والعراق والهند والصين وفيتنام وانجولا وكوبا على رغم الفوارق العظيمة ، احيانا ، في الخلفيات الحضارية والنضالية .

ان هذا كله انما يعني ان رد فعل التحدي الاستعماري ، الذي يبدأ نضالا اعمى من غير ايديولوجية ، ثم يمر ، بحكم التجربة التاريخية ، في مشارب وطرق تختلف في تفاصيلها ، لا بد ان ينتهي في نهاية المطاف الى رد فعل موحد في الاساس ، في جميع البلدان المتخلفة المعرضة للاستعمار . وان هذا الرد الموحد في الاساس انما تفرضه وحدة الاستعمار الاساسية . وانه لا بد ان يكون ردا قوميا .

الانتماء القومي

لقد وجد الماركسيون الارثوذكس والماركسيون الستالينيون صعوبة في التوفيق بين مبدأ « الاممية » الذي عارضوا به القوميات البورجوازية ، وبين الايمان بمبدأ « القومية » الذي اتبعته وناضلت في ظله ومن خلاله شعوب الشرق جميعا ، وما كان لهم ان يجدوا هذه الصعوبة لو انهم ركزوا ، في فهمهم العقائدي الماركسي ، على « تاريخية » الظواهر التاريخية والتعابير الاجتماعية ، وعلى معنى « الجدل التاريخي » ، بالقدر الذي ركزوا فيه على « التطبيق العملي » لذلك الجدل على مجتمع ماركس الصناعي المتقدم ، ووقوفهم عنده وتجمدهم لديه .

ان وجود « الانتماء القومي » على مدى التاريخ الحضاري كله ليس موضع نقاش عند احد . فقد كان ثمة في التاريخ دائما ، هنود وصينيون وعرب ويونان وجرمان واحباش وبربر وفرس ومغول . كانوا دائما موجودين ، وما يزالون موجودين . قد تتغير حدود هؤلاء او اولئك ، ، فتتسع او تضيق ، وقد تزداد اهميتهم في التاريخ او تنكمش ، وقد يتقوقعون على انفسهم او يظهرون الى العالم بقوة ، وقد تختفي امم كانت موجودة لتتكون امم لم تكن موجودة . وقد تندمج قومية في قومية لتولد قومية جديدة ، او قد تنقسم قومية كانت موحدة الى اكثر من قومية . ولكن مبدأ وجود القومية لم يختف ابدا في التاريخ .

وصحيح ان الشعور بالانتماء القومي لم يكن دائما هو الشعور الاوحد ،

بل ولا الشعور الطاغي حتما . ومن اجل ذلك « فالولاء » الذي يستدعيه اي انتماء اجتماعي قد يكون ، في فترات تاريخية مختلفة ، ولاء دينيا ، او عرقيا ، او طبقيا ، او قبليا ، او قوميا . والذي يفرض هذا الشعور او ذاك في مرحلة ما هو الخصائص التاريخية لتلك المرحلة .

وصحيح ، كذلك ، ان ما يجعل القومية « قومية » ليس عاملا واحدا في كل الظروف التاريخية ، وان ليس ثمة عامل واحد ثابت ، او عاملان او ثلاثة ، يمكن ان يصبح او ان تصبح عنصرا مشتركا في الشعور بالانتماء القومي ، لا في كل العصور ، ولا في كل العالم . وليس قول ستالين بأن الامة لا تبرز الا في عصر الرأسمالية النامية باقل دوغماتية وتحجرا من القائلين بأن القومية لا يمكن ان تكون الا تعبيرا عن وحدة اللغة ، او عن وحدة العرق ، او عن وحدة التاريخ ، او عن وحدة الارض ، او عن وحدة المصالح الاقتصادية .

ان لكل انتماء قومي ظرفه التاريخي الخاص به وعوامله التاريخية الخاصة . وقد يكون لمجموعة امم متشابهة في ظروفها الاقتصادية او الثقافية او الاجتماعية ما يجمع بين هذه العوامل او ما يقرب بينها في التصنيف . فنشوء القومية البريطانية مختلفة اسبابه عن نشوء القومية الفرنسية او الهولندية او الالمانية ، ومع ذلك فان ثمة من الخصائص ما يجمع بينها ، لتصنف جميعا بأنها قوميات العالم الصناعي البورجوازي . وكذلك يمكن ان نقول ان الذي يجعل من القومية العربية قومية لمختلف كل الاختلاف عما يجعل القومية الصينية او الهندية او التركية قومية . ولكن يجمع ما بين هذه القوميات جميعا انها قوميات تنتمي ، في ظروف نشأة الولاء لها ، الى مجموعة الدول المناهضة للاستعمار .

بالاضافة الى ذلك فان الولاء القومي ليس ولاء صافيا دائما ولا نقيا دائما . انه لا بد ان تداخله ، حتى في ذروة اشتداده وقوته ، ولاءات جانبية ، طائفية او عرقية او اقليمية او طبقية تحاول ان تنازع هذا الولاء في القوة ، او ان تدعمه ، او ان تضفي عليه من خصائصها . هو يعيش ، اذن ، في حالة جدلية دائمة ، مثله في ذلك مثل اية ظاهرة تاريخية .

الحركة القومية

ان الذي ولده النضال ضد الاستعمار ليس « القومية » ، بل « الحركة القومية » . والتمييز بينهما واضح . فالقومية انتماء . انتماء لوجود ، قبل الاستعمار وبعده . والحركة القومية رباط نضالي تخوضه القومية حين تصبح

هدفا للتحدي • القومية تتحول الى حركة قومية حين يكرهها التحدي على التفكير في ذاتها • فالقومية ، في الاصل ، قد تكون موجودة، وقائمة، ومسلما بها ، وغير مضطرة الى ان تفكر في ذاتها • ولكن حين يصبح وجودها مهددا بالفناء ، وحين يصبح انسانها مهددا بالضياع ، فانها تدفع دفعا الى التفكير في ذاتها ، لتنظر الى ذاتها من حيث هي موضوع ، ولتلتصق بهذه الذات ، ولتدافع عن الذات ـ الموضوع ، وتناضل من اجل البقاء ، ومن اجل النمو ، حينذاك تتحول القومية من وجود قومي الى نضال قومي وحركة قومية •

وقد كان الاستعمار هو التحدي الاكبر للوجود القومي وللانسان في بلدان الشرق المستعمرة • والاستعمار كان ، كما قلنا ، تحديا شاملا • كان تحديا عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ولغويا ودينيا وحضاريا وانسانيا • لم يترك ناحية من نواحي الحياة الا تحداها • كان تحديا للوجود كله • لمعنى الوجود • ولمادة الوجود • وللانسان الذي اضاع ذاته • ومن اجل ذلك ، لم يكن بد من ان يكون الرد في مستوى التحدي ، ان يدافع عن الذات ، وعن الوجود • وان يكون ، بذلك ، ردا قوميا شاملا • فالحركة القومية لم تنشأ نشأة ارادية واعية • ولذلك فهي ليست مجرد مذهب ايديولوجي يمكن ان تؤمن به او ان تدعمه • وانما نشأت لانها الرد التاريخي الوحيد • لانها هي رد الفعل الطبيعي المحتم لهذا التحدي الشامل • لانها هي المعين الزاخر من الطاقة التي لا تنضب في مواجهة التحدي • ولانها هي تلك الوحدة التي تربط الزمن كله ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، تربط ما بين التراث الذي يخلقنا ، والمشاكل التي نعاني منها ، والتطلعات التي نطمح اليها ، وتعيد الى الانسان شعوره بذاته •

من هنا لم يكن غريبا ان تكون جميع ردود الفعل في آسيا وافريقيا ، وبدون استثناء ، بدءا من اليابان اليمينية الرجعية ، وانتهاء بالصين اليسارية الشيوعية ، ومرورا بينهما بكل انماط ردود الفعل التفصيلية ، متسمة جميعا بانها ردود فعل قومية ، على رغم ما بين هذه الردود من اختلافات في الاسلوب وفي الطريق وفي المرحلة وفي الشعارات •

ان النضال ضد التحدي ، لا سيما حين يكون التحدي جديدا لا معرفة سابقة بمعطياته وخصائصه ، وحين يكون المتحدى مغرورا بمعطياته ، مطمئنا الى صفاته وخصائصه ، يولد ، اول ما يولد ، اعمى لا يعرف طريقه • وهو ، فقط حين يصاب بالفشل في مهمته ، يبدأ في التفكير في ذاته من حيث هي موضوع ليسائل نفسه « من انا » •

مثل هذا السؤال ، في غير خلفيته التاريخية المحدودة ، يمكن ان يتلقى كثيرا من الاجوبة · « فأنا » ، حين اكون منتصرا امام التحدي ، هو انتمائي الى وجودي المنتصر · فالمنتصر لا يسائل نفسه هذا السؤال · ولو ان الدول الجامعة الآسيوية والافريقية تمكنت من الصمود امام الاستعمار لما كانت ثمه حاجة لاعادة التفكير في الانتماء · فقد يبقى الانســان « عثمانيا » ولو كان عربي القومية · وفي الواقع فانه على مدى المدة التي تمكنت فيها الدول الجامعة من الصمود امام العدوان ، او وقفه عند حد لا يتجاوزه ، لم يكن هذا السؤال ليطرح ·

وحين يكون التحدي دينيا في الاساس ، كما كان الامر في اوربا في حروبها الدينية ، او كما كان بين الامبراطورية العثمانية أيام قوتها والامبراطوريــة الرومانية المقدسة ، او كما كان بين المسيحية والاسلام في الاندلس وفي الحروب الصليبية ، فان جواب « من انا » لا بد ان يكون ذا انتساب ديني · وفي الواقع فان بعض الممالك الهندية في جنوب الهند ، اول قــدوم الاســتعمار البرتغالي المحمل برسالة تبشيرية متعصبة ضد المسلمين ، لم تجد حــرجا في ان تتحالف مع الطارىء الغريب ضد خصمها التاريخي المتمثــل في الامبراطورية المغولية الاسلامية ·

وحين يكون التحدي بورجوازيا محليا ، او اقطاعيا متسلطا ، او سلطانا متجبرا ، فقد يكــون التحــدى ، في نضــاله ، بروليتاريــا ، او مواطنا ، او ديموقراطيا · فكذلك كان الامر في الثورة الروسية ، وفي الثورة الفرنسـية ، وفي الثورة الانجليزية ·

ولكن حين يكون التحدي استعمارا كليا وشــاملا ، له كــل الخصائص والصفات التي تهدد وجود المجتمع والانسان ، فان الرد القومي الكلي الشامل يصبح هو الرد الوحيد المنطقي التاريخي الجدلي العلمي الثوري ·

وطبيعي انه كان لا بد ان تتوفر عوامل مساعدة لابراز هذا الرد الى حيز الوجود · فمن جهة ، فان الاستعمار نفسه كانت تقوم به ، وتتنافس فيه ، دول قومية ، يحارب بعضها بعضا من اجل الحصول على المغانم في عملية واســعة لاقتسام العالم · ثم ان هذه الدول قد اقامت في استعمارها ، علــى غير نمط الدول الجامعة ، حاجزا عرقيا وحقوقيا وثقافيا وانسانيا بينها وبين المحكومين لم يترك للشعوب المقهورة غير مجال التفكير في « نحن » و « هم » ·

كذلك فان الحضارة الغازية لم تكن استعمارا فحسب · فقد كان وراءها ،

في بلادها . ثورات تحررية وفكر تحرري نضالي ثوري كان لا بد ان يجد طريقه الى فكر المحكومين • وحين كان جان جاك روسو يفقد اهمية فكره في الغرب ، احياه المثقفون القوميون في الشرق . وكان مصدر الهام لهم في تضمين القومية ، اول نشوئها ، مبادئها التحررية الاجتماعية والانسانية • ولعل كارل ماركس كان اخر من يتصور ان منهجه الفكري سوف يجد في المستعمرات المتخلفة صدى لم يجد مثله في البلاد الصناعية المتقدمة •

وفي المقابل فقد كان على الامة ، حين يتعرض وجودها كله للخطر ، ان تؤكد ذاتها ، تلك هي اولى خطوات الدفاع عن النفس • وتأكيد الـذات هو الشعور القومي • والشعور القومي يبدأ بالاستمداد من المـاضي والتمسك بالذات والاعتزاز بالمعطيات • فاذا كان للامة ماض وحضارة وتاريخ تعتز به احيته ، واستندت اليه في اثبات شخصيتها • واذا لم يكن لها ذلك لم تعدم ان تبتدع من تراث الاساطير ما يصح ان يكون ماضيا تستند اليـه • وليس يختلف في هذا قومية وقفت في سلم التطور عند حد الثورة القومية الفوقية الشوفينية المتعصبة ، كما هو الحال في اليابان ، وقومية تابعت طريق الثورة النضالية الجماهيرية حتى اخر الشوط كالصين •

الحركة القومية في الغرب

ان هذا المعنى التاريخي للحركة القومية في المستعمرات يظهر لنـا الفرق الشاسع ، بل التناقض الجدلي الكامل ، « بين الحركة القومية » كما ظهرت فـي الغرب و « الحركة القومية » كما ظهرت في المستعمرات • فالحركة القومية في المستعمرات نقيض الحركة القومية الاستعمارية ونفي لها ، وان اشتركتا فـي المسمى الواحد • والنقد الماركسي الموجه ضد القومية البورجوازية ليس بذي علاقة بالقومية التحررية • ولقد كان لينين ، بين الماركسيين ، اول من وعى هذه الحقيقة وأدرك العلاقة المتينة بين الحركة البروليتاريـــة في الغرب والحركات التحررية في الشرق ، وتناقضهما كليهما مع البورجوازية الامبريالية ، ووجوب وقوفهما معا في تحالف قوي مستمر •

صحيح ان لينين لم يكن يتوقع ـ الا قبل وفاته بقليل ـ اكثر من ان تكون الحركات التحررية القومية في آسيا وافريقيا عونا للحركات البروليتارية الغربية في اضعاف الامبريالية وتهيئة الجو المناسب للثورة البروليتارية في الغرب • ولكن لينين لم يعش حتى يرى كيف تنقلب الحركات القوميـــة التحررية على نفسها ، في مجرى نضالها الطويل ، وتصبح هي نفسهـــا الحركة التقدميـة الاشتراكية اليسارية الحقيقية في المستعمرات ، وكيف تنقلب الحركة البروليتارية

في الغرب على ايديولوجيتها لتستكمل انتهازيتها ولتصبح جزءا من مؤسسات الحكم البورجوازية الامبريالية ، وكيف يصبح الامل الوحيد بانتصار ثورة اشتراكية حقيقية في الغرب مرتبطا بانتصار الحركة القومية الاشتراكية في بلدان العالم الثالث على الامبريالية انتصارا حاسما وشاملا ·

لقد كانت الحركة القومية في اوروبا ، اول نشأتها ، مثلها في ذلك مثل الحركة البورجوازية ، حركة تقدمية موجهة ضد الحكم الاقطاعي والكنسي في القرون الوسطى · حركة تمثل النمو الشعبي الذاتي في وجه تغير حدود الدول كل حين حسب مصاهرات الملوك ، وتمثل الحاجة الى دولة مركزية قوية توحد القوانين في نطاق الدولة وتعقلنها ، وتتجاوز الامتيازات الاقطاعية والرسوم والجمارك المحلية ، وتوسع سوق البيع والشراء ، وتسهل الانتقال والمواصلات ، وتتمكن من حماية مصالح التجارة التي توسعت لتشمل الكرة الارضية كلها · فنشأت فكرة « الملك ـ الدولة » ، تلك الفكرة التي ما لبثت ، بعد ان تناقضت سلطات الملك المطلقة المستبدة مع مصالح التجار والصناع المتزايدة ، ان ولدت الحركة المطالبة بالديمقراطية الليبرالية ، وتحولت الى فكرة « الامة ـ الدولة » ، أي « الدولة القومية » ليصبح السلطان الحقيقي فيها بيد طبقة اصحاب المصالح التجارية والصناعية والمالية المتنامية ·

على أن هذا الوجه التقدمي للحركة القومية في اوروبا ، والذي يراه بشكل خاص الفكر الغربي ، البورجوازي منه والاشتراكي ، يقابله وجهه البشع ، وجهه الاستعماري ، ووجهه الاستغلالي الداخلي · ولقد اقتصر الكتاب الماركسيون ، والحركة الاشتراكية بشكل عام ، على رؤية الوجه البشع الداخلي ، واقتصروا في تحليلهم للتطور الاوروبي البورجوازي والليبرالي والقومي ، على التاثرات والتأثيرات الداخلية المحض ، دون ان يلتفتوا الى الوجه البشع الآخر ، ودون ان يدركوا ان جميع التغيرات التي يصفونها انما نشأت بالفعل بسبب التوسع الاستعماري العالمي ، وما أدى اليه هذا التوسع من تغيرات في ميدان التجارة أولا ، ثم في خلقه ودفعه للثورة الصناعية ثانيا ، ثم في وصوله الى درجة الاحتكارات وسيطرة البنوك والمصارف ثالثا ·

فاذا كان وصف ماركس التحليلي النقدي لهذه التغيرات قد انصب على ما اصاب المجتمع البورجوازي نفسه من انقسام ومن استغلال طبقي ، واقتصر على ذلك ، وهو ابن المجتمع الصناعي المتقدم ، فانه لا يجوز لمفكري شعوب العالم الثالث ان ينسوا ان كل الخيرات والثروات التي انصبت على اوروبا ، وفتحت لها سبل التطور السريع ، وخلقت منها ما خلقت ، سواء في عنفوانها وقوتها ، او في تناقضاتها ، انما جاءتها من المستعمرات التي امتصت خيراتها

وثرواتها امتصاصا ، وان السبب الحقيقي في النهضة البورجوازية الاوروبية، سواء في وجهها التقدمي او في وجهيها البشعين ، ليس مجرد تغيير في أدوات الانتاج ، بل هو استغلال شعوب المستعمرات الذي أتاح هذا التغيير في أدوات الانتاج ، بل فرضه فرضــا ٠

ان النزاع البحري بين اسبانيا والبرتغال على تملك المستعمرات ـ ذلك النزاع الذي دفع البابا الى اصدار قراره البابوي الشهيـر القاضي بتقسيـم العالم بين الدولتين ـ ، ثم النزاع البحري بين الانجليز والاسبان على السيادة في الاطلسي ، ثم بين الانجليز والهولنديين من جهة والبرتغال من جهة ، على السيادة في المحيط الهندي ، ثم النزاع المسلح بين بريطانيا وفرنسا في كل انحاء العالم ،كل ذلك وضع الدعامة الاساسية في تحويل كل من هذه الـدول الى دول « قومية » ، تضم قومية واحدة ولو تعددت اصولهـا العرقية او لهجاتها ولغاتها او مذاهبها الدينية ، دون ان يسبق نشوء ذلك الوضع القومي فكر سياسي « قومي » محدد ٠ والواقع ان هذا الفكر انما نشـأ في اوروبا الوسطى لا الغربية حين تقدمت مجتمعاتها بورجوازيا وصناعيا ، وحرمت ، في نفس الوقت ، من المستعمرات ٠

ان ارتباط نشوء فكرة الدولة القومية بالمدى الاستعماري وبالتقدم الذي حققه المجتمع في الميدان التجاري والصناعي العالمي معا ، يفسر لنا التقدم الهائل الذي حققته كل من هولندا وبريطانيا ثم فرنسا في وضعهـا السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، قبل أن تحقق مثله أو بعضه امبراطوريات اوروبا الوسطى بزمن طويل ٠ وفي الواقع فان دول وسط اوروبا لم تتمكن من اللحاق بالدول الغربية البحرية الا في اواخر القرن التـاسع عشر واوائـل القرن العشرين ٠ وبقيت الامبراطورية النمساوية ، وهي الاكثر تاخرا ، حتى نهايـة الحرب العالمية الاولى ، وهي تضم عددا كبيرا من القوميات ، مثلها في ذلك مثل اية دولة جامعة ، تعمها الحركات الانفصالية ٠ بينما اتجهت المانيا ، وهي الاكثر تقدما ، من تجزئتها الى حوالي ثلاثمائة اقطاعية وامارة ومملكة ، الـى الوحدة القومية ٠ ولا ريب في أن تحقيق الوحدة في المانيا ، وانتشار حركات الانفصال في النمسا ، انما يرجع ، لا الى اختـلاف التركيـب القومـي للامبراطوريتين فحسب ، وانما ، ايضا ، الى النهضة الصناعية البورجوازية التي حققتها المانيا في القرن التاسع عشر ٠ ولو اتيح للامبراطورية النمساوية أن تسير في طريق التصنيع البورجوازي الكبير في وقت مبكر ـ (ولم يكن ليتاح لها ذلك وهي المحبوسة عن البحر في عصر الاستعمار البحري) ـ وعمت فيها « الديموقراطية الليبيرالية » ، لما قامت حركات الانفصـال القومـي فيها ٠ فبريطانيا ، مثلا ، يسكنها اكثر من قومية واحدة ٠ ومع ذلك لم تسمع فيهـا

اصوات الانفصال الاسكتلندي او الولشي الا حديثا ، وبشكل خاص ، بعد انهيار الاقتصاد البريطاني هذا الانهيار الذي نشهده اليوم ٠

في الواقع فان مبدأ « الامة ـ الدولة » ، او « الدولة القومية » لم يمكن تطبيقه في أوروبا الا في نطاق ضيق جدا ٠ فحركات الانفصال في الامبراطورية النمساوية لم تنتج دولا قومية ، وانما انشأت ، حسبما ارتأى المنتصرون في الحرب ، دولا مكونة من قوميات متعددة ٠ فتشيكوسلوفاكيا الناشئة بعد الحرب الاولى ضمت التشيك والسلوفاك والالمان السوديت وبعض الرومانيين والبولونيين ، وضمت بولونيا اجزاء من اوكرانيا ومن روسيا البيضاء ومن المانيا ذاتها ٠ بينما تضم يوغوسلافيا الحديثة ست جمهوريات واكثر من عشر اقليات لو طبق عليها مبدأ « الامة ـ الدولة » لانقسمت الى بضع عشرة دولة٠

ان القومية في أوروبا لم تكن هي باعث شعار « الامة ـ الدولة » ، لانها هي نفسها نتاج الاكتشافات الجغرافية ، والنمو البورجوازي ، والتوسع الاستعماري والتنافس الدولي على الارض القديمة والجديدة معا ، والحروب الاهلية الاوروبية التي اتسع ميدانها ليشمل العالم ولتسمى حروبا عالمية ٠ في مثل هذه الحروب كان الشعور القومي يتكون ويشتد ، وتولد القومية بأبشع صورها ومظاهرها ٠ ومن هنا كان من الاصح ان نقول ان شعار « الدولة ـ الامة » الذي اقتضته التجارة العالمية هو الذي خلق القوميات الاوروبية الجديدة ضمن الدول القائمة في بلدان اوروبا الغربية البحرية الاستعمارية المتقدمة ٠

واذا كانت القومية العرقية الشوفينية قد وصلت أوج بشاعتها في المانيا النازية فان هذه القومية لم تكن تختلف ، في خصائصها الاساسية وفي اتجاهات بشاعتها ، عن أية قومية استعمارية اخرى ٠ وانما يكمن الاختلاف الاساسي في ان المانيا ، المتقدمة صناعيا والمحرومة استعماريا ، حاولت ان تطبق في اوروبا المبادىء التي قصرت الدول الاستعمارية تطبيقها على المستعمرات ٠

ومن هنا يمكننا ان ندخل بعض التعديل على قول ستالين بان الامة لا تبرز الا في عصر الراسمالية النامية ، بان نقول ان القومية الاوروبية لم تبرز الا في ظل النمو الراسمالي المتاتي عن التوسع الاستعماري او الرغبة فيه ٠ ولعلنا نرى اليوم كيف خفتت الخلافات « القومية » بين دول اوروبا الراسمالية حتى كادت تختفي ، حين زالت مستعمراتها على رغم ان نظامها البورجوازي ما زال قائما ٠

من هذا كله يمكن أن نقول ان الحركة القومية الاوروبية تميزت بميزات الاستعمار نفسه ، لانها وليدة هذا الاستعمار . فهي قومية عنصرية ، شوفينية ، توسعية ، بورجوازية ، استغلالية ، استعلائية ، متطلعة الى اخضاع العالم لنفوذها ولاحتكارها ولاستغلالها . ولئن تميزت هذه القومية ، في البلاد التي سبق التحقيق الاستعماري فيها نشوء البورجوازية ، بالارتباط بالمبادىء الليبرالية في مجتمعاتها ذاتها ، فانها ، حيثما تلا طلب الاستعمار نشوء القومية البورجوازية ، ارتبطت بالدكتاتورية العسكرية المكشوفة سواء تمثلت ببسمارك او بهتلر او بموسوليني او ، حتى ، ببلسودمسكي وفنزيلوس .

الحركة القومية التحررية

ان الحركة القومية لا تكتسب صفاتها وخصائصها من ذاتها ، اي من مجرد انها حركة قومية ، انما تكتسبها مما تعبر عنه من قضايا وما تسعى الى تحقيقه من اهداف .

واذا كانت الحركة القومية في الغرب قد ولدت في حضن التنافس الاستعماري والنمو البورجوازي الاستغلالي ، واتخذت صفاتها وخصائصها منهما ، فان الحركة القومية في المستعمرات قد ولدت في حضن الحركة المقاومة للاستعمار بكل ما فيه من احتلال واستغلال وكبت وتمييز عنصري واستعلاء واغتراب مطلق للانسان وللانسانية . ومن هنا كانت الحركة القومية في المستعمرات حركة تحررية ،وكانت نقيض الحركة القومية الغربية ونفيا لها .

ان الرد على الاغتراب المطلق للانسان المستعمر يبدأ في الذات ، برفض هذا الاغتراب . وقبل ان يتمكن الانسان المستعمر من تحرير وطنه لا بد ان يحرر نفسه اولا من قيود الاستعمار على انسانيته ، على عقله وقلبه وارادته . فيبدأ بتاكيد قيمته وذاته امام هذا الذي يحاول الحط منها ومنه . وهو يفعل ذلك بتاكيد انسانيته ، وانتمائه ، وتاريخه ، ومجتمعه ، ولغته ، ودينه ،وحضارته بتاكيد قوميته . وحتى حين يضطر الى ان يتقبل حقيقة ان قيم حضارته اصبحت مزعزعة وعاجزة عن الوقوف امام معطيات الحضارة الغازية ، وعلى رغم انه يضطر الى الارتشاف من كثير من معطيات هذه الحضارة التي حملت معها قيما جديدة ، والات جديدة ، وفكرا جديدا ، وعلى رغم انه يضطر لاطراح كثير من فضلات حضارته السابقة التي تقف حجر عثرة امام تنمية قدراته النضالية واداء رسالته التحررية ، فهو يقبل على ذلك كله اقبال الانسان الواعي لشخصيته ، فتلك هي صفة الانسان المناضل، لا اقبال الانسان المضيع لشخصيته التي هي صفة الانسان العميل التابع ، انه ياخذ ليثمي لا ليلغي ذاته .

هذا التأكيد على الذات ، وعلى الشخصية ، ورفض الاغتراب ، هو الذي يعطي رد الفعل صفته القومية العامـــة ٠

ان النقيض في المنطق التاريخي الجدلي هو النقيض التـــاريخي ، لا أي نقيض ، ولا النقيض الستاتيكي الحسابي ٠ والرد على اي تحد تاريخي محدود بالضرورة بظروف ذلك التحدي التاريخية ٠ قد يكون نقيض القومية ، في المنطق الستاتيكي المجرد ، هو اللاقومية ٠ واللاقومية ليست الا نفيا مجردا للقومية٠ وقد يكون النفي بمحوها للوصول الى ما هو اوسع منها ، كالانسانيـــة ، او الاممية ، كما قد يكون للوصول الى ما هو اضيق منها ، كالقبلية او الاقليمية المحليــة او الطائفيــة ٠

ولكن نقيض الحركة القومية المعتدية ، في المنطق الجدلي ، لا بد ان يكون الحركة القومية المتحررة٠ لان رد الفعل لا بد ان يكون من نفس نوع التحدي، نابعا منه ، ومناقضا له ، ونافيا لخصائصه في نفس الوقت ٠ ان هذا الاتصال والانفصال بين التحدي وبين نقيضه التاريخي لا بد ان يصل الى ان يخلـــق تركيبا جديدا ، متصلا بالتحدي نفسه من جهة ، ومتصلا بنقطة الانطلاق في رد الفعل من جهة اخرى ، اي بالذات الحضارية ذات التراث ، ومتجاوزا لهمـا في آن معا ٠ فالقومية التحررية لم تكن موجودة في معطيات الاستعمار ، ولا هي موجودة في معطيات الشرق المتخلف ٠ وانما هي نتاج التضاد بين التحـــدي ورد فعله ، ووليدة الصراع بينهما ٠

ولعلنا نرى شيئا من آثار هذا الالتحام الجدلي حين نرى ان الشعـــوب المستعمرة لم تتجمد عند حد الدفاع عن تراثها وتاريخها وحضارتها ، ولا هي، في رفضها للاستعمار ، رفضت كل ما هو وراء هذا الاستعمار من حضـــارة وفكر وعلم ٠ وانما هي ، في مرحلة ، رجعت الى ذاتها تعتد بمعطياتها وتزيـح عنها الشوائب ، ثم ، في مرحلة اخرى ، ادارت ظهرها لهذه المعطيات وحاولت ان تنفتح على الغرب بلا تحفظ ، ثم اذا بها ، في مرحلة ثالثة ، تسترجع ثقتها بنفسها حين تتبنى طريق النضال الثوري الاشتراكي ، فتلتقي مع ذاتها ، وفـي نفس الوقت ، تأخذ وتدع من المعطيات العالمية كلها ما يتفق مع شخصيتهـــا ومع مصلحتهـا ومع مستلزمات رسالتهـــا ٠

وكاني بالاستاذ ميشيل عفلق ، حين عبر عن هذه العلاقة الجدلية فـــي الانسان المناضل القومي الاشتراكي ، قد لخص نفس العلاقة في الشعوب حيــن قال : « ان العلاقة بالتراث يجب ان تمر بثلاث مراحل ٠ المرحلة الاولى مرحلة الاطلاع على التراث لاكتشافه وفهمه ٠ المرحلة الثانية ، الافتراق عنه ، بحيـث

نسير في طريقنا الخاص ، طريقنا المتميز ، الذي هو قدرنا ، بعد تاثرنا بهذه الرؤية · المرحلة الثالثة ، الالتقاء بالتراث بعدما نكون قد ادينا قسطنا من النضال ، واصبحنا ثوريين حقيقيين ومناضلين مجاهدين ، وبالتالي قادرين على فهمه فهما حقيقيا · فكلما تقدمنا خطوة على طريق النضال يزداد فهمنا الحي له · وهذا يعني ان فهم التراث مرتبط بالخطوات النضالية ، والخطوات الجادة على طريق بناء المجتمع الجديد » ·

ان نقيض « القومية » كمجرد رابطة ستاتيكية ، هو « اللاقومية » ، بمعناها الاوسع او بمعناها الاضيق · ولكن الحركة القومية الغربية لم تصل الى الشرق فكرة مجردة ستاتيكية ، وانما وصلت استعمارا واستعبادا واستغلالا واستعلاء ومحوا للشخصية القومية والانسانية · فكان لا بد لرد الفعل التاريخي الجدلي ان يكون حركة قومية تنفي الاستعمار والاستعباد والاستغلال والاستعلاء ، وتسترجع الشخصية القومية والانسانية ·

ان الدعوة الى الاممية قد يكون لها مبرر حين تولد في ظرف تاريخي تعبت فيه امم ودول وشعوب من منافسات قومية وحروب منهكة افقرتها وهصرتها ودمرتها واراقت دماءها · كالدعوة التي انتشرت بعد الحربين العالميتين لانشاء عصبة الامم ، ثم هيئة الامم المتحدة ، ولاشاعة السلام في الارض · او حين تستعمل القومية والمجد القومي والمصلحة القومية ، في هذه المنافسات والحروب ، ستارا لتغطية حقيقة ان المستفيد الاصيل منها هو الموكب الحالي العسكري الحاكم ، وان دافع ضريبة الدم والعرق والجوع والدموع هو الطبقات الكادحة في المجتمع القومي ذاته ، كما ادركت ذلك ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الحركة الاشتراكية الاوربية ·

ومع ذلك ، فان هذه المبررات ، على رغم النظرة الامية الاشتراكية ، لم تتمكن ، في واقعها التطبيقي ، من اثبات امكان الانسلاخ القومي ، وتخلي كل امة عن شخصيتها · على العكس من ذلك فان محاولات يوغوسلافيا والبانيا وهنغاريا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا في اثبات استقلالها عن عاصمة الاشتراكية العالمية ، وفي محاولة التوفيق بين شعورها القومي واميتها الاشتراكية ، معروفة ومشهورة · بل ان بعض الدول الجامعة الاشتراكية ، كالاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، لم تخل من محاولات انفصالية في داخلها ايضا · وان مشاكل الحدود بين بعض هذه الدول لها من الاهمية ما لها بين الدول البورجوازية نفسها ·

ومن هنا فانه على رغم محاولات الامية الاولى والثانية والثالثة لخلق

« حركة اشتراكية اممية واحدة » فان هذه المحاولات جميعا انتهت الى خلـــق « حركات اشتراكية » ، لكل طابعها القومي واستقلالها النسبي ، وطريقهـــا الخاص لتحقيق الاشتراكية ، بل وتصورها الخاص للاشتراكية نفسها .

وغني عن القول ان الحركات الثورية في الصين وفي فيتنام وكمبوديـا ولاوس وكوبا والتشيلي وانجولا ، وان تبنت المنطق الماركسي اللينيني ، حركات قومية في الاساس ، موجهة ضد الاستعمار وضد التخلف ، وانهـا اختطـت طرقها الخاصة في النضال وفي بناء المجتمع ، وانها قد اغنت النظرية الماركسية في المستعمرات بمعان لم تكن فيها ، وان الماركسية بالنسبة اليها لم تكن الهـا يعبد ، ولكن منهجا في الوعي ودليلا في العمل ، وانها فهمت من الاممية وقوف جميع الشعوب المقهورة والقوميات المضطهدة في صف واحد ضد الامبريالية ، ولم تفهم منها وجوب الغاء القوميات والشعور القومي .

يقول فرانز فانون « يقول بعضهم هنا وهناك ان القومية مرحلـــة قـــد تجاوزتها الانسانية ، وان الزمان الحاضر هو زمان التجمعات الكبيـــرة ، وان على المتاخرين الذين ما زالوا يؤمنون بالقومية ان يصححوا اخطاءهم ، ونحـــن نرى ، على خلاف ذلك ، ان الخطأ الفادح ، الخطأ المثقل بالنتائج الخطيرة ، هو ان نحاول القفز فوق المرحلة القومية » . لا سيما وان القومية ليست عائقا دون الانسانية الشاملة والعالمية الكبرى . على العكس ، فان « وعي الذات ليس انغلاقا دون التواصل . بل لقد علمنا التفكير الفلسفي ان وعي الذات هو ضمانة التواصل . ان الوعي القومي ، والشعور القومي ، الذي هو ليس تعصبا قوميا ، هو الامن الوحيد الذي يهيء لنا بعدا عالميا » . ونجاحه ان « كل امة مستقلة في افريقيا سوف تظل مطوقة تتربص بها الاخطار في كل لحظة ، الى ان تتحـــرر افريقيا كلها من الاستعمار » ، بل الى ان يتحرر العالم الثالث كله ويقضي علـى الامبريالية . « ان التحرر القومي لا يبتعد بنا عن الامم الاخرى ، بل انه هو الذي يجعل الامة حاضرة على مسرح التاريخ . ففي قلب الوعي القومي انما ينهض الوعي العالمي ويحيا » .

محتوى الحركة القومية

قلنا ان ثمة فرقا بين « القومية » من حيث هي رابطة ، وبين « الحركـة القومية » من حيث هي وعي هذه القومية على ذاتها ، ومن حيث هي نضـال لجعل هذه الرابطة منطلقا في الميدان التاريخي . والرابطة القومية ، في ذاتها ليست خيرا ولا شرا . انها رابطة من الروابط الكثيرة التي تربط الانســـان بمجتمعه ، تتناسق احيانا ، وتتناقض احيانا ، مع روابط اخرى . وهي قـد

تبرز احيانا في التاريخ لتكون اقوى رابطة تربط المجتمع وتجعل منه الوحـــدة الاجتماعية الحضارية المتكاملة المميزة عن غيرها من المجتمعات ، وقد تنحسر امام غيرها من الروابط اذا حلت رابطة محلها في مرحلة من التاريخ ، فيضعف اثرهـا وتتحول الى رابطـــة ثانوية ٠

ولكن « الحركة القومية » لا يمكن ان تكون ، مثل الرابطة القومية ، خالية من القيمة الخلقية ٠ لانها ، بطبيعة كونها « حركة » وبطبيعة كونها « تاريخية »، لا بد ان تكون خيرا او ان تكون شرا ، وان يكون لها بالتالي تقييم خلقـي ٠ وهذا التقييم الخلقي ليس نابعا من كونها « حركة » ولا من كونها « قومية »، وانما هو نابع من حيث « منطلق » هذه الحركة ، و « اتجاهها » و « اهدافها » و « اسلوبها » و « ما تعبر عنه » ٠ وهذا ما يمكن ان نطلق عليه تعبير «محتوى» هذه القومية او « مضمونها » ٠

ومن هنا ذلك التمييز الواضح بين التقييم الخلقي للحركة القومية الغربية وللحركة القومية التحررية ٠ فعلى رغم ان الاولى مثلت ، من ناحية ، حركـــة التحرر من قيود الاقطاع والكنيسة والتخلف الحضاري ، فقد مثلت ، مـــن ناحية اخرى ، استعباد الانسان واستغلاله وكبته واغترابه ، في مجتمعـــات المستعمرات ، وفي مجتمعاتها نفسها ٠ بينما انطلقت الثانية من منطلق التحرر من التخلف ، ثم اذا بها تصل ، عبر مراحل كثيرة ، الى مستوى النضال من اجل التحرر من كل ضروب الاستعباد والاستغلال والكبت والاغتراب ، سواء كان مصدره الاستعمار او غير الاستعمار ، والى مستوى النضال من أجل خلـــق الانسان القادر على استعمال مواهبه وتفجير طاقاته والتعبير عن ذاته ، ومن اجل مجتمع عالمي يسوده الرخاء والحرية والمساواة والسلام ٠

ان تعبير « الحركة القومية » في ذاته تعبير تجريدي ٠ وهذا التعبير انما يتخذ معناه الحقيقي حين ينقلب من المجرد الى الموضوعي ، فيترجم الى عملية تحرر انساني ملموس ، متصل بتلبية حاجات الانسان الجسمية والعقليـــة في آن معا ، بحيث يكون قادرا على المساهمة في الحياة الانسانية مساهمـــة فعالة مريدة واعية ، وبحيث تعم امكانات تلبية الحاجات ، وامكانات المساهمـة الانسانية ، كل انسان على وجه الكرة الارضية ٠ وهذا المعنى ، في المستـــوى الموضوعي ، كما يعني القضاء على الاستعمار ، والقضاء على التخلف ، يعني ايضا تامين حاجة الانسان الى الغذاء والكساء والسكن والصحة وفـــرص التعليم والتعبير والراحة والعمل المنسجم مع القدرات والعلاقة الانسانيـــة الخالية من الخوف ، الخوف من الجوع او البطالة او الجهل او العدوان على الحرية او الاغتراب ٠

يقول فرانز فانون « ان الشعور القومي ، ما لم يكن تجسيدا منسجما لاعمق مطامح الشعب بمجموعه ، وما لم يكن ثمرة مباشرة حيـة نابضة للتعبئة الشعبية ، فلن يكون في احسن الاحوال الا شكلا لا مضمون له ، سريع الزوال ، قليل الدقة والوضوح » . ولذلك فان الشعور القومي قد يستثير جماهير الشعب للنضال لا سيما حين يرتبط بالطموحات الانسانية . ولكنه سرعان ما يفقد هذه القدرة على الاستثارة اذا فقد ارتباطه بهذه الطموحات ، وفقد محتواه ، وبقي اطارا بلا مضمون . ولعل هذا ما يفسر لنا الافلاس السريع الذي تصاب به معظم الحكومات الوطنية بعد الاستقلال ، حين يقع الانفصال بين الشعارات التي نادت بها الحركة القومية ، وجمعت حولها الجماهير ، وبين اتجاهها نحو خدمة طبقة واحدة من طبقات الشعب بدل خدمة الشعب كمجموع .

ان محتوى الحركة القومية هذا لم يضعه احد . لم يخترعه ولم يصطنعه احد . ولا هو من قبيل المواعظ الخلقية . انه من حتمية ولادة حركة النضال ضد الاستعمار ، وانطلاقها ضد التخلف ، ومن حتمية نمو هذه الحركة وتجربتها وخبرتها ، ونجاحها وانتكاساتها ، ومن مشاركة الجماهير في النضال من داخلها ، ومن الامال التي تدفعها ، ومن الخيبات التي تصاب بها . وكل ما يمكن ان تفعله النظرية في هذا المضمار هو ان « تكتشف » هذا المحتوى ، وان تعبر عنه التعبير السليم ، وان تضعه في موضعه الحقيقي من الحركة القومية ، وان تعي ان النضال القومي هو من اجل هذا المحتوى ، لا من اجل الاطار الخالي من المضمون .

ولان هذا المحتوى هو من خلق التاريخ . لا من خلق مفكر ما او زعيم ما ، فالحركات القومية في المستعمرات قد لا تصل جميعها الى هذا الوعي الشامل لمعنى الحركة القومية ومحتواها ، وقد لا يتزامن وصول من وصل منها الى هذا الوعي او قريب منه . وذلك بسبب تميز الظروف التاريخية التفصيلية في كل حركة قومية ، وبسبب اختلاف عمق معاناة الاستعمار ، وبسبب طول فترة النضال وعمقه واسلوبه ، وبمقدار اتساع المشاركة الجماهيرية فيه .

ولعل العودة الى مثل اليابان ، والصين ، مرة اخرى ، يبين لنا هذا الامر بوضوح . فنجاح اليابان في دفع خطر الاستعمار عنها في فترة مبكرة نسبيا في تاريخها ، وتحقق هذا النجاح على يد انقلاب فوقي قامت به السلطة دون ان تخوض الجماهير معركة نضالية ضد الاستعمار ، دفع الحركة القومية اليابانية في مسار مختلف تماما ، بل ومناقض ، لمسار الحركة القومية في بلدان العالم الثالث .

واضطرار الصين الى دخول المعركة تلو المعركة ضد الاستعمار الغربي وضد الحكم المنشوكي المتخلف ، الرافض لاي فكرة من افكار التحديث ، وقيام جماهير الشعب بخوض هذه المعارك ، وخيبات الامل التي اصيبت بها ،واعتراف الحلفاء باستقلال الصين والغاء معظم الامتيازات الاجنبية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، وخيانة الحكومات الوطنية المتعاقبة لقضية تحرر الجماهير ، ثم اضطرارها لمواجهة العدوان الياباني مرة اولى وثانية وثالثة ، وحمل جماهير الشعب لعبء هذه المواجهة ، كل ذلك ، الى جانب توفر القيادة الحكيمة الصابرة الصامدة الواعية لمعنى حركة التاريخ الشاملة ، جعل تطور الحركة القومية في الصين يصل الى اقصى مداه ·

بينما اكتفت بلاد لم يتح لها ان تولد فيها حركة قومية جماهيرية واسعة، واتيح لها تحقيق استقلالها السياسي عندما منحتها اياه الدول الاستعمارية بسبب انحسار الاستعمار الاحتلالي من العالم كله ، ان تقف عند هذا الحد من الطموح ، فلا هي تتابع نضالا قوميا ضد الامبريالية الجديدة وانما تترامى في احضانه ، ولا هي تجدد مجتمعها ، او تدفعه نحو التحديث ، او تحارب التخلف ، وانما تقتصر على النعم التي انعم بها الاستقلال السياسي على طبقتها البوجوازية الناشئة ، وتحرص على ابقاء دكتاتورية البورجوازية فيها، وعلى علاقاتها الجديدة الحميمة مع قوى الامبريالية · وفي هذه الحال سرعان ما نرى ان الحركة القومية ، بدل ان تتجه ضد قوى الاستعمار والتخلف ، تنحرف افقيا لتتجه اتجاها عرقيا ، او اقليميا ، او طائفيا ، او قبليا ، ضد «الاجانب» التابعين لعرق آخر ، او اقليم اخر ، او طائفة دينية اخرى ، او قبيلة اخرى ، من العروق والاقاليم والطوائف والقبائل المستعمرة كذلك ، او قد تنحرف عموديا لتتجه اتجاها طبقيا وعقائديا لضرب حركات اليسار والتقدمية وحركات الكادحين وحركات المنادين باستكمال ايديولوجية العالم الثالث الشاملة ·

وفي الاقطار العربية نفسها مثل هذه الظواهر · فعلى رغم وحدة الامة، وعلى رغم قومية المعركة ، وعلى رغم تنامي الوعي الجماهيري من خلال النضال الطويل ، فنحن نشهد مفارقات كبيرة في مقدار الوعي القومي وعمقه، يتناسب مع اثر الاستعمار في كل من هذه الاقطار ، ومع طول النضال وعمقه ومشاركة الجماهير فيه ، كما نشهد ، فوق ذلك ، اثر التجزئة القطرية للنضال ضد الاستعمار ، وما سببته تلك التجزئة من ان كل قطر عربي خاض نضاله التحرري وحده ، وان كل قطر عربي خاض نضالا مختلفا عن نضال القطر الآخر ، بل ان بعضها لم يكد يخوض اي معركة نضالية على الاطلاق ، وما انتهى اليه هذا كله من اضعاف للحركة القومية الموحدة ، التي يجب ان تكون،

في الاساس ، اطار الحركة القومية التحررية في الوطن العربي كله ، ووعاءه

من هنا يمكن ان نقول اننا اذا لاحظنا ان الحركات القومية في بلدان العالم الثالث لم تستكمل جميعا عقيدتها التحررية الشاملة الكاملة المحيطة بمشاكل الانسان والمجتمع القومي والعالم ، ولاحظنا الاختلافات الكبيرة في اتجاهات النظم الحاكمة وتخبطها وحيرتها في حل مشاكلها ، فليس النقص هو في الايديولوجية نفسها ، بقدر ما هو في المدى الذي قطعته شعوب تلك البلدان في طريق التحرر الطويل . ان بلدان العالم الثالث لم تتم تحررها بعد . لم تستكمل الحركة القومية محتواهابعد . انها ما تزال مستعبدة لدكتاتوريات البورجوازية المتعاونة مع القوى الامبريالية الماضية في استغلال موارد البلاد وامتصاص ثرواتهـا .

ان الحركة القومية التحررية لا بد ان تحقق محتواها . ومحتواها لا يمكن ان يقل عن هزيمة الامبريالية والتخلف ، وعن قيام الوحدة القومية ، وعن اقامة مجتمع سوي غير طبقي تسودد المساواة والتكافؤ ، وتتاح فيه الفرص للانسان لاستعمال كل طاقاته ومواهبه وتنميتها ، ويمحي فيه الاستبعاد والاستغلال ، وتتم فيه التنمية من القاعدة الى القمة لتصل الى مجموع الشعب لا الى فئة من فئات الشعب ، وعن اقامة دولة نابعة من الشعب ، معبرة عن تطلعاته التحررية ، متعاونة ومتحالفة مع كل قوى التحرر في العالم لاقامة نظام عالمي جديد يسوده التكافؤ والمساواة والسلام .

وكل حركة قومية لا تقوم على هذا المحتوى فهي زائفة ، او منحرفة ، او ضائعة عن هدفها ، او فجة غير ناضجة . « فشتان بين التحرير القومي من حيث هو هدف ، وبين مناهج المعركة ومضمونها الشعبي » (فانون) .

تركيب الحركة القومية

من الطبيعي ان نتوقع ان يكون تركيب اي حركة تاريخية منسجما مع الطبيعة التاريخية لتلك الحركة ، اي مع التناقض الذي ولدها ، ومع الاهداف التي تسعى الى تحقيقها . كأن يكون العبيد ، مثلا ، اصحاب الثورة في نظام الرق ، وان يكون البورجوازيون اصحاب الثورة ضد نظام الاقطاع ، وان تكون البروليتاريا صاحبة الثورة في الثورة الاشتراكية ، وان يكون « الشعب » مادة الثـورة في الثورة القومية التحررية .

على ان احداث التاريخ قلما تكون صافية وبسيطة هذا الصفاء وهـذه

البساطة التي تبدو في المقولات التجريدية السابقة ٠

فمن ناحية فليس ثمة طبقة يمكن ان تزعم انها انما تقوم بالثورة من اجل مصالحها هي فحسب ، والا قضت على ثورتها بنفسها ٠ وانما هي تزعم ، دائما ، انها انما تقوم بثورتها هذه من اجل مصلحة « المجتمع » كله ٠ ولذلك فهي تستمد القوة من جميع الطبقات غير المتلاحمة مع الطبقة المتحدية ، وتتحالف معها ٠ يقول ماركس في هذا المعنى « لا يمكن لطبقة في المجتمع المدني ان تقوم بهذا الدور ـ اي الثورة السياسية ـ الا اذا تمكنت من اثارة الحماس، في نفسها وفي الجماهير ، فامتزجت بالمجتمع ككل ، وجعلت من نفسها ممثلة له، بحيث تشعر المجتمع بانها الممثل العام لمصالحه ٠ ان غاياتها ومصالحها لا بد ان تكون بالفعل غايات المجتمع نفسه ومصالحه ، بحيث تصبح في الواقع رأس هذا المجتمع وقلبه ٠ فباسم المصلحة العامة فحسب يمكن لطبقة معينة ان تدعي الصدارة العامة » ٠

فالثورة البورجوازية الديموقراطية في فرنسا لم تخضها الطبقة البورجوازية وحدها وان قادت فكرها وايديولوجيتها وقطفت ثمارها ، وانما خاضتها جماهير الشعب كلها ، لا سيما طبقاتها المسحوقة ، مدفوعة بشعار « الحرية والمساواة » ، التي هي ليست هم البورجوازيين فحسب ، وانما هي هم الجماهير كلها ، على رغم ان فهم البورجوازية لمعنى الحرية ولمعنى المساواة كان لا بد ان يختلف مع فهم الجماهير المسحوقة لمعنييهما ٠

من ناحية اخرى ، فانه ليندر ان تكون هناك ثورة صافية موجهة نحو غرض معين بذاته ، دون ان تداخله اغراض اخرى مرتبطة به ٠ وتداخل هذه الاغراض يدفع فئات كثيرة وطبقات متعددة ، غير الطبقة المعنية بالذات، الى الاشتراك في الثورة او مع الثورة ، كما قد يدفع بعض فئات الطبقة المعنية الى الابتعاد عن الحركة التاريخية لطبقتها

ان الثورة البريطانية في منتصف القرن السابع عشر كانت ثورة ديموقراطية وبورجوازية ودينية في ان معا ٠ وهي لذلك ضمت اكثر من طبقة، وهي ، لذلك ايضا ، شرذمت الطبقات شرذمة عنيفة ، فما لبثت فئات هذه الطبقات ان انقلب بعضها على بعض ، وبدلت مواقف بعد مواقف ، لاختلاط الاهداف وانعدام صفاء الغرض الموحد للثورة ٠

ولعل في الثورة الروسية ما هو اكثر توضيحا لهذا الاختلاط في الاغراض ، فعلى رغم ان البلاشفة قطفوا ثمارها ، فقد كانت ثورة ديموقراطية،

بورجوازية ، بروليتارية ، فلاحية في أن معـــا ، كما كانت ضد الملكيـــة الاوتوقراطية ، والنفوذ الالماني في القصر ، والاستغلال الاجنبـــي والمحلي ، وسوء ادارة الحرب ، والجوع والفقر والكبت والاضطهاد ، وضد الاقطاع والبورجوازية ، فجمعت بذلك طبقات كثيرة متداخلة ، وفئات مختلفة ، لم تكن البروليتاريا ، بالتأكيد ، اقواها ولا اكثرها عددا . ولكن تنظيم الحـــزب البلشفي وقيادة لينين تمكنا ، عبر « الثورة غير المنقطعة » من احلال الصبغـــة البروليتارية الاشتراكية عليها ، لتضم اتجاهات الثورة الكثيرة ولتتجاوزها .

من ناحية ثالثة ، فلان الثورة حركة تاريخية عنيفة وسريعة ، وهـــي بذلك متسارعة التطور والتغير والتبدل ، قبل الثورة واثناءها وبعدها ، ولان المتحدي ، كذلك ظاهرة تاريخية متغيرة ومتبدلة ، فان تركيب الحركة معـرض للتغير في كل مرحلة من مراحل الثورة ، قبل الثورة واثناءها وبعدها .

ان كثيرا من أسباب التحضير للثورة يقوم به المثقفون . ولكن المثقفين قلما يبدأون ثورة ، وقلما يكونون في صميم قوتها الضاربة العنيفة ، هم فـي المقدمة اثناء التمهيد للثورة ، وفي الصفوف الجانبية بعد قيامها . وبالمقابـل فان الفلاحين قد يكونون ، في بلد صناعي متقدم انعدمت فيه الاقطاعيـات او كادت ، طبقة رجعية محافظة معوقة للثورة البروليتارية . وكذلك فهم قد يبدون ، في البلاد المتخلفة ، اكثر الطبقات استسلاما ، اكثرها امتناعا على جهـــود التنظيمات الحزبية . ولكنهم ، في الواقع ، إكثر الطبقات قابلية للاشتعال . فهم يخوضون حركات عصيان عفوية دون تردد كبير . وهـــم سرعان مـــا يصبحون ، اذا ما عمت الثورة ، اول من يطرح استسلامه الظاهري ، واول من يستجيب الى العنف الثوري ، ليصبحوا وقود الثورة الحقيقي وسندهـــا القـــوي .

ومع اخذنا بهذه الاعتبارات المعدلة للقانون العام فان هذا القانون يبقى في اساسه قائما وصادقا وحقيقيا ، ويبقى « الشعب » في هذا القانـــون هـــو مادة التغيير في الحركة القومية .

على اننا ، ونحن نستعمل كلمة « الشعب » هنا ، لا بد لنا من ان ندرك ، اولا ، ان الشعب في هذا المجال ، غير الامة . فالامة تجمع كل من ينتمي الـى الرابطة القومية . والشعب هو ذلك الجزء من الامـــة المعادي للاستعمار والتخلف . وان ندرك ، ثانيا ، ان كلمة « الشعب » هذه انمـــا هي تعبير تاريخي . وهي بذلك لا تمثل بالضرورة نفس الجزء من الامة في جميـــع مراحـــل نضالها . وانما هي تعبير يطرأ على معناه التغير بتغير مراحـــل النضـــال .

وطبيعي جدا ان يكون « الشعب » ، بهذا المعنى الجامع الواسع ، هو طرف المعادلة في التناقض مع الاستعمار · فالاستعمار ليس موجها ضد طبقة بالذات في المستعمرات ، وانما هو يصيب الشعب ، بكل طبقاته ، بالاغتراب والتمييز العنصري وبقية خصائص الاستعباد والاستغلال · والواقع فان تكوين الشعب نفسه ، في ظل الاستعمار تكوين مائع ، ضائع بين التكوين الطبقي الموروث القائم على النظام الاجتماعي السابق ، وبين التكوين الطبقي الجديد الذي تحفزه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، والذي لا يمكن ان ياخذ مداه الحقيقي ما دام الاستعمار قائما ومسيطرا على السلطة السياسية والفعاليات الاقتصادية في آن معا · فالشعب ، بكل طبقاته مضطهد · والشعب ، باستثناء شريحة عليا صغيرة ، كله محروم ، وكل اقتصاده اقتصاد تابع للمستعمر ·

بالمقابل ، فان الطرف الاخر من معادلة التناقض ، اي الاستعمار ، لا يمثل بالنسبة للشعب المستعمر مجرد طبقة بورجوازية احتكارية ، كما يحاول ان يرسمها الاشتراكيون الغربيون ، حتى وان يكن المستفيد الاول من الاستعمار هو هذه الطبقة · ان الخاصية الاولى للاستعمار في المستعمرات هو تمييزه العرقي او القومي او العنصري · وهو اول ما يحسه الانسان المستعمر واول ما يميزه عن المستعمر · والمستعمر الذي يراه المستعمر ويتعامل معه ويتلقى منه الضربات والاهانات ليس بالضرورة من طبقة بورجوازية او عسكرية او مالية حاكمة · يكفي انه الاجنبي المستعمر ، وانه ينتمي الى القومية المستعمرة · بل ان الطبقة العاملة في بلاد الاستعمار نفسها قد اصابها كثير من فتات فوائد الاستعمار حتى اتهمها لينين بالانتهازية وبمتابعة البورجوازية الحاكمة في مراميها واغراضها ·

لقد قدم فان كول ، الاشتراكي الديموقراطي الهولندي ، تقريرا الى المؤتمر الاشتراكي الدولي المعقود في امستردام عام ١٩٠٤ ، يقول فيه « ان الاتجاه نحو التوسع الاستعماري اتجاه عام · وهو نتيجة لتطور المجتمع الرأسمالي ··· فالرأسمالية تقود الى الامبريالية ، والامبريالية بدورها تشجع الروح العسكرية بالضرورة ، هذه الروح التي تدمر الشعوب وتمتص نخاع عظامهم ··· ومع ذلك ، فهل من الضروري ان نشجب كل ملكية استعمارية ، في كل الاحوال ، وفي كل زمان ومكان ؟ ان الحاجات الجديدة الناشئة بعد انتصار الطبقة العاملة وتحررها الاقتصادي يجعل امتلاك المستعمرات ضرورة حتمية ، حتى في ظل نظام الحكم الاشتراكي المقبل · (كذا) · ان البلاد المتقدمة الحديثة لا يمكن ان تسير قدما اذا لم تمدها بلاد اخرى بالمواد الخام ومنتوجات المناطق الحارة التي لا تستغني عنها الصناعة وحاجات الانسان » ·

وعلى رغم ان هذا التقرير قد رفض في المؤتمر ، ورفض مرة اخرى في مؤتمر شتوتجارت عام ١٩٠٧ ، فان السياسة التي اتبعتها الاحزاب الاشتراكية في غرب اوربا ، لا سيما بعد ان وصلت الى الحكم ، لم تختلف عن سياسة اي حزب محافظ ، بل لعلها كانت في كثير من الاحيان اشد قسوة وعنفا . يكفي ان نذكر دور الحزب الاشتراكي الفرنسي في ثورة الجزائر ، ودور حزب العمال البريطاني في ثورة عدن .

ولعل احدا من المحافظين الرجعيين لم يلخص اهداف الاستعمار القديم كما لخصها فان كول هذا في دفاعه عن تقريره في مؤتمر شتوتجارت ، حين تساءل « ماذا يمكن ان يفعل ـ المعارضون للاقتراح ـ بزيادة السكان في اوروبا ؟ اين يمكن ان يعيش الذين يريدون ان يهاجروا اذا لم يعيشوا في المستعمرات ؟ ماذا يمكن ان يفعل (المعارضون) بالانتاج المتنامي للصناعة الاوروبية اذا لم يجدوا له مسارب جديدة في المستعمرات ؟» .

ويسخر لينين من هذه الاقوال ، ومن « رسالة التمدين » التي تشدق بها القائلون ببقاء الاستعمار الاشتراكي ، والتي تقتصر ، كما قال ، على نشر الخمر ومرض الزهري في المستعمرات ، الى ان يقول « ... انه نتيجة السياسة الاستعمارية التي تكلف غاليا ، فقد وصلت البروليتاريا الاوربية ، جزئيا ، وضعا لم يعد فيه عملها ، هو الذي يدعم المجتمع القائم ، وانما الذي يدعمه هو شعوب المستعمرات المستعبدة بالفعل . فالبورجوازية البريطانية ، مثلا ، تنال من الارباح من عشرات ومئات الملايين من سكان الهند وغيرها ، اكثر بكثير مما تناله من العمال البريطانيين . وهذه الاوضاع تخلق ، في بعض البلاد ، القاعدة المادية والاقتصادية لوصول عدوى التعصب الاستعماري الى الطبقة البروليتارية » .

ان هذا الوضع في طرفي معادلة التناقض مع الاستعمار جعل الرد الطبقي المحض في المستعمرات امرا مستحيلا ، وجعل رد الفعل القومي بأداته الشعبية امرا حتميا .

على ان هذا التركيب « الشعبي » للحركة القومية كان لا بد ان يداخله الكثير من التطور والتغير . فاذا تركنا جانبا مرحلة رد الفعل الفطري ، تلك المرحلة التي اقتصر فيها رد الفعل في الواقع على الحكام ومن يلوذ بهم من موظفين وقادة واتباع وعبيد ، كان تركيب الحركة النضالية في مرحلة الاصلاح الديني قائما في الاساس على رجال الدين قيادة ، والفقراء والمحرومين والمسحوقين قاعدة .

على ان تركيب الحركة القومية انما بدأ يتبلور ويأخذ شكلا خاصا عند بدء حركة الوعي الوطني الحديث • ففي هذه المرحله ولدت الافكار الوطنية ، مرتبطة بالفكر الليبرالي والفكر البورجوازي ، في فئة المثقفين الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الحديثة في الوطن او في الخارج • وفي نفس هذا الوقت كانت تقوم بين المحرومين والمسحوقين حركات نضالية عصيانية ، بين آونة واخرى ، قد تقتصر على قرية ، او على اقليم ، او على طائفة ، ولكنها قلما عمت البلاد جميعا • مثل هذه الحركات كان فيها رفض للجوع ، او للظلم والتعسف ، او للاضطهاد العنصري ، او للضرائب، او لمصادرة الارض • وكانت تنتهي جميعا الى الفشل• لانها كانت تعبيرا فطريا عن رفض فطري ، خالية من مقومات النجاح التي لا بد ان يأتي على رأسها تحديد الاهداف وتحديد الوسائل وتحديد التنظيم •

كانت « الافكار الوطنية » في جهة ، وكانت « الحركات الوطنية » الذاتية الفطرية في جهة • ولم يكن من السهل ان تلتقي الجهتان مع اختلاف وضعهما الطبقي اختلافا كليا ، لولا ان فئة « المثقفين » الذين كانوا ينتمون في الاصل الى الطبقات القادرة على تحمل مصاريف التعليم ، قد بدأت قاعدتها في الانتشار ، بسبب تزايد حاجة الاستعمار الى المتعلمين في تنفيذ اغراضه ، او بسبب انتشار المدارس المحلية التي تعلم بالاسلوب الغربي في انحاء البلاد ، حتى فاض عدد المثقفين الفقراء عن العدد الذي قد تحتاجه منهم الادوات الاستعمارية ، ونشأت بينهم ازمة بطالة • فأصبح هؤلاء المثقفون المحرومون صلة الوصل بين اصولهم المحرومة وبين الفكر الوطني الحديث ، وكانوا ، مثقفين عاطلين ، ومعلمين ، وموظفين صغارا ،ومحامين لا يجدون عملا ، وطلبة ، قاعدة العمل الوطني الجديد •

بالاضافة الى هؤلاء ، كان التغيير الاقتصادي والاجتماعي المتسارع في البلاد في ظل المصالح الاستعمارية ، يخلق طبقة مستفيدة ـ يمكن ان نسميها بورجوازية ، ولو اختلفت في معطياتها التاريخية اختلافا كليا عن البورجوازية الغربية ـ شاعرة بان الامتيازات والاحتكارات وادارات المؤسسات ووكالات التجارة وملكيات الصناعة محرمة عليها ، متاحة للمستعمر ، وكانت ثقافتها ، في نفس الوقت ، تتيح لها ان تدرك مبلغ الغبن اللاحق بها ، وانها ، في نهاية الامر ، ليست الا تبعا لاصحاب المصالح الاستعمارية ، وفي خدمتهم • بعضهم كان « قنوعا » فاعجبته هذه الحال ، بما تضمنته من امتيازات وفوائد لم تتح « للشعب » ، وان لم تبلغ مبلغ امتيازات المستعمر وفوائده • وبعضهم انضم الى الحركة الوطنية غير قانع بهذا الفتات الذي يرمي به المستعمر اليه •

ونشأت طبقة عمالية في المدن كانت احسن حظا من الفلاحين المحرومين

حرمانا تاما ، وان كانت تختلف في تكوينها اختلافا كبيرا عما يسمى عـادة بالبروليتاريا في المجتمع الصناعي الغربي ، لانعدام الصناعات الكبيرة ، ولهيمنة العمل اليدوي المجزأ ، ولندرة فرص التجمع والتكفل • ومن هنا لم تكن معظم التكتلات العمالية الاولى في قطاع الصناعة بقدر ما كانت في قطاع المواصلات وبخاصة في السكك الحديدية • هذه « الطبقة » ،وان تمتعت ببعض الامتيازات التي لم يتمتع بها الفلاحون ، سرعان ما تعاون على ازدياد شعورها بالحرمان والاغتراب هجرة الفلاحين الى المدن للتفتيش عن لقمـة الخبز ، وارتفـاع تكاليف الحياة في المدينة ، وارتفاع مستوى التطلعات ، مع قصور ذات اليد، وعدم الاطمئنان الى دوام العمل ، والعيش في جو المدينة بعيدا عن الجـذور التقليدية للقرية ، والتعرض لمضايقات سلطات القمع الاستعمارية ، وضعـف امكانات التكتل والتنظيم المتاحة ، كل ذلك ، بالاضافة الى قرب هذه الطبقـة من منابع الفكر الوطني الحديث وتماسها بالوطنيين المثقفين الجدد ، خلق فيها وعيا نقابيا وسياسيا حديثا ، وجعلها في قلب الحركة الوطنية في كل مكان •

وبقي الفلاحون في فقرهم وحرمانهم ، بعد فشل العديد من حركاتهـم العصيانية ، يحملون في قلوبهم غصة الحرمان الشامل ، ويشعرون بالعجـز امام قوى الاستعمار الجبارة ،ولا يعون هذا الذي يردده ابناء المدن من فكر جديد ، ويعجز ابناء المدن عن الوصول الى عقولهم وقلوبهـم ، ما دامـوا متمسكين بوسائل النضال السلمية ، من تنظيم حزبي ونشرات وبيانات وخطب ومظاهرات واضرابات ، فيمضون حياتهم في استسلامية تغطي نارا من السخط والحرمان • فاذا ما جد الجد ، وطرحت لغة العنف ، اللغة الوحيدة القـادرة على الوصول الى اسماعهم وعقولهم وقلوبهم ، كانوا هم المعين الذي لا ينضب للتضحية وللفداء ، وكانوا هم وقود الثورة والقاعدة الاساسية لقوتها •

في هذه المرحلة الوطنية ، التي اكتملت فيها سيطـرة الاستعمار علـى مقدرات البلاد ، لم تكن طبقة واحدة تواجه عنفوان التحدي واغترابه ، وانما كان يواجههما « الشعب » كله ، جميع الطبقات ، باستثناء تلك الشريحة العليا التقليدية من المجتمع التي وجد الاستعمار مصلحة في الابقاء على امتيازاتهـا ومصالحها ، بل في تنمية هذه الامتيازات والمصالح ، وفي اشراكها في بعـض المغانم والفوائد ، وباستثناء تلك الشريحة « الجديدة » التي خلقها الاستعمار، باستخدامها لتادية خدماته المحلية ، لتقوم بالوساطة السياسيـة والاداريـة والاقتصادية بينه وبين « الشعب » •

لقد ادرك ماو تسي تونغ ، وهو يقود الثورة الصينية ضد الاستعمار وضد التخلف ، ان الشعب الصيني ، مثله مثل اي مجتمع طبقي في الدنيا ، يمكن ان

يقسم الى طبقات ٠ ولكنه ادرك ايضا ان ما يجمع بين هذه الطبقات في تناقضها مع الاستعمار اكثر بكثير مما يفرق بينها ، باستثناء تلك الشريحة العليا ، البورجوازية الكبيرة ، التي « لا يمكن على الاطلاق ان تنسجم اهدافها مع اهداف الثورة الوطنية ، وهي ، منذ البدء حتى النهاية ، تقف مع الامبريالية وتشكل الركيزة الاساسية لأعداء الثورة » ٠

وايمانا من ماو تسي تونغ بوحدة هذا الشعب امام الاستعمار فقد طرح تعبير « دكتاتورية الشعب الديموقراطية » وصفا لنظامه الثوري بدلا من تعبير « دكتاتورية البروليتاريا » التي طرحها لينين ٠

على ان ماو تسي تونغ ، ببعد رؤيته ، وبمنهجه الماركسي التحليلي ، لم يكن يخفى عليه ايضا ان وحدة الشعب امام الاستعمار تخفي هي نفسها تناقضا ٠ فالبورجوازية المتوسطة « لها موقف متناقض من الثورة الوطنية ٠ فهي حين ترزح تحت عبء ضربات رأس المال الاجنبي وظلم الطغاة تشعر بالحاجة الى الثورة وتؤيد الحركة الثورية ضد الامبريالية والطغاة ٠ ولكن حين تتخذ البروليتاريا في بلدها موقفا حازما في الثورة ، وتؤيدها في ذلك البروليتاريا في الخارج ، فانها تشعر بتهديد مصالحها وطموحاتها في الارتفاع بنفسها الى مصاف البورجوازية الكبرى ، ويداخلها الشك في الثورة ٠ هذه الطبقة المسماة بالبورجوازية الوطنية ٠٠٠ لا بد ان ينحاز جناحها اليميني الى صف الامبريالية والطغاة اذا ما اشتد ساعد الطغاة ، بينما يرفض جناحها اليساري رفضا قاطعا الانضمام الى الامبريالية ، ولكنه لا يني يتمسك بالطرق « السلمية » الفارغة التي اعتاد عليها زمنا طويلا ٠٠٠ ولذلك فان تحالفه المتقطع مع الثورة لا يدوم » ٠

ومع ذلك فان الشرائح الطبقية الخارجة عن الحركة القومية النضالية تبقى صغيرة نسبيا ٠ وتبقى كتلة الشعب الكبرى معها وفيها ، مكونة لواجهة التناقض الكبرى ٠ هكذا كان تركيب كل الحركات الوطنية في كل بلاد العالم الثالث التي ولدت فيها هذه الحركات ، لا سيما بين الحربين العالميتين ، بعد تحقق التقاء الطبقات المحرومة ، القديمة والجديدة ٠ فسعد زغلول وغاندي وصن يات صن لم يقودوا حركات طبقية ضد الاستعمار ، وانما قادوا حركات شعبية عامة تضم الاكثرية العظمى من الشعب ٠

ان المطلب الاول لمثل هذه الحركات الشعبية الموجهة ضد الاستعمار لا بد ان يكون « الاستقلال » ٠ ولكن كان مفهوما ، لدى الطبقات المحرومة من الشعب ، المكونة للقاعدة الواسعة لمثل هذه الحركات ، ان الاستقلال يعني



شيئا اكبر بكثير من مجرد طرد الاجنبي المستعمر • فالاستعمار مسؤول عن التخلف ، عن الجهل ، عن الفقر ، عن المرض ، عن التفكك الاجتماعي • والاستقلال سوف يعالج هذا كله اوتوماتيكيا بمجرد الحصول عليه • هذا ما افهمهم اياه قادة حركة النضال الشعبي وهذا ما قادهم الى الاشتراك في الحركات الشعبية النضالية •

على ان ما كشفت عنه الماركسية منذ زمن طويل ، لا سيما في تحليلها لاحداث الثورة الفرنسية وتطوراتها ، وما تجاهلته الحركة الوطنية الشعبية لمدى طويل ، من ان البورجوازية ، حين تتزعم حركات وثورات شعبية عامة ، ما تلبث ان تظهر خصائصها الاساسية ، كان لا بد ان يظهره من جديد سير التاريخ ومعاناته • فمن جهة ، فالبورجوازية تكره العنف والعصيان الطويل، وتلجأ الى الوسائل « السلمية » والمفاوضات وعقد المعاهدات والقبول بالحلول الوسطى وايجاد القواسم المشتركة مع الاستعمار • ومن جهة ثانية ، فهي ،حين تصل الى السلطة ، وهي تصل بحكم وجاهتها وثقافتها وتزعمها للحركات الوطنية ، سرعان ما تستأثر بالمغانم ، وتحكم حسب عقليتها وايديولوجيتها البورجوازية ، وتقف من المطالب الشعبية العارمة موقفا اصلاحيا « متعقلا » ، وتركز همها في الحلول محل المستعمر في كسب الارباح باسرع طريقة ممكنة ، وتكتفي من الاستقلال السياسي باحتلال المراكز التي كان يحتلها الاستعمار ، ومن الاستقلال الاقتصادي بحلول البورجوازي المحلي محل الرأسمالي الاجنبي، وكيلا عنه ، منفذا لغاياته •

ولكن الطبقات المحرومة التي دفعت ثمن الحركات النضالية الموجهة ضد الاستعمار والتي حققت الاستقلال ، ما تلبث ان تكتشف انها طعنت في آمالها وطموحاتها • وان « الاستقلال » الذي كان يمثل مجموع هذه الآمال والطموحات لم يغير في شروط حياتها تغييرا اساسيا ، وان جوعها وفقرها وجهلها ومرضها واغترابها عن كل ما تزخر به الحياة ما يزال قائما كما كان من قبل • وان قيودها التي كانت تعيش فيها في ظل الاستعمار بقيت كما هي ، واقتصر الامر على تغيير الحارس • وان الاستعمار الذي كان العدو الاول للشعب قد اصبح الصديق الاول للحكم •

في مرحلة النضال الشعبي العام كان ثمة فرز طبقي يقف فيه الشعب كله في جهة ، ويقف الاستعمار ، مستعينا بالشريحة العليا للمجتمع ، في جهة • في المرحلة التالية يقوم فرز طبقي جديد ، تصبح فيه البورجوازية الوطنية والاقطاع الوطني على رأس الحكم ، تمالىء الاستعمار الجديد ويمالئها ، لا تطمع في اكثر من الحلول محل المستغلين السابقين ، في السلطة وفي ادارات

الاعمال ، متمسكة بالنظام الاقتصادي القائم التابع للبورجوازية الدولية ، وبالنظام الاجتماعي القائم الكفيل ببقائها في مراكز سلطتها وتسلطها ، ومعادية لكل حركة تستهدف تحرير الاقتصاد الوطني ، وتحديثه ، واشراك الجماهير في معطيات الحياة العصرية ، كل ذلك باسم المحافظة على « الوحدة القومية » ٠

في المقابل ، تبقى الطبقات المسحوقة والمحرومة ، لا سيما العمال والفلاحون والجنود والمثقفون الثوريون ، لتشكل لب الحركة القومية التحررية الجديدة ، المشبعة بمعنى النضال الطبقي من حيث هو جزء لا يتجزأ من النضال القومي ، ولتكون اعنف رفضا لروابط الاستعمار الجديد والنظام الامبريالي الاستغلالي ، واكثر وعيا على ترابط النضال القومي التحرري مع النضال التحرري للطبقات الكادحة ٠

فاذا وعت هذه الطبقات المسحوقة دورها التاريخي الحقيقي وعيا سليما ونافذا ، واغتنمت الفرص التاريخية المتاحة لها لفرز يمين الحركة القومية المتآمر عليها ، كما حصل في الصين وفي فيتنام ، وقضت على النفوذ البورجوازي قضاء مبرما ، واقامت حكما معاديا للامبريالية بكل ما تعنيه من روابط ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، حكما منفتحا على التحديث وعلى خلق مجتمع جديد وانسان جديد ، حكما اشتراكيا قائما على تنمية قاعدية موجهة نحو رفاه طبقات الشعب الكادحة ، حكما جماهيريا قائما ، لا على تجاوب الشعب فحسب ، بل على مشاركته الفعالة الواعية ، كان هذا الفرز الطبقي فرزا واحدا ونهائيا وقاطعا ٠ والا توالت عمليات الفرز واحدة بعد واحدة ، وتوالت المواجهات تميل ذات اليمين تارة وذات اليسار تارة ، لتصل في النهاية ، الى الفرز الكامل ، ولكن بعد اضاعة وقت طويل ، وبعد دفع ثمن من التضحيات كبير ، وبعد عديد من التجارب ومن النكسات ومن التراجعات٠

ان التركيب الطبقي للحركة القومية يختلف ، اذن ، من مرحلة الى مرحلة وما يفتأ العامل الطبقي يولد ويتنامى في الحركة القومية حتى يصبح الصراع القومي والصراع الطبقي صنوين ٠ ولا يبدو هذا واضحا كما يبدو في ظل الامبريالية الحديثة ٠

٣

الامبريالية الجديدة

خداع النظر

في الفصلين السابقين تحدثنا عن الاستعمار، فعل التحدي، وعن رد فعله، الحركة القومية . ولعله بدا من حديثنا عن الاستعمار اننا انما تحدثنا عن الاستعمار الاحتلالي وحده، بمراحله الثلاث المختلفة المذكورة في القسم الثاني من هذا الكتاب . والواقع اننا آثرنا ان نركز على الاستعمار الاحتلالي ذاك، اولا لانه يمدنا بالاصول التاريخية لكل من الاستعمار ولرد فعله، وثانيا لان دخول الاستعمار في مرحلته الرابعة، مرحلة الامبريالية الجديدة، لم ينف عن الاستعمار خصائصه وصفاته الاساسية، لا من حيث تحديه، ولا من حيث شموله، ولا من حيث عالميته، وان غير في أداته وفي اساليبه بعض التغيير، كما غير في رد فعله بعض التغيير .

لقد انتهى الاستعمار الاحتلالي من العالم، او كاد، بعيد الحرب العالمية الثانية . وتصورت شعوب العالم الثالث انها، بحصولها على استقلالها السياسي، قد ازاحت عن كاهلها اكبر عبء تاريخي وقف عقبة امام سيرها في طريق التقدم والتحرر والحضارة، وان هذه الطريق اصبحت مفتوحة وممهدة امامها، لا ينقصها سوى ان تغذ السير فيها، وانها اصبحت على قدم المساواة مع دول اوربا والغرب، تتعامل معها تعامل الند للند . يقول السردار بانيكار في كتابه «آسيا والسيطرة الغربية» «يمكن ان يقال انه على رغم انتهاء السيطرة الاوربية السياسية على البلدان الاسيوية، فان صفحة العلاقات بين الطرفين ما زالت مفتوحة، وان اوربا في الواقع ما تزال تحتفظ بصلاتها الوثيقة بكثير من نواحي النشاط الآسيوي بل لقد ضاعفت هذه الصلات، وان التجارة بين اسيا واوربا اليوم اوسع مما كانت من قبل . ولا ريب في ان ذلك كله صحيح . ولكن الفرق الاساسي هو ان قاعدة العلاقة قد تغيرت تغيرا كليا . فاذا ازدادت الصلات الاقتصادية توثقا، فانها تقوم على اساس التبادل وعلى اساس المصلحة القومية لكل من الطرفين، لا على اساس التحكم الاوروبي . والصلات السياسية بين الامم الاسيوية والاوروبية انما تقوم بين دول مستقلة» .

يقول السردار بانيكار ذلك في كتابه المطبوع عـــام ١٩٥٣ ، اي قبـل ان يتكشف القناع عن الدور الجديد الذي تلعبه الولايات المتحدة في الامبرياليـــة العالمية • لقد شهد هزيمة اوربا في استعمارها الاحتلالي ، ولكنه قصر عــن رؤية الوجه البشع الجديد المطل على العالم في الامبريالية الجديدة • على رغم ان لينين قد رأى شيئا من ذلك قبل ذلك بثلث قرن ، حين قال في تقريره المقدم الى المؤتمر الثاني للاممية الشيوعية « ان من الواجب ان نشرح باستمرار ، وان نكشف للجماهير العاملة الواسعة لكل الدول والشعوب ، لا سيما للشعـوب المتخلفة ، ذلك الخداع الذي تقوم به القوى الامبريالية ، بشكل منظم ومدروس، وبمساعدة الطبقات ذات الامتيازات من الشعوب المسحوقة ، والذي يخلـق ، تحت ستار اقامة دول مستقلة سياسيا ، دولا تابعة لهذه القوى تبعية اقتصادية ومالية وعسكرية كاملـــة » •

ولا ريب في ان كثيرا مما غطى على عيون زعماء الحركات الوطنيـــة التحررية يعود الى طبيعة تلك المرحلة من الاستعمار وطبيعة تلك المرحلة مــن الحركة القومية • اما الاستعمار ، باحتلاله الرابض المكشوف ، فقد كان اثــره ظاهرا في كل مناحي الحياة • واما الحركة القومية ، بزعامتها الاقطاعيـــة والبورجوازية ، والمثقفة ، وبمضمونها الليبرالي البورجوازي ، فقـــد ربطت مشاكل البلاد كلها وتناقضاتها وتخلفها بالوجود الاستعماري ، وجعلت مـــن « الاستقلال » شعار الحركة القومية ومنتهى مطافها • كمـــا ان التركيـــب « الشعبي » للحركة ، المتجاوز لكل صراع طبقي ، باستثناء الصراع ضـــد الشريحة العليا في المجتمع الممالئة للاستعمار ممالأة كلية ، لم يكن يسهل على الشعب الرؤية المسبقة لما يمكن ان يحدث بعد الاستقلال • ومن هنا كان مسلما به أن زوال الاستعمار وتحقيق الاستقلال سوف يفتح امام الشعب ابواب التقدم ويخلصه من كل ما كان يشكو منه من مظالم ومن حرمان ومن اغتراب •

لذلك كان على معظم الحركات القومية ان تختبر الاستقلال السياسي اولا حتى تولد فيها المرحلة الرابعة ، مرحلة الحركة القومية الاشتراكية ، ثم كـــان عليها ان تتعرض للامبريالية الجديدة حتى تبلور مواقفها بلورة سليمة بعيـدة النظر شاملة الرؤية •

نهاية الاستعمار الاحتلالي

لم ينته الاستعمار الاحتلالي ، طبعا ، بالصدفة ، ولا بالارادة الذاتيـــة للدول الحاكمة • وانما انتهى نتيجة تصاعد في قوى المقاومة النضالية ، وضعف في قوة الدول الاستعمارية ، وتغير في معطيات الوضع العالمي •

فمن جهة ، تنامت القوى القومية التحررية في كل مكان تقريبا · وكان تناميها نتيجة طبيعية لتنامي التدخل الامبريالي في كل مرافق الحياة ،وتسلطها السياسي والاداري الكامل ، واستيلائها المطلق على الحياة الاقتصادية ، واستغلالها المطلق لثروات البلاد · كما كان نتيجة طبيعية للتغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي نشأت في ظل الاستعمار ، فساعدت ، بهدمها للنظام الاجتماعي والاقتصادي القديم ، على خلق التربة الصالحة لبذر بذور الافكار الجديدة ، وخلق المجتمعات السكانية القادرة على التجاوب مع هذه الافكار ، لا سيما بعد انتشار الصحافة ، وانتشار الراديو ، وتوسع سبل المواصلات ، وربط اجزاء البلاد المتباعدة بعضها ببعض ·

تنامت قوة الحركة القومية التحررية وشملت الجماهير الشعبية الواسعة، واتبعت كل الطرق المتاحة للمقاومة ، من اضراب الى عصيان الى تظاهرات الى اشكال مختلفة من العنف تصل حد الثورة الشعبية العارمة ، حتى اصبحت مهمة حفظ الامن مهمة رئيسية من مهمات الحكم الاستعماري ، وازدادت تكاليف هذه المهمة ، ماليا واقتصاديا وبشريا ونفسيا ، حتى اصبحت تهدد المغانم التي يغنمها الاستعمار من استعماره ·

بالمقابل ، فقد تناقصت قدرة الدول الاستعمارية على مواجهة هذه المهمات المتصاعدة الجديدة · فقد خرجت من الحرب العالمية الاولى منهوكة القوى ، مدمرة الاقتصاد ، وواجهت في بلادها نفسها نموا في مطالب الحركة العمالية ، وتصاعدا في نضالها ، لا سيما بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا ، وكراهية لخوض حروب جديدة بعد ان نزفت دماؤها في حرب طويلة الامد ، وازمات اقتصادية يلاحق بعضها بعضا ، ويهدد بدمار الاقتصاد الرأسمالي كله· كل ذلك جعل قدرة هذه الدول على مواجهة تنامي النضال محدودة ومقيدة ·

فبدأت تفتش عن حلول تبقي لها كل مغانم الاستعمار الاساسية ، باقل تكاليف ممكنة · وتفتق ذهنها عن « المعاهدات » الثنائية ، تلك التي تعطي زعامات الحركات الوطنية سلطات سياسية وادارية لم تكن تحظى بها ، وتحفظ للاستعمار ، في نفس الوقت ، امتيازات في ميادين السياسة الخارجية والمال والاقتصاد ، كما تحفظ لها حق ابقاء جيوشها في البلاد ، واستعمال هذه الجيوش حين الضرورة ·

ولكن سرعان ما اتت الحرب العالمية الثانية ، بعد هذه المعاهدات ، لتزيد في تنامي القوة النضالية للشعوب ، ولتزيد من عجز الدول الاستعمارية عن مواجهتها ، لا سيما بعد ان اشركت شعوب المستعمرات في حروبها ، واضطرت

الى تنمية اقتصادها وانتاجها الزراعي والصناعي ، واستدانت منها ، ونشرت بينها مبادىء الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وحق التحرر من الخوف لتبرر حربها مع النازية والفاشية ، وسمحت بنشر الافكار الاشتراكية بعد انضمام الاتحاد السوفييتي الى الحلفاء • ثم خرجت من الحرب ، منتصرة ولكن عاجزة اقتصاديا وعسكريا ونفسيا عن مواجهة تصاعد الحركات القومية التحررية عجزا تامـــا •

على ان تغير الحقائق التاريخية يسبق تغير العقلية المتسلطة • وثمـة ، دائما ، فرق زمنـي بين تغيـر المعطيات وتغير رد الفعل لهـذه المعطيات • فعلى رغم ان بريطانيا منحت الاستقلال للهند ، بعد شعورها بالعجز عن مواجهة تنامي القوة القومية التحررية النضالية فانهـــا لم تتورع عن خوض حـرب دامت سبع سنوات في عدن ، مع ان الهند هي درة الامبراطورية ، وما عدن الا طريق اليها • ذلك ان بريطانيا ، وبقية الدول الغربية الاستعمارية ، شعرت بأن عليها ان تتراجع ، ولكنها لم تقتنع بوجوب « تصفية الامبراطورية » كمـا قال تشرشل ، الا بعد قتال عنيف في كينيا ، وقتال في مصر ، وقتال في عدن ، وقتال في الملايو • وفوق ذلك بعد ان دخلت الولايات المتحدة الميدان •

ان الاستعمار لا يتراجع بسهولة • وليس سهلا ان تهزم قوى الاستعمار المتقدمة في اداتها العسكرية والتكنولوجية هزيمة عسكرية امـــام قوى شعبية مناضلة باسلحة بدائية • ولكن الاستعمار ينهزم حين يدفع ، من اجل استمرار استعماره ، ثمنا ماليا وبشريا ونفسيا باهظا ، يفوق ما يمكن ان يجني مـــن استعماره من ثمرات ، كما ظهر ، بشكل خاص ، في كل من فيتنام والجزائـــر وعـــدن •

وبالاضافة الى تصاعد قوى المقاومة القومية ، وعجز القوى الاستعمارية ، فقد طرحت معطيات جديدة في الوضع العالمي • ولعل اول هذه المعطيات كان انتصار دولة اسيوية كاليابان على روسيا • ذلك الانتصار الـــذي اثبت ان الدول الشرقية قادرة ، اذا صح منها العزم ، على هزيمـــة الدول الغربية ، والذي اشعل الامل في قلوب الشرقيين جميعا بامكان الانتصار ، حتى لينيـــن نفسه ، في مقالته « مواد قابلة للاشتعال في السياسة العالمية » عـــام ١٩٠٨ ، استشهد بانتصار اليابان ليدلل على امكان انتصـــار عشرات الـــملايين مـــن البروليتاريا الآسيوية ضد الطغاة من مستعمريهم •

وثاني هذه المعطيات انتصار الثورة البلشفية في روسيا • فللمرة الاولى شعرت الحركات القومية بان لها حليفا من دولة قوية عظمى ، حليفا عقائديـــا

موجها ضد الامبريالية ، العدو المشترك ، وحليفا عمليا يمدها بالمشـــورة والخبرة والذخيرة والسلاح . ولئن كان اثر هذا الانتصار البلشفي اكثـــر وضوحا في الصين وفي جنوب شرق آسيا في اول الامر ، فقد امتد ، لا سيمـا بعد الحرب العالمية الثانية ، حتى عم العالم الثالث كله . ولم يقتصر هــذا الاثر على التحالف الخارجي فحسب ، بل فتح ابواب الحركات القومية لتقبل الفكر الاشتراكي والانساني ولفهم غايات الاستعمار واهدافه ، وتناقض المجتمع الغربي وصراعاته ، فأدخل بعدا اجتماعيا وانسانيا في الحركة القومية لم يكن فيها من قبل . وازداد هذا الاثر حين رأت شعوب العالم الثالث كيف تمكنـت هذه الدولة الاشتراكية من التخلص من تخلفها المريع في سنوات قليلة ، وكيف حدثت نفسها ، واصبحت في مقدمة دول العالم انتاجا وصناعـــة ، وخلقت انسانا جديدا قدمت له كل وسائل الضمان التعليمي والصحي والاجتماعـي ، بفضل التخطيط العلمي المدروس .

وبالمقابل فان انتصار الثورة البلشفية قد اضعف قوة الدول الاستعمارية ايضا . فكما اضطرت هذه الدول ، في الداخل ، الى استرضاء الطبقات العمالية وامتصاص نقمتها ، كذلك خشيت من ان يؤدي العناد في تلبية المطالب القوميـة الى مزيد من « التطرف » ، ومزيد من الميل نحو التحرر الاقتصادي الكامـل ومزيد من الاشتراكية ومزيد من التحالف مع الاتحاد السوفييتي ، فاضطرت ، بعد لأي وعلى كره منها ، الى استرضاء الزعامات الوطنية وقبول طلباتها قبـل ان يستفحل الامر ويفلت من ايديها .

وثالث هذه المعطيات دخول الولايات المتحدة حلبة السياسة الدوليـــة ، مؤقتا في الحرب العالمية الاولى ، وبتصميم كامل بعد الحرب العالمية الثانية ، خارجة من عزلتها التي فرضتها على نفسها اكثر من قرن ونصف ، مؤمنة بـأن عهد الاستعمار الاحتلالي قد انتهى ، ومدركة انها الحامية الوحيدة لمصالـح النظام الاستغلالي في العالم ، والقوة الوحيدة القادرة على وقف الزحف التحرري في العـالم الثالث .

من هذه التغيرات الاساسية ادركت دول اوربا الغربية الاستعماريـــة ان عليها ان تحني رأسها للعاصفة على كره شديد منها ، وان تمنح الاستقــلال لبعض مستعمراتها ، ثم لكل مستعمراتها ، بعد قتال عنيف في فيتنام وفي الجزائر وفي كينيا ومصر وعدن ، لا سيما بعد ان وقفت الولايات المتحدة منها موقفـا سلبيا ، بل ومشجعا ، احيانا ، لانسحابها ، كما فعلت بعد معركة ديان بيان فو وبعـد العدوان الثلاثي على مصر .

وظنت ، في غمرة هذا التراجع التاريخي الكبير ، انها بتخليها عن مستعمراتها ، سوف تخسر خسارة كبيرة لا تعوض ، بعد ان بنت اقتصادها كله ، وعقليتها الاقتصادية والسياسية ، على قاعدة استعمارية مئات من السنين · كما ظنت الدول المستقلة حديثا انها ، حين تحررت من الاستعمار الاحتلالي ، قد تحررت من كل قيد يقيد مسيرتها التقدمية · ووقع الطرفان في نفس الخطأ الجسيم ، حين نسيا ان الاستقلال السياسي الكامل الممنوح للمستعمرات ، لم يخدش تلك التبعية الاقتصادية التي بنتها السياسة الاستعمارية خلال قرون ، والتي جعلت المستعمرات معتمدة في حياتها الاقتصادية كلها ، في نوعية انتاجها ، في بيع هذا الانتاج ، في تسعيره ، في نقله ، في تصنيفه ، في توزيعه ، على « السوق الحرة » التي بنتها المراكز التجارية الغربية الكبرى ، والبورصات العالمية ، واحتكرت بها ثروات العالم · ولم تكن هذه التبعية مجرد مادة في معاهدة أو اتفاق يمكن الغاؤها ، وانما كانت واقعا مهما جدا يحتاج تغييره الى تبديل أساسي في البناء الاقتصادي لدول العالم الثالث من جهة ، وتبديل أساسي لنظام التعامل من جهة أخرى ·

وكانت نتيجة الابقاء على هذه التبعية ، مع تخلص الدول الاستعمارية من تكاليف هذا الابقاء ، ان شهدت الدول التي صفت امبراطورياتها عهدا من الرخاء والانتعاش والرفاه وزيادة الانتاج لم تشهد له مثيلا في تاريخها الاستعماري كله · كما شهدت الدول المستقلة حديثا عجزا في متطلبات التقدم والانطلاق والنمو لم يكن يخطر ببالها ان تواجهه يوم ناضلت من أجل الاستقلال ، وحققت هذا الاستقلال ·

لقد ادى الاستعمار الاحتلالي غرضه ، بعد نجاحه في احتكار ثروات العالم ولم يعد يضيره ان يتخلى عن مستعمراته ، ما دامت التبعية الاقتصادية قائمة ·

ولكن شعوب العالم الثالث ودوله ، التي حققت بنضالها القومي الجماهيري المتواصل استقلالها السياسي ، كان لا بد ان تكتشف ، ولو بعد لأي ، الخدعة الكبرى التي وقعت فيها ، وكان لا بد لها من ان تتابع نضالها حتى تحقق تحررها الاقتصادي والاجتماعي · ولم يكن بوسع دول اوربا الاستعمارية السابقة ان تقف امام هذا المد القومي الجديد المتوقع ، وهي نفسها لم تصمد امام المد القومي السابق ، وهي نفسها التي احتاجت الى مشروع مارشال من اجل ان يقف اقتصادها على اقدامه · فانبرت لهذه المهمة التاريخية الولايات المتحدة الاميركية ، فاصبحت زعيمة الامبريالية الجديدة بلا منازع ·

ان نشوء الولايات المتحدة نفسه هو ، من ناحية ، امتداد للروح التوسعية الاوربية ، وهو ، من ناحية ، احتجاج على كثير مما كانت تتضمنه الحضارة الاوربية والمؤسسات الاقتصادية والدينية والاجتماعية من قيود على حرية الانسان وعلى سلوكه · وبسبب من هذا الاحتجاج كان الطابع الاساسي لحضارة الولايات المتحدة ، لا سيما بعد حرب الاستقلال ، طابع « الحرية » ، هذا الطابع المتمثل في حكومة ذات سلطة محدودة ضيقة على المواطنين ، وفي ديموقراطية انتخابية تصل الى ادنى المستويات ، وفي حرية رأسمالية لا تحدها حدود ، وفي تقديس الحرية الشخصية والدينية ، وفي التركيز على الاخلاق البروتستانتية القائمة على احترام العمل والمنافسة ·

- تلك كانت « المثل العليا » لمجتمع الولايات المتحدة ولسياستها الداخلية والخارجية · ساعدها على التمسك بها وعلى تطبيقها اتساع القارة وقلة السكان ووفرة الموارد ، بالاضافة الى انها هي نفسها كانت نتاج ثورة استقلالية ضد قيود الهيمنة البريطانية ·

لذلك لم يكن غريبا ، حين انشغلت دول اوربا بتوسيع استعمارها واقتسام العالم ، ان لا تكترث الولايات المتحدة بالاستعمار ، وان لا تشغل نفسها به · فقد كانت ارض الولايات المتحدة نفسها غير مكتشفة ، وثرواتها غير مستغلة · وما سمي في تاريخها « بالزحف نحو الغرب » انما تم في نهاية القرن التاسع عشر · وكانت طاقات الانتاج فيها ، على رغم تسارعها العظيم ونموها الكبير ، ما تزال تجد في ما تكتشفه في اميركا نفسها من ثروات منصرفا لها ، وفي سوق اميركا نفسها اعظم سوق لتصريف انتاجها وصناعاتها · وكانت « مكتفية ذاتيا » الى اقصى ما يمكن ان تكتفي فيه ذاتيا دولة متقدمة في العصر الحاضر ·

ان كل ما كانت تريده الولايات المتحدة من العالم الخارجي كان ، اول الامر ، ان تبقى الحدود امام تجارتها مفتوحة تصديرا واستيرادا · ولما كان الاستعمار الاوربي عقبة امام هذه الحرية فان عواطف الولايات المتحدة لم تكن ميالة الى الاستعمار ، بل لقد كانت تعارضه في بعض الاحيان · وفي عملية توفيقية بين مصالحها وبين مبادئها ومثلها العليا اصدر جيمس مونرو عام ١٨٢٣ مبدأه المعروف بمبدأ مونرو والقاضي ببقاء الدول الاوربية بعيدة عن القارة الاميركية ، شمالها وجنوبها ، والابقاء على هذه القارة منطقة نفوذ

للولايات المتحدة · ولقد ارسلت اسطولها عام ١٨٥٢ الى اليابان لتجبرها على فتح ابوابها للتجارة الخارجية ، ولكنها لم تفكر في استعمارها او الحصول منها على امتيازات خاصة بها ·

وعلى الرغم من انها قد تجاوزت القيود التي قيدت نفسها بها في هذا المجال في بعض الاحيان ، فاحتلت جزر الفلبين بعد حربها مع اسبانيا ، واحتلت بعض جزر البحر الكاريبي ومعظم جزر المحيط الهادي ، فان ذلك لم يكن طابع سياستها العام ، بل لقد كان لمواقفها ، احيانا ، اثر كبير في كبح جماح الدول الاوربية ووقف اطماعها عند حدود لا تتجاوزها ، لا سيما اذا اقتربت من مناطق نفوذها هي ·

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اصبحت الولايات المتحدة قوة مهمة في المحيط الهادي · وكانت اقرب الى شواطىء الصين واليابان من اي من الدول الاوربية · ومع ذلك لم تحاول الحصول على امتيازات خاصة بها في اي من البلدين · ففي عام ١٨٩٩ ، حين تم تقسيم مناطق النفوذ والاحتكارات بين الدول الاوربية في الصين ، واخذت كل دولة نصيبها من الغنيمة ، اعلنت الولايات المتحدة معارضتها لهذه الاحتكارات ، ونادت بسياسة « الباب المفتوح » بحيث لا تتعارض حقوق الاحتكارات مع المعاهدات القائمة ، ويتم تحصيل الجمارك على يد الحكومة الصينية نفسها ، ولا تتمتع اية دولة بامتيازات خاصة في الموانىء او سكك الحديد لا تتمتع بها الدول الاخرى · فساعدت بذلك ، وهي تحاول الحفاظ على مصالحها ، على المحافظة على وحدة دولة الصين ، وعلى سيادتها الاسمية على الاقل ·

وعندما فرضت معاهدة فرساي على الصين ان تسلم الممتلكات والاحتكارات الالمانية فيها الى اليابان – على رغم ان الصين دخلت الحرب الى جانب الحلفاء – تدخلت الولايات المتحدة وفرضت على اليابان ان تنسحب من هذه الممتلكات ، كما ضغطت على الدول الاوربية لتتعهد بالمحافظة على وحدة الصين ، ومساعدتها في بناء دولة مستقرة ، وبالمساواة بين الدول في حقوق التجارة ، وبعدم حصول دولة ما على حقوق خاصة بمعزل عن الدول الاخرى ·

كانت الولايات المتحدة تؤمن ان سياستها الخارجية هذه نابعة من ايمانها بالحرية ومن ايمانها بالمبادىء الخلقية في التعامل الدولي · فهي لا تريد ان تغير اوضاع العالم ،كما لا تريد من العالم ان يغير من اوضاعها ·فهي لا تتدخل، ما امكنها ذلك ، في الشؤون الاوربية ، وما يتصل بها من استعمار ، ولا تريد

من اوربا ان تتدخل في شؤون الولايات المتحدة ، بل ولا في شؤون القارة الاميركية · فتلك منطقة نفوذها ومصالحها · ولكن « منطقة النفوذ » هذه لا تعني ان لها الحق في الاحتلال والاستعمار المباشر الا في رأي بعض المتطرفين مثل تافت وتيودور روزفلت · كل ما تعنيه ان لها الحق ، كما هو للدول الاخرى ، في ان تتعامل مع هذه القارة تصديرا واستيرادا واستغلالا بحرية تامة · وبطبيعة الحال فان كون هذا التعامل هو نوع من الاستغلال الامبريالي لم يكن يخطر لها على بال · وذلك انها تتبع هذا النوع من التعامل في بلادها نفسها · هي ، اذن ، ليست معتدية على احد ، الا اذا اعتبرت نفسها معتدية على شعبها ·

ولقد ظلت الولايات المتحدة وفية لمبادئها ، المنسجمة مع مصالحها ، تلعب دور الاخ الكبير النصوح الى مدة طويلة · تقوم بعقد المعاهدات الثنائية والجماعية لتنظيم التجارة للسيطرة على التسليح ، لنشر السلام ومنع الحروب ، وقد تدخل في المنازعات الدولية وسيطا لا طرفا · وحتى حين تضطر الى اتخاذ موقف ، كما فعلت في الحرب العالمية الاولى ، فهي تعلن حق الشعوب في تقرير مصيرها ، كما فعل وودرو ولسون في مبادئه الاربعة عشر ، وتعمل على خلق عصبة الامم ، وعلى بناء صرح السلام · فاذا ما رأت امعان الدول الاوربية في المزيد من اقتسام العالم عادت الى قوقعتها المونروية ، وركزت مجددا على نفسها وعلى منطقة نفوذها ·

لذلك كله لم يكن غريبا على كثير من الشعوب المستعمرة ان تتطلع الى الولايات المتحدة معتبرة اياها منقذا وحليفا ونصيرا وموئلا للحرية يعينها في نضالها ضد الاستعمار الاوربي ، ويقف ، ولو معنويا ، الى جانبها · انها لم تبد لهذه الشعوب دولة ذات سياسة منسجمة مع مصالحها فحسب ، بل دولة ذات رسالة ، رسالة الحرية الى العالم ·

الولايات المتحدة في دورها الجديد ·

لم تخرج الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية بنفس الطريقة التي خرجت بها من الحرب العالمية الاولى · ذلك ان تغييرين اساسيين كانا قد حصلا فيها ، وكان لا بد لهذين التغييرين ان يظهرا اثرهما في سياستها ·

● اما التغيير الاول فهو ان عهد التمدد الافقي في اراضي الولايات المتحدة نفسها كان قد شارف النهاية · فقد اكملت اكتشاف معظم مواردها الاساسية

وانطلقت في استغلالها الى ابعد الحدود • اما التغيير الثاني فهو تسارع التمدد العمودي المعتمد على الثورة التكنولوجية تسارعا ساعدت في تغذيتا الحرب نفسها وما اقتضته من تطوير للاسلحة انتهى بالقاء القنبلة الذرية • وكان من نتائج هذا التمدد العمودي المتسارع زيادة الانتاج زيادة عظيمة ، وتنويعه ، الى جانب احداث انقلاب في مفهوم علاقة الانتاج بالسوق ، بحيث اصبح الانتاج يفرض السوق لا العكس • ذلك ان تكاليف الانتاج التكنولوجي تكاليف عالية لا يغطيها الا ضخامة الانتاج وضخامة المبيعات • فلا موارد الولايات المتحدة الضخمة من المواد الاولية اصبحت كافية لهذا الانتاج الضخم ، ولا سوق الولايات المتحدة ، على ضخامته ، اصبح كافيا لاستيعابه • فكان على العالم كله ان يكون مصدرا لمواد الانتـــاج الاساسية ، وسوقا يستوعب هذا الانتاج الضخم •

من هنا كان انهيار نظرية « الاكتفاء الذاتي » ، وانهيار نظرية « العزلة » الاميركية عن شؤون العالم ، وانهيار الاعتماد على التبادل التجاري العادي ، لا سيما اذا ظلت الدول الاوربية المستعمرة محتفظة بمستعمراتها ، مقيدة تجارتها ، محتكرة اسواقها ومواردها •

لقد اصيبت الولايات المتحدة عـام ١٩٢٩ بأزمـة مالية خـانقة وانهيار اقتصادي فظيع لم تستفق من آثاره الا بعد قيام الحرب • ولقد اقتضاها الامر عشر سنوات من الحرمان والتقشف واعادة البناء حتى تمكنت مـــن العودة الى مستويات الانتاج التي كانت عليها عام ١٩٢٩ • وقد علمها هذا درسا لن تنساه • ان حدود الولايات المتحدة قد تكون كندا شمالا والمكسيك جنوبا والمحيطين الاطلسي والهادي شرقا وغربا • ولكن حدود اقتصـاد الولايات المتحدة يمتد الى العالم كله •

لذلك لم ترجع الولايات المتحدة الى قوقعتها بعد الحرب العالمية الثانية كما فعلت في الحرب العالمية الاولى • وساعدها في ذلك عوامل عديدة • فهي نفسها خرجـت من الحــرب اقوى واغنى دولـة على وجه الارض • لم يصب ارضها وانتاجها اي دمار خــلال الحـــرب كلهــا • علــى العكس فان قدرتها الانتاجية قد ازدادت زيادة كبيرة •

بالمقــابل ، فقــد خرجــت دول اوربا الغـربية منهوكة القــوى ، مدمرة الاقتصاد ، مدينة للولايات المتحدة ديونا هائلة عاجزة عن تسديدها ، بل لقد كـانت في حـاجة الى مسـاعدات جديـدة تعيد بها بنـاء اقتصادها المنهار ، ولم يكن ثمة غير الولايات المتحدة تمدها « بمشروع مارشال » الضخم لتمكنها

من الوقوف على اقدامها ثانية ٠

بالاضافة الى ذلك فقد دخلت الولايات المتحدة الحــرب وليس في العالم سوى دولة اشتراكية واحدة ترفض نظام « السوق الحرة » ، وخرجت منها واذا بالكتلة الاشتراكية تضم نصف اوربا الشرقي ، وما هي الا بضع سنوات حتى انضمت اليها الصين بأراضيها الشاسعة وسكانها الذين يشكلون خمس سكـان الكرة الارضية ٠ وفوق ذلك فقد كانت هذه الاشتراكية خطرة جدا ٠ فهي ، من ناحية ، قد امتلكت من ناحية القوة ما امتلكت منها الولايات المتحـــدة ، وهي ، من ناحية ، مغرية بعقيدتها وبانجازاتها لشعوب القارات المتخلفة المستعمرة او الخارجة من الاستعمار حديثا ، اغراء قد يدفعها الى ان تخرج هي ايضا من نطاق قيود « السوق الحــرة » وقوانينها ، فتقلب موازين القوى رأسا على عقب ٠

هذه العوامل جميعا ادت بالولايات المتحدة الى انتهاج سبيل جديد في التعامل مع شعوب القارات المتخلفة ، سبيل ينسـجم مـع مبادئها التحررية المتسقة مع مبادىء ولسون ومع الدعوة الى التحرر التي اعلنها روزفلت في الحرب العالمية الثانية ، ومع ايمانها هي بفوائد وقدسية التعامل الرأسـمالي والاقتصاد « الحر » ، وينسجم مع مصالحها الذاتية التي تعدت حدود بلادها وقارتها لتصل الى انحاء العالم كله ٠

هذا السبيل كان له خطان متوازيان متكاملان ٠ اولهما القناعة التامة بأن الاستعمار الاحتلالي يجب ان ينتهي ، وان ينتهي بأقل ما يمكن من العنف ٠ فذلك يزيح عقبة كأداء كبرى كانت تقف امام امتداد المصالح الاميركية في انحاء العالم ، كما يرضي تطلعات الشعوب التي نمت حركاتها القومية التحررية نموا لن يخدم كبته سوى انحراف هذه الحركات نحو الاشتراكية ووقوعها في احضان خصم الولايات المتحدة الاول ، الاتحاد السوفييتي ٠ وثانيهما العمـل الجـدي على حفظ البلاد المستقلة حديثا في نطاق ما اسمته « بالعالم الحر » ، اي في نطاق نظام السوق الحرة ، والحيلولة دون اي تغيير اساسي في اسس تعاملها الاقتصادي مع دول العالم ، تلك الاسس التي بنيت ايام الاستعمار ، وبقيت الى ما بعد الاستقلال ٠

وفي نطاق تحقيق هذه الاهداف عملت الولايات المتحدة على انشاء هيئة الامم المتحدة ، وعلى اهداء الدول المستقلة حديثا مشروع « النقطة الرابعة » ، وعلى الامتناع ، في كثير من الاحيان ، على امداد الدول الاستعمارية بما تحتاجه من سلاح او ذخيرة او مال او تشجيع ادبي في حروبها الاستعمارية ، بل وعلى

الوقوف ضدها صراحة وعلانية في بعض الاحيان ، كما فعلت اثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ .

والحق ان هذا التايخ ، تاريخ العدوان الثلاثي على مصر ، يمكن ان يعتبر حدا فاصلا في تاريخ العلاقات الاستعمارية . فمنذ ذلك التاريخ ادركت بريطانيا اولا ، وتبعتها فرنسا ثم بقية الدول الاستعمارية الغربية ، ان دورها الاستعماري قد انتهى ، وان زعامة الامبريالية العالمية قد انتقلت الى الولايات المتحدة ، وان عليها ان تسلم بذلك قياد حفظ النظام الاستغلالي العالمي لهذه الدولة القوية الغنية القادرة على فرض هيبتها وسلطتها في العالم ، وان تنعم هي بغنائم هذا النظام دون دفع تكاليفه .

الاقتصاد العالمي « الحر »

انتقلت قيادة العالم الامبريالي بعد الحرب العالمية الثانية من اوربا الى اميركا . وحملت الولايات المتحدة هذا « العبء » باقبال ورغبة وايمان يكاد يبلغ حد الايمان بالرسالة المقدسة . فالعالم ، في نظر الاميركيين ، كما هو في افلامهم السينمائية والتلفزيونية ، عالم اخيار واشرار . اما الاخيار فهم الاميركيون ومن قبل نظرتهم الى الدنيا والحياة . واما الاشرار فهم الشيوعيون ومن قبل نظرتهم الى الدنيا والحياة . وواجب الاخيار المقدس هو تخليص العالم من شر الشيوعية والشيوعيين .

ولكن الشيوعية ليست هي هذه العقيدة الماركسية اللينينية المتمثلة في الاتحاد السوفييتي فحسب ، وانما هي كل محاولة للافتئات على « حرية » التجارة والتعامل والاقتصاد الرأسمالي ، وكل محاولة لتحرير الاقتصاد القومي ، والثروات القومية من تحكم رأس المال الاجنبي ، وكل محاولة للتخلص من الامتيازات والاحتكارات التي نالتها الدول والشركات الغربية الراسمالية ايام الاستعمار الاحتلالي أو بعده .

فالصراع الحقيقي ليس بين الولايات المتحدة وبين الاتحاد السوفييتي ، لا سيما بعد تحقق « توازن الرعب » بينهما ، وليس بين العقيدة الراسمالية والعقيدة الشيوعية ، وانما هو بين المستثمرين والمستثمرين المتطلعين الى تحرير انفسهم ، بين المستغلين والمستغلين . ان واجب الولايات المتحدة ليس وراثة « الاستعمار » ، فالاستعمار كلمة بغيضة انتهى اوانها التاريخي . وانما واجبها المحافظة على « العالم الحر » ، و « السوق الحرة » و « الاقتصاد الحر » .

لذلك فهي مع « الحركات القومية » ما دامت موجهة ضد الاستعمار الاوربي الاحتلالي ، ولكنها ضد « الحركات القومية » حين تتوجه لتحرير ثرواتها واقتصادها • ولقد قال وليم فولبرايت في كتابه « غطرسة القوة » يصف هذا الموقف احسن وصف « نحن معادون للشيوعية ومتعاطفون مع القومية في نفس الوقت • فاذا تقاربت الاثنتان تقاربا شديدا اصابنا الهياج والخيبة والغضب والتسرع وفقدان التوازن ».

ان اتساع قاعدة الانتاج الاميركي اتساعا متسارعا ، بعد الثورة العمودية التكنولوجية ، قد فرض عليها فرضا ان يكون العالم كله مصدرا لما تحتاجه من مواد خام ، بل من رأس مال ، وان يكون العالم كله سوقا لمنتجاتها كذلك • وليس في هذا عيب في ذاته ، ولا افتئات على حقوق الشعوب ، لانه نتيجة طبيعية للثورة العلمية التكنولوجية • ولكن الجريمة الامبريالية انما تبدأ حين لا ترى الولايات المتحدة سبيلا للتعامل مع العالم ، تصديرا واستيراد ، غير نفس السبيل التي اتبعتها الدول الاستعمارية الاوروبية ايام استعمارها الاحتلالي الطويل ، من امتلاك ثروات العالم ، والتصرف بها بما لها من قوة اقتصادية فائقة ، حسبما توحي لها مصالحها الذاتية ، ولو كان ذلك على حساب الشعوب الاخرى ، وعلى حقها في امتلاك ثرواتها ، وحقها في تطوير نفسها ، وحقها في تحرير مواطنها وانسانها ، وحين لا ترى الولايات المتحدة غضاضة في فرض نوع تعاملها هذا فرضا على دول العالم الثالث ، مستعملة كل الاساليب الممكنة في سبيل ذلك ، غير متورعة عن الحرب نفسها ، مدعية في ذلك كله انها انما تدافع عن « الحرية » ، وانها انما تكافح « الشيوعية » •

لقد كانت بلاد الشرق ، عند بدء حركة الاستعمار ، اغنى بكثير من دول الغرب • بل ان ثروات الشرق المشهورة هي التي اسالت لعاب المستعمرين الغربيين ودفعتهم الى الوصول الى هذه البلاد القصية • وقد كتب امبراطور الصين عام ١٧٩٣ رسالته الشهيرة الى ملك بريطانيا جورج الثالث يقول فيها « ان امبراطوريتنا السماوية تنعم بوفرة في كل شيء ولا تحتاج الى اي انتاج ضمن حدودها • فلا حاجة بها اذن الى استيراد منتجات البرابرة في الخارج بديلا عن محاصيلها • ولكن لعلمنا بأن الشاي والحرير والخزف الصيني من انتاج امبراطوريتنا ضرورة قصوى للامم الاوربية ولكم ، فقد سمحنا ، تكرما منا ، باقامة مؤسسات تجارية اجنبية في كانتون لسد حاجاتكم ، ولتستفيد بلادكم من خيراتنا » • وفي الواقع فان اوربا لم يكن لديها من الحاصلات ما تصدره لتدفع به ثمن المنتجات التي تشتريها من الشرق • فكان عليها ان تجبر

الهند على ان تزرع الافيون وان تشتريه هي ، لتجبر الصين على اعادة شرائه ، لتتمكن من دفع ثمن مشترياتها من الصين ٠

لقد عمل الاستعمار خلال قرون على الوصول بالبلاد المستعمرة الى درجة من الفقر والحاجة والتخلف لا مثيل لها ٠ ولكنه عمل ما هو اهم من ذلك بكثير ، حين جعل اقتصاد المستعمرات كله جزءا من اقتصاده هو ، وتابعا له تبعية تامة ٠

عمل ، اولا ، على احتكار التجارة في منتجات الشرق ٠ وعلى احتكار طرق الملاحة البحرية ، ثم تولى توجيه انتاج البلاد توجيها مقطوع الصلة بحاجاتها مرتبطا ارتباطا مكينا بحاجات التجارة الدولية ٠ ولم تنتج اوروبا ، قبل الثورة الصناعية ، انتاجا ذا بال ٠ واكتفت بأن تحتكر التجارة بين الدول ، وان تقوم بدور الوسيط حتى بين بلد وبلد مجاور ٠ واصبحت عواصمها او موانئها مراكز التجارة العالمية الاساسية ، وبورصاتها مراكز تسعير المنتجات العالمية ، وبنوكها وسيلة التعامل النقدي العالمي ، دون حاجة حتى الى وصول سلع العالم اليها ٠ وما زالت لندن ، حتى الآن ، تبيع الشاي والقطن والمعادن للعالم وهي نفسها لا تملك في بلادها شيئا من ذلك ٠

تلك كانت بداية « الاقتصاد الحر » و « السوق الحرة » ٠ وكان بناء الولايات المتحدة نفسها قائما ، منذ البدء ، على فلسفة التعامل الاقتصادي الحر نفسها ٠ ولما قامت الثورة الصناعية وتضاعفت حاجات الصناعة للمواد الخام تستوردها من الخارج ، وازداد انتاج المواد المصنعة وفاض عن القدرات الاستهلاكية المحدودة للبلاد المصنعة ، اصبحت المستعمرات مصدرا للمواد الخام وسوقا للمواد المصنعة ، وتركزت قواعد الاقتصاد الحر والسوق الحرة ، واصبحت هي قواعد التعامل العالمي في العالم كله ٠ توقفت الهند عن صناعة القطن ، واشترته مصنعا من بريطانيا ، واكتفت بزراعته ٠ وزرعت جاوة البن والقرنفل وتوقفت عن زراعة الارز الذي تاكله ٠ وكانت سيلان تزرع الشاي ولكن بريطانيا كانت هي التي تبيعه للعالم ٠ كل ذلك بالاسعار التي تقررها شركات الاحتكار بيعا وشراء ، حسب مقتضيات التنافس فيها ، وحسب مقتضيات قانون العرض والطلب ، دون اي تدخل من المنتج الحقيقي ولا من المستهلك الحقيقي للسلعة ٠ ان اسعار الشاي والكاكاو والبن والسكر والقطن والقمح والمطاط والالومنيوم والزنك والنحاس والقصدير والبترول واجور الشحن والتامين وغيرها انما تقرر في بورصتي لندن ونيويورك ٠ وليس لأي تاجر في العالم ان يشتري من المنتج مباشرة ، وانما يشتري عن طريق

احدى الشركات الاحتكارية العالمية · وليس لأي بلد ان يخرج عن نطاق هذا القيد الحديدي ، لانه انما يواجه بذلك كارثة اقتصادية ، حين تقاطعه الشركات الاحتكارية ، او تخفض من اسعار محصولاته ، او تغرق الاسواق بما يحل محلها ، و يواجه كارثة حربية ، حين يعرض نفسه للاحتلال او الحصار ، او الاستسلام لشروط « السوق الحرة » ولامتيازاتها ولاحتكاراتها ·

ولما انتقلت الرأسمالية من المنافسة الحرة الى تصدير رأس المال واستثماره في المستعمرات ، ومد طرق المواصلات ، وتأسيس شركات التعدين والتصنيع بل والزراعة نفسها ، ودخلت مرحلة الاحتكار وسيطرة رأس المال على الانتاج كله ، هذه المرحلة التي سماها هوبسون « الامبريالية » وتبعه في ذلك هلفردنغ ولينين ، ازداد نصيب الدول الاستعمارية في اقتصاد المستعمرات ، وازداد اعتمادها على الانتاج الاستعماري ، كما ازدادت ، بالمقابل ، تبعية اقتصاد المستعمرات للاقتصاد الرأسمالي ، واصبحت حياة الدول الاستعمارية ومستوى معيشتها وانتاجها متوقفا كله على استمرار هذا النظام ، كما اصبح مجرد الابقاء على الحياة نفسها في المستعمرات متوقفا ايضا على استمرار هذا النظام ، بحيث اصبح خروج أي دولة من دول العالم الثالث على قيوده يعتبر، في نظر الدول الاستعمارية الرأسمالية ، هدما وتدميرا لنظام التعامل العالمي كله · لذلك لم تتورع دول الغرب عن اسقاط نظام مصدق في ايران حين اعلن تأميمه للبترول ، ولا تورعت عن مهاجمة مصر حين اممت قنال السويس ·

ان « نظام السوق الحرة » ـ برغم انه ليس نظاما وليس حرا ـ هو النظام الذي اتاح لدول الغرب الرأسمالية المتقدمة ان تتحكم في ثروات العالم كله · وهو الذي اتاح لها ان تحفظ التوازن بين انتاجها ، ومستوى معيشة سكانها ، ومستوى خدماتها الاجتماعية · وهو الذي اتاح لها ان تتفادى ثورة اليسار وثورة اليمين ـ الا في البلاد التي فقدت مستعمراتها ـ · وهو الذي اتاح لها ان تزيد انتاجها السنوي الاجمالي ٥٢٪ ما بين الاعوام ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥ · وهو الذي عمق الفجوة القائمة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، على رغم ان عددا كبيرا من دول العالم الثالث قد حصل على «استقلاله» · ويكفي ان نشير الى ما كاد يفعله تحرير مادة واحدة فحسب ، هي مادة النفط ، عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ ، من المواد الاساسية في العالم ، في اقتصاد بلاد كبلاد اوربا الغربية واليابان ، بل وفي نظامها الاقتصادي والاجتماعي نفسه ، لندرك مدى الاهمية البالغة التي تعلقها هذه الدول على « نظامها الحر » في تنمية ثرواتها وحفظ توازنها ·

كما ان محاولات كثير من البلدان المستقلة حديثا للخروج من حدود

قوانين وقيود هذه السوق كانت تصاب بالفشل • فقد نالت جميعها استقلالها السياسي بينما ارتبط اقتصادها بنظام السوق ارتباطا لا يحله مجرد الغاء معاهدة او اصدار قانون • فالعمود الفقري لاقتصاد معظم هذه الدول كان يقوم على انتاج مادة اساسية واحدة كان الغرب يريد انتاجها • وتنويع هذا الانتاج وتطويره وتصنيعه وتسويقه وتوزيعه ، وبيعه حتى لو لم تمتلكه في الاصل شركة اجنبية ، كان يحتاج الى راسمال • ولكن رأس المال لا يكاد يأتي الا من دول الغرب نفسها ومصارفها وشركاتها ، بفوائد تستهلك معظم ما يمكن ان تحصل البلاد عليه من منافع • فحتى اذا قبل الغرب هذا « التدخل » في قوانين السوق الحرة ، وقعت البلاد في الحلقة المفرغة • فهي في حاجة الى الغرب من اجل ان تتحرر من الغرب • فاذا ما ازداد تصميم الدولة المستقلة سياسيا على تحرير اقتصادها ، كانت الحرب الاقتصادية اولا ، ثم كانت الحرب العسكرية من بعد اذا لزم الامر •

لقد ارادت دول اوربا الغربية ، بعد الحرب ، ان تقوم هي بحراسة امتيازاتها واحتكاراتها بالمحافظة على نظام السوق الحرة في مستعمراتها ، ولم تكن تريد ان تنافسها الولايات المتحدة في هيمنتها التي مارستها قرونا عديدة • كما انها لم تع ان وسائلها القديمة لم تعد تجدي ازاء نهضة شعوب العالم الثالث ويقظتها وثوراتها • ولكن الخلاف الظاهر المكشوف بين الولايات المتحدة من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من جهة ، اثر العدوان الثلاثي على مصر ، كان نقطة التحول الاساسية التي قررت اوربا فيها ان تنسحب من هذه المهمة وان تدعها لمن هو اقدر عليها منها •

وتقبلت الولايات المتحدة هذه المهمة بهمة ورغبة ونشاط • وربطت ما بينها وبين مكافحة الشيوعية • ولم يكن تدخلها في لبنان وفي الدومنيكان وفي اندونيسيا وفيتنام ولاوس وكمبوديا وكوبا وتايلاند وانجولا وتشيلي وغيرها الا قياما بمهمتها التاريخية في الحفاظ على مصالح الامبريالية الاستغلالية واحتكاراتها وامتيازاتها •

اهداف الامبريالية الجديدة •

حملت الولايات المتحدة هذا العبء ، عبء الحفاظ على النظام الامبريالي الاستغلالي العالمي ، عن اوروبا • ولكنها حملته بعقلية جديدة اكثر تمدنا وتقدمية وتفتحا ، واعمق نظرة وفهما ، والصق بغطاء المبادىء المثالية التي عرفت بها الولايات المتحدة وبقواعد « النظام الحر » في التعامل •

ساعدها في القيام بهذا الدور على طريقتها الخـاصة • اولا ، تاريخها نفسه . فهي لم تكن في عداد الدول الاستعمارية المحتلة كما كانت دول اوروبا الغربية . وكان ارتباطها بمبادىء الحرية - ولو شملت هـذه الحـرية حرية السوق - وبمبادىء تقرير المصير وبالتعاون الدولي والسلام ، كما عبر عنها واشنطن وجفرسون ولنكولن وولسن وفرانكلين وروزفلت ، ارتباطا يطبـع عقليتها وسياستها ، على رغم تصارع هذه العقلية مع العقلية الجديدة الناشئة بعد الحرب ، والقائلة بوجوب بناء السياسة الاميركية على قواعد المصلحة لا المبادىء المثالية والتي عبر عنها جورج كينان وهانس مورغنتـاو وجورج بول ودالاس وكيسنجر .

• كما ساعدها ، كذلك ، اختفاء « التنـافس الـدولي » الاستعمـاري ، وانسحاب الدول الاوروبية واليابان من قيادات الحركة الامبريالية ، وتفـرد الولايات المتحدة بهذه القيادة ، وممارستها لها ممارسة جـديدة غير مرتبطة بأساليب الاستعمار القديم .

• وساعدها ، ايضا ، انها خرجت من الحرب العالمية الثانية اقوى قوة في العالم عسكريا واقتصاديا وعلميا ، واكثر الدول انتاجا واستهلاكا ، والدولة الوحيدة القادرة على تصدير رأس مالها الفائض واستثماره خـارج حدودها استثمارا فعالا ومنتجا .

• بالاضافة الى ذلك ، فان الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وتفاقمه بعد عام ١٩٤٨ ، وبعد حرب كوريا ، وتبلور السياسـة العالميـة في ثنائية الحرب الباردة ، وتململ بعض بلدان العالم الثالث ، كايران ومصر ، من التبعية الاقتصادية وتهديدها بالخروج من نطاق ما سمته الولايات المتحدة « بالعالم الحر » . كل ذلك اضفى على سياسة الولايات المتحـدة ثوبـا من « المثالية » المصطنعة ، المتمثل في مكافحة الشيوعية والشيوعيين ، ونجح في كسب رضا المواطن الاميركي العادي عن هذه السياسة ، وجعل من « المركب المالي الصناعي العسكري » في داخل الولايات المتحـدة اقوى قوة ضاغطة على سياستها الخارجية وتعاملها الدولي ، مثلما اصبحت اقوى قوة ضاغطة على سياستها الداخلية والاقتصادية .

هذه العوامل جميعا ادت الى تغييرات في هدف الامبريالية وفي اساليبها حين تولت زعامتها وقيادتها الولايات المتحدة ، وخلقت ما يسمى بالامبريالية الجديدة .

ان الهدف الاساسي الاول من الاستعمار ، في مراحله المختلفة ، والمتبلور في الحفاظ على نظام الاستغلال الدولي المسمى « بالاقتصاد الحر » ، ظل هو الهدف الاساسي من الامبريالية الجديدة • وكان هذا الهدف موجودا وقائما في لب الاستعمار قبل وجود الشيوعية وبعد وجودها • لذلك كانت محاولة ربط مقاومة حركة التحرر الاقتصادي بمكافحة الشيوعية محاولة ظاهرة الاصطناع • وما الغرض منها الا كسب تعاطف الرأي العـام الاميركي والغربي مع هذه **المحاولة** •

والاهداف التطبيقية الاربعة المتفرعة عن هذا الهدف الرئيسي ، **والمتمثلة في ضمان توريد المواد الخام ، وضمان ايجاد الاسواق للمواد المصنعة، وضمان استثمار رأس المال الفائض ، وحرية الهجرة وتنقل السكان وحقهم في الاستغلال** حيثما شاؤوا وكيفما شاؤوا ، ظلت ، كذلك ، جزءا اساسيا من الاهداف التطبيقية للامبريالية الجديدة •

وخصائص الامبريالية القديمة التي لخصهـا لينين في تمـركز الانتـاج وظهور الاحتكارات والكارتيلات ، وفي سيطرة البنوك عـلى الصـناعة ، وفي تصدير رأس المال الفائض واسـتثماره ، وفي اقتسام العـالم بين اتحـادات الرأسماليين ، وبالتالي اقتسامه بين الدول التي تقوم فيها هذه الاتحادات ، وفي حتمية قيام الحروب بين الدول الامبريالية نفسها طمعا في حيازة اكبر جزء ممكن من العالم ، كل ذلك ظل من خصائص الامبريالية الجديدة ، مع الاخذ بعين الاعتبار زيادة اثر البنوك والاحتكارات الدولية في هذه الامبريالية مـن جهة ، وانتقال اخطار الصدام الامبريالي من منطقة تنافس الدول الامبريالية مع بعضها ، الى منطقة الصراع بين النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي ، والى منطقة الصراع بين الامبريالية الاميركية وبين التحرر الاقتصادي لدول العالم الثالث •

ولكن تعديلات مهمة في هذه الاهداف قد طرات عـلى قـدوم الامبريالية الجديدة اعطتها لونا خاصا بها •

اول هذه التعديلات ان تصدير راس المال الفائض لم يعد قاصرا عـلى المستعمرات او على بلدان العالم الثالث المستقلة حديثا ، كما كـان الامر في الامبريالية القديمة • وانما اتجه ، في الدرجة الاولى ، من الولايات المتحدة الى الدول الصناعية المتقدمة نفسها ، اما مباشرة ، واما بواسطة خلق الشركات المتعددة الجنسية ، حين ثبت ان هذا الاتجاه اكثر ربحا واقوى ضمانة مـن

اتجاهه الى بلدان العالم الثالث الفقير المتخلف الذي يغلي بالحركات الداعية الى التحرر ٠

ان المجموع الحسابي - وهو عادة اقل من القيمة الحقيقية - لاستثمارات الولايات المتحدة في العالم بلغ عام ١٩٧٠ مبلغ ٧٨ الف ميلون دولار ٠ منها ٤٨ الف مليون في كندا واوروبا الغربية ، و١٢ الف مليون في اميركا الجنوبية، و١٨ الف مليون في بقية انحاء العالم ، بما في ذلك اليابان واستراليا وجنوب افريقيا ثم العالم المتخلف ٠

ان هذا يعني ان « الحاجة الى استثمار رأس المال الفائض » لم تعد هي العامل الاساسي وراء الدوافع الامبريالية للولايات المتحدة فيما يخص العالم الثالث ٠ وانما هناك دوافع اخرى اقوى واهم ٠

وثاني هذه التعديلات ان « استيراد رأس المال الفائض » من انحاء العالم كله ، ولا سيما من دول العالم الثالث التي اصابت فائضا فجائيـــا ، كبعض الدول المنتجة للبترول ، اصبح هما جديدا من هموم الولايـــات المتحـدة ومن هموم الدول الغربية السائرة في فلكها ٠ ولا نتوهمن ان في هذه المهمة تناقضا مع مهمة تصدير فائض رأس المال ٠ على العكس من ذلـــك ، فان استمـرار الثورة التكنولوجية العلمية ، مع استمرار النظام الرأسمـالي ، ومع استمرار الولايات المتحدة في دفع مجتمعها الاستهلاكي الى الامام ، ومحاولة تجنب اي ازمة مالية قد تدهور توازنها الاقتصادي كله - كما كاد يحصل عامي٩٧٣ - ٩٧٤ - انما يستدعي ترافق الاثنين معا في عصر لم يعد النشاط الاقتصادي التكنولوجي يتحمل فيه الحدود السياسية المغلقة ٠ بل ان توسع هذا النشاط نفسه اصبح يقتضي المزيد من « استيراد » رأس المال للحصول على المزيد من « استثمار » رأس المال ، سواء كان هذا الاستثمار في الداخل او في الخـارج ٠

ولا نستهين بأهمية « فائض » رأس المال هذا ، فانه يتجـاوز ٤٠ الف مليون دولار في العام ، وقد يتجاوز في الاعوام القادمة ٥٠ الف مليون ٠ وهذا المبلغ مغر جدا ، اذا قارناه بمجموع استثمـارات الولايـات المتحـدة في الخارج والذي قلنا انه بلغ ٧٨ الف مليون دولار عام ١٩٧٠ ، او اذا قارناه بمجموع صادراتها في نفس العام الى العالم كله البالغ ٤٣ الف مليون دولار ٠ ان انتعاش الاقتصاد الاميركي وحيويته ، او ضعفه وانهياره ، يعتمدان على مقدار الشريحة التي يحصل عليها من هـذه المبالغ ، سـواء عـن طريق بيع بضائعه واسلحته وخدماته ، او سندات حكومته ، او اسهـم شركاتـه ، او مدخرات مصارفه ، او اي طريقة اخرى ممكنة ٠

ولا نقولن ان هذا المبلغ متواضع بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة عامة ، وان تأثيره ، لذلك ، اضعف مما يبدو على السطح . فصحيح ان القيمة الاجمالية لمبيعات الشركات الاميركية الخمسمائة الكبرى قد حققت عام ١٩٧٣ نتائج قياسية وبلغت اكثر من ستمائة الف مليون دولار . ولكن الاقتصاد الاميركي ، على ضخامته ، اقتصاد في منتهى الحساسية . ومثل هذا الاقتصاد اذا لم ينم بسرعة انهار . ان الازمة التي تمر بها الولايات المتحدة الآن هي نتيجة انفاق مائة وخمسين الف مليون دولار في حرب فيتنام على مدى عشر سنوات ، وانفاق بضع بلايين من الدولارات في مشاريع الفضاء غير المنتجة . والحق انه لولا ان الولايات المتحدة قد حصلت بما تزال تحصل على حصة الاسد في « فائض » اموال البترول لما تمكنت من العودة الى الانتعاش بعد ازمتها المالية والاقتصادية الخانقة عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ .

ومع ذلك ، وعلى رغم اهمية هذا العامل وراء الدوافع الامبريالية الاميركية ، فان العامل الاساسي المتقدم على جميع العوامل الاخرى ، والمتمثل في التعديل الثالث لاهداف الامبريالية ، هو الزيادة المطردة في الحاجة القصوى للولايات المتحدة ولنظامها الاقتصادي الى المواد الخام التي ينتجها العالم الثالث ، والناشئة عن تسارع الانتاج العمودي فيها تسارعا كبيرا في ربع القرن الاخير ، وعن بدء نضوب موارد الولايات المتحدة الذاتية من هذه المواد بسبب ضخامة استعمالها في الصناعة . وفي الاستهلاك اليومي .

ان الحصول على المواد الخام كان دائما هدفا من اهداف الامبريالية بعد الثورة الصناعية . ولكن الولايات المتحدة بالذات كانت اقل اعتمادا على هذه المواد من الدول الاوربية لانها كانت هي نفسها غنية بها . ولكنها بعد ان قفزت قفزتها العارمة في الثورة التكنولوجية اصبحت اكثر دول العالم اهتماما بالحفاظ على مواردها العالمية من هذه المواد بحيث تضمن استمرار ورودها وتضمن رخص اسعارها في نفس الوقت ، لتحافظ على زيادة انتاجها ، ورفع مستوى معيشتها والبقاء اقوى واغنى دولة في العالم .

ان الولايات المتحدة ، التي لا يتجاوز سكانها ٦٪ من سكان العالم ، هي اغنى شعوب العالم قاطبة ، وانتاجها القومي الاجمالي يبلغ ٣٠٪ من الانتاج العالمي كله . ولقد انتجت عام ١٩٧٠ ، ٢١٪ من الانتاج العالمي للبترول و ٢٥٪ من النحاس ، كما تستخرج من مناجمها مقادير كبيرة من الرصاص والقصدير والفحم والحديد والذهب والفضة المنغنيز والبوكسيت واليورانيوم والنيكل والفسفات والبوتاس والكبريت ، بالاضافة الى المواد الزراعية المختلفة لا سيما الخشب والذرة والقمح ولحوم البقر والتبغ والقطن . لقد صدرت عام

١٩٧٠ ، ثلث صادرات العالم من القمح وخمس صادراته من القطن و ٦٠٪ من زيت الصويا . ومع ذلك فان انتاجها الزراعي والحيواني لا يشكل اكثر من ٣٪ من دخلها القومي الصافي ، وانتاجها التعديني ٢٪ فقط .

ولكن الولايات المتحدة ، بلد صناعي ، يشكل دخل الصناعة فيها ٢٦٫٥٪ من دخلها القومي الصافي . كما انها ، فوق ذلك اكبر بلد مستهلك في العالم . فعلى رغم انها كانت تنتج عام ١٩٧٠ خمس انتاج البترول العالمي فان استيرادها للبترول في نفس العام بلغ ربع استهلاكها ، بينما تجاوز الآن ٤٥٪ من استهلاكها . وهي ثاني بلد في العالم في انتاج الخشب ، بعد الاتحاد السوفييتي ، ومع ذلك استوردت ما يعادل خمس انتاجها . وهي تستورد ٢٧٪ من كاكاو العالم و ٢٥٪ من بن العالم ، وتستهلك ٣٣٪ من لحم البقر في العالم .

ان هذا كله يعطينا فكرة عن حاجة الولايات المتحدة القصوى للمواد الخام في العالم من اجل ابقاء اقتصادها قويا وناميا ومنتعشا . ولو قارنا مقدار استيراد الولايات المتحدة من هذه المواد قبل الحرب العالمية الثانية بمقدار استيرادها بعد الحرب لوجدنا الفرق شاسعا .

وبالفعل فقد شعرت الولايات المتحدة بضغط هذه الحاجة الملحة الى المواد الخام بعد زمن قصير من انتهاء الحرب . يقول جورج كينان ـ الذي يعتبر أكبر مخططي السياسة الاميركية الخارجية في تلك الفترة ـ في كتابه « حقائق السياسة الخارجية الاميركية » ان من اهم خصائص العالم غير الشيوعي في الوقت الحاضر نمو الاعتماد المتبادل بين هذا العالم وبين الولايات المتحدة . « فالمسألة ، فيما يخصنا نحن ـ أي الاميركان ـ مسألة استقرار حياتنا الاقتصادية . ولكن اهم من ذلك فيما اظن ، مسألة تنامي اعتمادنا على موارد المواد الخام الاجنبية . وتلك حقيقة قد تكون قاسية جدا ، كما يحتمل ان نرى اذا حصل تدخل ما في مدنا ببعض مصادر المواد الخام هذه . حقيقة قاسية لا علينا فحسب ، بل قاسية على البلاد المنتجة لتلك المواد ذاتها » وذلك كلام قيل عام ١٩٥٤ ، أي بعيد ازمة البترول الايرانية وقبل ازمة البترول العربية بحوالي عشرين عاما . ثم يتابع كلامه فيقول « ان الخطر ـ اي الخطر على سياسة الولايات المتحدة ، ومصالحها ـ يمكن ان ينشأ . . . نتيجة اسباب خارجية ، كأن تقوم احداث في مكان ما تهدد مدنا بالمواد الخام الضرورية لاستدامة حياتنا القومية ، او نتيجة أسباب داخلية ، كالتقلبات في اقتصادنا او في سياستنا التي تؤثر في استقرار مشاركتنا في الاقتصاد العالمي » . وبعد

ان يستشهد بأزمة البترول الايراني حين اممه مصدق ، يقول ان من ســوء الحظ ان كثيرا من هذه المواد الخام انما يوجد في اراضي دول لم تعرف في تاريخها معنى السيادة ، ولم يكن لها تقاليد في الاستقلال وممارسة السلطة والمشاركة في شؤون العالم · ولذلك فان ضمان « استمرار مدنا بالمواد الخام انما يقوم على خيوط واهية لا حــول لنا فيها ولا طــول · واخشى ان يقود انقطاع هذه المواد عنا في يوم من الايام الى ازمات أليمة والى توتر من النوع الذي كان يوصم في الماضي بتهمة الامبريالية (كذا) · لذلك ما اظن الا انه ، بدافع اللطف والتسامح ، لا بد لنا من ان نواجه هذه المشكلة اليوم ، بان نوضح للدول الاخرى بأنه لا يجوز لها ان تسمح بأن يعتمد اقتصادنا العظيم ، والشديد الحساسية في نفس الوقت ، عليها ، الا اذا كانت مستعدة للاعتراف بواجبها في ان تحافظ على استمرار الترتيبات القائمة ، والاطمئنان الى حسن تنفيذها »·

طابع الامبريالية الجديدة

ان كون الولايات المتحدة اغنى دولة في العــالم ، وكونها اكبــر منتج ومستهلك في العالم ، لا يضيرها في شيء ، وليس ذنبا في ذاتــه · ان تاريخ نشأتها من جهة ، وسعة مواردها وثرواتها الطبيعية من جهة ، هيئا لهــا ان تكون كذلك ، وذلك كله من حقها · **لكن التناقض بينها وبين العالم الثالث لم يكن سببه غناها وفقره · وانما كان سببه اصرار الولايات المتحدة ، بعــد ان اصبح اقتصادها عالميا ، على ان يكون استمرار غناها وتصاعده على حساب بلدان العالم الثالث ، واصرارها على ان تفرض على هذا العــــالم النظام الاقتصادي الذي كان سبب فقره وتخلفه ايام الاستعمار الاحتــــلالي ، وسبب غنى الدول الصناعية وتقدمها ، واصرارها على ان تمنع تحرر هــــذا العالم الاقتصادي ، اذا كان في هذا التحرر ما يهز كيانها الاقتصادي ورفاهها الــذي لا مثيل له في العالم ·**

ان سبب التناقض الحقيقي هو ان غنى الولايات المتحدة ورفاهها ليس نتيجة مواردها الضخمة ، وثورتها العلمية التكنولوجية فحسب ، وانما هو ، ايضا ، نتيجة الاستغلال الحتمي لمــوارد العالم الثــالث ، ســواء كان هذا الاستغلال مباشرا ، أي من قبل الولايات المتحــدة مباشرة ، او غير مباشر ، اي عن طريق شركات العالم الصناعي المتقدم ، أو العملاء والوكلاء في بلدان العالم الثالث نفسه ، الذين تسيطر عليهم جميعا ، بحكم قوانين السوق الحرة ·

ان الذي لا شك فيه هو ان العالم كله قد تجاوز تلك المرحلة التي كــان

من الممكن فيها ان تعيش دولة ما مكتفية اكتفاء ذاتيا بما منحتها اياه الطبيعة من موارد وما يقدمه ابناؤها من عمل • والذي لا شك فيه هو ان عمق الفعاليات الاقتصادية والتكنولوجية قد جعل ما يسمى « بالاقتصاد المغلق » شيئا من التاريخ • وكما تحتاج الولايات المتحدة الى المواد الخام تستوردها من العالم ، وهذا من حقها ، يحتاج العالم الى مصنوعات الولايات المتحدة ، وهذا من حقه • فالتعامل بين بلدان العالم كلها ، واعتماد الدول على بعضها اعتمادا متبادلا ، اصبح حتمية من حتميات الواقع الاقتصادي القائم لا يمكن تجنبه • وبلدان العالم الثالث لا يمكن ان تقيم حائلا دون بيع منتجاتها من مواردها الى الولايات المتحدة وغيرها ، كما لا يجوز للولايات المتحدة والدول الصناعية الاخرى ان تقيم حائلا دون بيع منتجاتها الى بلدان العالم •

ولكن الذي يجعل بلدان العالم الثالث في موقف متناقض مع الولايات المتحدة وبقية العالم الصناعي ، هو ان هذا التعامل المتبادل الحتمي انما يقوم في احوال جائرة بالنسبة لاقتصاد العالم الثالث ، وان العالم الصناعي المتقدم، وبشكل اخص الولايات المتحدة ، هو الوحيد ، بين الاطراف المتعاملة مع بعضها ، القادر على فرض شروط هذا التعامل ، بصفته القيم على ثروات العالم كلها • ان قدرته المالية في التحكم في تجارة العالم ، هذه القدرة التي منحته اياها وضع « السوق الحرة » التي انشأ قواعدها وقوانينها الاستعمار الاحتلالي ، والذي جعل في يد الولايات المتحدة واوربا الغربية واليابان ان تنتج ٦٥٪ من انتاج العالم الكلي وان تجعل مصارفها وبورصاتها مراكز احتكار التجارة العالمية والتحكم فيها ، كافية وحدها لتعطيها القدرة على الهيمنة الشاملة على اقتصاد العالم ، ولتقيم امام بلدان العالم الثالث الحواجز والعراقيل اذا ما حاولت ان تحرر اقتصادها من قوانين هذه السوق وسلطاتها غير المحدودة •

ولكن الولايات المتحدة لا تكتفي بهذه القدرة المالية وحدها ـ وانما هي تستعمل ، بالاضافة اليها ، ما لديها من قوة اقتصادية وعسكرية وتكنولوجية لفرض هذا التحكم فرضا على دول العالم الثالث • ومن هنا وصفها « بالامبريالية » • فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية واتفاق الاتحاد السوفييتي والغرب على الخطوط العامة الفاصلة بين منطقتي نفوذهما ، اعتبرت الولايات المتحدة ان كل ماهو خارج نطاق الكتلة الاشتراكية من العالم فهو منطقة نفوذها• وان العالم كله مقسوم الى قسمين : غرب ديموقراطي حر وشرق شيوعي • وان كل محاولة من قبل العالم الثالث للتحرر السياسي او للتحرر الاقتصادي او للوقوف موقف الحياد الايجابي او لرفض الارتباط بمعاهدات دفاع ، هي

عدوان شيوعي تجب الحيلولة دونه بكل الوسائل . وربطت ما بين موقفها من الاتحاد السوفييتي وموقفها من حركات التحرر في العالم الثالث ، لا سيما اذا تضمنت تحرير اقتصادها من قيود السوق الحرة ، وجعلت الحفاظ على المصالح الغربية الاستغلالية في بلدان العالم الثالث جزءا اساسيا من حربها الباردة مع الاتحاد السوفييتي . فأصبحت كل حركة تحررية حركة شيوعية ، واصبح العالم كله ، في نظرها ، اما مع ، او ضد « العالم الحر » .

ومن هنا كان « مبدأ ترومان » ، « ومبدأ ايزنهاور » ، تلك المبادىء المنطوية على حق التدخل في أي جزء من أجزاء العالم اذا هددته قوة خارجية – اي شيوعية – او قوة تحررية داخلية ترمي الى التحرر الاقتصادي واعادة تنظيم المجتمع . وجعلت الولايات المتحدة نفسها « بوليس العالم » . وملات كل « فراغ » تركته وراءها الدول الاوربية المنسحبة من مستعمراتها ومن « مسؤولياتها » العالمية .

لذلك يلخص جورج بول – الذي بقي وكيلا لوزارة الخارجية الاميركية ست سنوات في عهدي الرئيسين كنيدي وجونسون – سياسة الولايات المتحدة في الحرب الباردة ، في كتابه « نظام القوة » الصادر عام ١٩٦٨ ، بقوله « ان سياستنا في الحرب الباردة يمكن ان تلخص بأنها ١) اصرار على الخطوط المثبتة قبل عام ١٩٥٠ والتي تحدد الحدود الخارجية للقوة الشيوعية ٢) الاعتراف المبطن بأن الاراضي الواقعة ضمن الحدود هي منطقة نفوذ شيوعية لا نتدخل فيها ولو لجأ الشيوعيون الى اخضاع شعوب تلك المنطقة باساليب قمعية قاسية (كما في المانيا الشرقية عام ١٩٥٣ ، وهنغاريا وبولندا عام ١٩٥٦) ، ٣) اصرار على ان كل ما هو خارج هذه الحدود فهو منطقة نفوذ غير شيوعية ، او منطقة نفوذ للعالم الحر تحميها الولايات المتحدة ، بمساعدة اي حليف يمكن ان تجنده ، ضد اي تغلغل شيوعي سواء بالقوة او بالتآمر الداخلي (كما في كوريا ١٩٥٠ ، جزر فورموزا ١٩٥٥ ، لبنان والاردن ١٩٥٨ ، جمهورية الدومينيكان ١٩٦٥) » .

الولايات المتحدة اذن ، في امبرياليتها الجديدة ، لا تحتل البلاد بقصد البقاء ، كما كانت تفعل الدول الاستعمارية الاوروبية ، ولكنها مستعدة لاستعمال كافة الوسائل المتاحة لها ، بما في ذلك التدخل العسكري ، لوأد كل حركة تهدد هيمنة الولايات المتحدة والغرب على موارد المواد الخام في العالم ، وكل حركة تهدد قوانين السوق الحرة القائمة ، وتهدد النظام الاقتصادي الاستغلالي السائد .

ان الدافع الظاهري لهذه السياسة الامبريالية الاميركية هو الحيلولة

دون نشر الاتحاد السوفييتي للشيوعية بالقوة ، والحيلولة دون خطر الاحتلال السوفييتي للعالم ، والحيلولة دون « انضمام » دول العالم لكتلة الاتحاد السوفييتي • ولكن الدافع المبطن ، الذي كشف عن نفسه بقوة وصراحة بعد ازمة رفع اسعار البترول عام ١٩٧٣ وتأميم بعض شركاته ، كان دائما الحفاظ على القدرة الاستغلالية للدول الصناعية المتقدمة علـى احتكار ثروات بلاد العالم الثالث • ان جورج بول ، في كتابه المذكور ، لا يكاد يأتي على ذكر المواد الخام في العالم ، ويقتصر على بحث السياسة الخارجية من حيث هي توازن قوى عالمي • ولكنه يعترف « بأننا مذنبون ، طيلة فترة ما بعد الحرب ، بأننا نقول شيئا ونفعل شيئا آخر • ونستعمل كلمات وتعابير الرئيس ولسون العالمية ، ونتبع سياسات التحالفات ومناطق النفوذ وتوازن القوى • وقد حان الوقت لنقف خداع انفسنا ببلاغتنا السياسية وان نواجه بصراحة حقائق ما بعد الحرب • فعلى رغم اننا اخترعنا تجريدات سامية جديدة ، كالاحتواء والتحرير، ووقف العدوان ، وما شاكل ذلك ، فان هذه الالفاظ انما تحور وتحرف الاغراض الحقيقية للسياسة الاميركية التي هي ان تحاول ان تبني السلام ، لا بحماية مصالحنا الخاصة فحسب ، بل بالاعتراف بمصالح وقوة الآخرين ايضا » •

ومن الواضح انه اذا كان هدف الولايات المتحدة الحقيقي هو الحصول على المواد الخام فان لذلك طرقا غير طريق الامبريالية • ولكن اذا كان الهدف هو الحصول عليها بالاسعار التي تفرضها سوقها الحرة ، بينما تحتكر نفس هذه السوق فرض اسعار منتجاتها الصناعية وموادها الخام كذلك ، فليس الى ذلك من سبيل الا سبيل السياسة الامبريالية• ومن الواضح كذلك ان مثل هذه السياسة لم تعد تقبل كلمات « الحرية » و « حق تقرير المصير » و « الديموقراطية » شعارات لها ، فهي تتناقض معها تناقضا تاما • ومن هنا كان اعتراض كل من جورج كينان وجورج بول على استعمالهـا ، وايثارهم الصراحة في تسمية الاشياء بأسمائها •

ولعل احدا لم يخدع نفسه ، او يخدع العالم ، كما فعل الرئيس كنيدي في خطابه الافتتاحي عام ١٩٦٢ حين قال « منذ سنة ، حين تسلمت مسؤوليات الرئاسة ، قلت ان اجيالا قليلة في التاريخ اتيح لها ان تحمل المسؤولية الكبرى للدفاع عن الحرية حينما احاط بها الخطر الشديد • وهذا من حسن طالعنا ، وانا ارحب بهذه المهمة مثلما رحبت بها قبل عام • لان قدر هذا الجيل ، قدركم في الكونجرس وقدري في الرئاسة ، ان نعيش كفاحا لم نبدأه ، في عالم لم نصنعه • ولكن ضغوط الحياة لا توزع حسب الاختيار • ومع ان امة ما لـم تواجه مثل هذا التحدي ، فليس ثمة امة كانت على استعداد لتحمل عبء الحرية ومجدها كامتنا » •

كان كنيدي من القلائل الذين كانوا ما يزالون يؤمنون بأن سياسة الولايات المتحدة الامبريالية هي لون من الوان رسالتها في الحرية !

وسائل الامبريالية الجديدة

خلقت الدول الاوروبية الاستعمارية نظام السوق الحرة وفرضته على العالم كله بقوة الاحتلال · اما الولايات المتحدة فلم تخلق هذا النظام العالمي ، وانما ورثته قائما · فلم يكن همها ان تقيمه · ولكن كان همها ان تحافظ عليه ·

بذلك تمكنت من ان تضع وتتبع اساليب جديدة في متابعة سياستها الامبريالية ، مختلفة عن اساليب الاستعمار القديم ، بل ومناقضة له في كثير من الاحيان ، مستقاة من تجارب وخبرات الاستعمار القديم ، ومستقاة من دروس ما فعلته المبادىء الماركسية في عالم الشعوب ، ومستندة ، بالدرجة الاولى ، الى الثورة التكنولوجية والاقتصادية في الولايات المتحدة ، وما تتيحه لها من قدرات ·

فلقد ادركت الولايات المتحدة ان مرحلة الاحتلال العسكري قد فاتت وفات اوانها · فوعي الشعوب ونضالها وتطلعها الى تنمية ذاتها جعل عملية الاحتلال العسكري وادامته عملية مرتفعة التكاليف ، وتفوق كلفتها الثمار المتوخاة من عملية الاحتلال ، لا سيما وان ارتباط اسواق العالم الثالث بالسوق العالمية اصبح حقيقة قائمة · بذلك اصبح الاحتلال عملية خاسرة · ولما كانت الغاية الاساسية من الامبريالية خدمة المصالح الاقتصادية للدول المصنعة ، لا مجرد الجري وراء المجد والسلطة حبا بالمجد والسلطة ، فان الاحتلال العسكري يأكل هدفه ، ويمنع من الوصول الى النتائج المطلوبة ·

فهي اذن ضد الاحتلال العسكري الدائم · فالاحتلال العسكري قمين بأن يجمع الشعب كله ضد المستعمر المحتل ، وان يغذي حركة المعارضة والمقاومة له · فان كان لا بد لها من ان تنزل جيوشها احيانا ، كما فعلت في لبنان وفي الدومنيكان ، فهي تفعل ذلك لاقصر مدة ممكنة ، ولو ان هذه السياسة قد تقودها احيانا لخوض اطول معركة في تاريخ الولايات المتحدة كلها ، كما فعلت في فيتنام ، او لخوض معركة من اشرس المعارك كما فعلت في كوريا · ومع ذلك فهي ، في الحالين ، لم تعترف بأنها « احتلت » ارضا ما وانما اعلنت انها دفعت عدوانا « خارجيا » ، على رغم ان الكوريين الشماليين والجنوبيين امة واحدة ، وان الفيتناميين الشماليين والجنوبيين امة واحدة ·

أثر الاحتلال :

ولكن افضل من الاحتلال واكثر تحوطا لما يمكن ان يحدث ، اقامة القواعد العسكرية برضا الحكومات القائمة وموافقتها ، واقامة « الاحلاف » المسبقة ، كحلف بغداد المركزي ، وحلف جنوب شرق آسيا · بل ان هذه القواعد نفسها والاحلاف المرافقة لها يمكن الاستغناء عنها ، اذا وجدت معارضة شديدة من الشعوب ، لا سيما وان اختراع الصواريخ العابرة للقارات ، وامكان وضعها واستعمالها في السفن والغواصات التي تجوب البحار والمحيطات قد جعل القواعد الارضية ذات اهمية ثانوية ·

بالاضافة الى ذلك فثمة اقامة « القلاع » في المناطق المهمة من العالم · هذه القلاع هي دول ، صغيرة عادة ، تنصب فيهـــا الاسلحة الاميركية والمال الاميركي انصبابا من اجل خلق « قواعد » قوية قادرة على القيام ببعض الدور الذي كان لا بد ان تقوم به القوات الاميركية مباشرة لو لم تكن ثمة هذه القلاع· في المحيط الهادي مثلا ، هذا الخط الممتد من « اوكيناوا » الى كوريا الجنوبية الى فورموزا الى الفيليبين الى فيتنام الجنوبية ـ قبل ان تتحرر ـ الى تايلاند · في الشرق الاوسط ، حيث يقع الخليج العربي وحيث يتجمع اهم مخزون للبترول في العالم ، ثمة ايران في الشرق ، واسرائيل في الغـــرب ، بالاضافـة الى محاولات فاشلة لالحاق تركيا في الشمال والحبشة في الجنوب لاحكام الحلقة · هذه القلاع لا يجوز ان يمنع عنها اي نوع من العطاء ، المال والسلاح والخبراء والتسهيلات الاقتصادية والقواعد العسكرية ووكلاء المخابرات المركزية ، لتقويتها ذاتيا بحيث تصبح هي قواعد متقدمة للولايات المتحدة ، دون ان تحتاج الولايات المتحدة نفسها للتدخل اذا ما قام نزاع او تهديد لمصالحها في المنطقة ، الا حينما وحيثما تقضي بذلك الضرورة القصوى · ولا ريب ان الخسائر الكبيرة التي تعرضت لها الولايات المتحدة في فيتنام بتدخلها المباشر ، والنصر الذي حققته اسرائيل في عدوانها عام ١٩٦٧ ، قد زادتها قناعة بالجدوى العظيمة التي يمكن تحقيقها من خلال هذه القلاع ، فضاعفت مساعدتها لاسرائيل وبيعها السلاح لايران اضعافا مضاعفة ·

ويبقى اخيرا بيد الولايات المتحدة ، حين تدعو الحاجة الى ذلك ، ان تتدخل مباشرة عند اللزوم · وهي بتوزيع قواتها في انحاء العالم ، لا سيما في اوروبا وفي البحر الابيض المتوسط وفي المحيط الهنـــدي والمحيط الهادي ، بالاضافة الى الميحط الاطلسي ، قادرة على الوصول الى اي مكان حينما تستدعي الضرورة ذلك · ولكنها تحاول ، مع ذلك ، جهدها ان لا تضطر الى مثل هذه الخطوة التي قد تقود الى صراع مباشر مع الاتحاد السوفييتي ، عدا انها تكلف الولايات المتحدة مبالغ كبيرة من المال وقد يكلفها خسائر بشرية وخسائر سياسية

شعبية في داخل بلادها نفسها ٠

على ان الامبريالية الاميركية لم تختلف عـــن الاستعمار الاوروبي في سياستها الاحتلالية فحسب ، ولا في احتياطاتها العسكرية فحسب ٠ فمن خلال الدروس التي تلقتها من اسباب فشل الاستعمار الاوروبي ومن نضال الشعوب الاجماعي ضد هذا الاستعمار ، لا سيما في وقت يشتد فيه الصراع بينها وبين الشيوعية في كسب ود الشعوب وثقتها ، ادركت ذلك الخطأ الكبير الذي وقع فيه الاستعمار الاوروبي حين لم ينشر التعليم الا في اضيق الحدود التي يحتاجها لمساعدته في اقامة نظام اداري يساعده في تنفيذ اغراضه ، وحين لم يهتم بالصحة الا في الحدود التي تمنع الاوبئة التي قد تكون عقبة امام استغلال الموارد المتاحة ، وحين لم يشرك اي قطاع من الشعب ، باستثناء اصغر شريحة ممكنة منه ، في منافع استغلاله الاناني الجشع ، وحين لم يهتم برفع مستوى المعيشة الا بذلك القدر الذي خلقته الضرورة التي يقتضيهـــا تأمين اغراض الاقتصاد الاستعماري ، والا في تلك الفئة المحدودة المستفيدة من التغيرات الاقتصادية الاستعمارية ٠

ادركت الولايات المتحدة ان هذا الاسلوب العتيق في الاستعمار، والمنسجم، على اي حال ، مع القدرات الاقتصادية المحدودة لدول اوروبا الاستعمارية ، كان لا بد ان يثير ثائرة الشعوب بمجموعها ، وان يشعرها بالحرمان الحقيقي ، وان يدفعها الى النضال والثورة العامة لكل طبقات الشعب وتحدي الاحتـــلال العسكري بشتى الطرق المختلفة ٠ وان القوى الاستعمارية المعتمدة على وجودها العسكري في سلطتها ، كان لا بد لها من ان تضاعف كبتها البوليسي ، ومن ان توسع ضغط هذا الكبت حتى يشمل كل نشاط سياسي ٠ وكان لا بد لهذا الكبت ان يزيد الهوة بين الاستعمار وبين الشعوب ، ولا بد ان ينقلب على اصحابه ٠ وبالفعل فقد تراجع عدد من الدول المستعمرة ، فيما بين الحربين العالميتين ، ليسمح لبعض الحركات الوطنية بانتخابات برلمانية ، واقامة سلطات وطنية ، محدودة السيادة ومقيدة الارادة ، وتحت اشراف القوى المستعمرة ورقابتها ورضاها ٠

ادركت الولايات المتحدة ان مثل هذه السياسات قد فات اوانها ٠ وحين حددت اهدافها من دول العالم الثالث وحصرتها في هدفين رئيسيين متكاملين ، الابقاء على النظام البورجوازي في الاقتصاد ، اي الابقاء على تبعية النظـــام لقوانين السوق الحرة ، والابقاء على تبعية البلاد في السياسة الخارجية لخط السياسة الاميركي العام ، او عدم الانضمام لخط السياسة السوفييتي على

الاقل ، كانت بذلك قد حققت وسائلها في العمل الداخلي لكل دولة من دول العالم الثالث ٠

هي لا تريد شعوبا مستعمرة ، بل تريد شعوبا « مستقلة » استقلالا قانونيا ، معترفا به ٠ فاذا ما حصلت البلاد على استقلالها على يد قيادة حركتها الوطنية، التي هي في معظم بلدان العالم الثالث في يد بورجوازيتها الوطنية ، وتولت هذه الطبقة مقاليد الحكم ، وحكمت البلاد ، اول الامر ، حكما برلمانيا ديموقراطيا، متبنية نظاما رأسماليا منفتحا على الغرب ، سائرة خطوتها الاولى في الدرب الاميركي الطويل ، دعمت الولايات المتحدة هذا الحكم ما وسعها الدعم ، او ما اقتضته الضرورة ، من اجل المحافظة على « استقلال » البلاد ، وعلى « ديموقراطيتها » ، وعلى « نظامها الاقتصادي الحر » في آن معا ٠

ولكن معظم هذه البلاد ، وان حققت استقلالها القانوني ، قد خرجت الى العالم في حالة تخلف شديد ٠ هكذا تركها الاستعمار القديم ٠ وهذا التخلف المادي ، الى جانب الوعي السياسي الذي خلقه النضال الشعبي الطويل ، خليق بأن يخلق حالة من التناقض بين تطلعات الجماهير الشعبية وامكانات الطبقة الحاكمة في تلبية هذه التطلعات ، وان يخلق توترا قمينا ، اذا ما ترك الحبل على غاربه ، بأن يهدد ديموقراطية البلاد ونظامها الاقتصادي الحر ، وان يأتي الى الحكم بفئات وطبقات وتطلعات لا تنسجم مع اهداف الولايات المتحدة في المحافظة على هذه البلاد داخل نطاق « العالم الحر » ٠

فما على الولايات المتحدة ، اذن ، الا ان تعمل على وقف هذا الاتجاه ومنعه ، بنشر التعليم ، ونشر الخدمات الصحية ، ورفع مستوى الاستهلاك ، وتحسين مستوى الانتاج ، وذلك بمد هذه الدول بالوكالات التجارية الاميركية ، وبشراء محاصيلها باسعار « السوق » الرائجة ، وبارسال الخبراء والفنيين اليها ، وبمدها بالقروض والمساعدات المالية ، ثم بتزويدها بالخبرات البوليسية والمباحثية وبالسلاح اللازم لحماية الطبقة الحاكمة فيها ٠

بذلك ، تحقق الامبريالية الاميركية اكثر من غرض ٠ فهي ، من ناحية ، تربط اقتصاد هذه البلاد الناشئة النامية باقتصادها ، فتضمن الحصول على منتجاتها بالاسعار التي تقررها هي ، وتضمن ارتباط اسواق هذه البلاد الاستهلاكية بسوقها هي المتسعة باستمرار والمتعطشة للاسواق باستمرار ٠ وما دامت هي التي تقرر في النهاية اسعار منتجاتها الصناعية ، وهي التي تقرر اسعار المواد الخام العالمية ، وما دامت الاولى في ارتفاع مستمر يتجاوز اي

ارتفاع قد يطرأ في الثانية (١) ، فان المساعدات والقروض ليست الا جزءاً بسيطاً مما تحققه من ارباح ، نتيجة سيطرتها على الاثنين معا ، ونتيجة حفاظها على النظام الاقتصادي الحر ·

ولكن الامبريالية تحقق ، من ناحية اخرى ، ما هو اهم من ذلك بكثير · فبدلا من تلك الشريحة الصغيرة من المجتمع التي كان الاستعمار القديم يشركها في بعض مغانمه بينما يترك طبقات الشعب كلها واعية على حرمانها ، فالاسلوب الاميركي يخلق مجتمعا جديدا كل الجدة مختلفا كل الاختلاف · مجتمعا تسيطر على اقتصاده طبقة منتفعة من ارتباطها المباشر بالولايات المتحدة ، مصدر الوكالات والتجارات والصناعات والتعهدات والخبرات ورؤوس الاموال، ارتباطا لا يقتصر عليها هي ، وانما يمتد ليربط الاقتصاد المحلي كله ، الذي هي قائدته وصاحبة المشاريع فيه ، بالاقتصاد الاميركي والاقتصاد العالمي الحر ربطا محكما لا يمكن الفكاك منه الا بعملية ثورية كبيرة ·

هذه الطبقة المنتفعة هي التي تتولى المصالح الاقتصادية من جهة والمصالح السياسية من جهة اخرى · تكون في الحكم او وراء الحكم · وتصبح هي « اليمين » الذي يتولى بنفسه محاربة كل حركة مناوئة للامبريالية ، او مطالبة بالحرية ، او منادية بالتحرر الاقتصادي ، او بالتغيير الاجتماعي · وهي ، بطبيعة الحال ، اقدر من المستعمر الاجنبي المباشر في القيام بدورها هذا · لانها تنتسب الى نفس البلد ، والى نفس الامة ، ولها ارتباطاتها العشائرية او الطائفية او الاقليمية او المصلحية · وهي تخوض معركتها باسم الوطنية او القومية او الدين او التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي تحققه ، والذي تسانده الارقام والاحصاءات ·

بذلك تستغني الامبريالية عن خوض المعارك ضد الشعوب ، وتخلق بدلا من ذلك معارك داخلية تدور بين طبقات الشعب نفسه · وما عليها هي بعد ذلك الا ان تدعم اليمين الحاكم ماليا وسياسيا ومباحثيا ، ولا تتدخل عسكريا الا عند الحاجة القصوى ·

ومع ان هذا الفهم الجديد لاساليب الاستعمار كان قد بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فقد تنامى ، عن طريق التجربة والخطأ خلال ربع القرن الماضي،

(١) حين ارتفعت ، مثلا ، اسعار البترول عام ١٩٧٤ الى اربعة اضعاف ما كانت عليه ارتفعت اسعار الاسمدة الازوتية المصنعة عشرة اضعاف ·

وتبلور بشكل اخص بعد تجربة الحرب الفيتنامية ، وخلق مبـدأ « فيتنمة النزاعات ». ان « الفيتنمة » اسم مشتق من « فيتنام » . ولكنه تجاوز ذلك البلد ذاته ليصبح مبدءا عاما يمكن تطبيقه في كل مكان . اذ يمكن خلق اي فيتنام جنوبية لتقاتل ضد اي جبهة تحرير . وفي سبيل ذلك لا يوفر اي جهد او مال او سلاح . ارواح الجنود الاميركيين فقط هي التي توفر .

فاذا تمكن قطر ما من ان يفلت من بين يدي القوى الامبريالية ، واوصل قوى يساريه تقدمية الى الحكم ، متطلعة الى التحرر مـن قوانين السوق الاستغلالية ، معارضة لمبدأ التبعية الاميركية ، لم تأل الولايات المتحدة جهدا في العمل على تقويض العهد بكل الوسائل الممكنة . ولعل اهم هذه الوسائل واكثرها فاعلية واثرا ، العمل على تخريب اقتصاد ذلك القطر ، بمقاطعة منتجاته ، وتخفيض سعر المنتجات ، وتشكيل التحالفات الاقتصادية ـ كوكالة الطاقـة الدولية ـ ، واغراق السوق ، ووقف المعونات والقروض ، لا من الولايات المتحدة فحسب ، بل ومن حلفائها في الدول الصناعية المتقدمة ، ومن الهيئات الدولية التي تسيطر عليها كالبنك الدولي ، واغراق البـلاد بالديون والعجز المالي واضطرارها الى التقشف وخفض مستوى المعيشة ، الى ان ينتشر السخط في بعض قطاعات الشعب ، وتنضج اسباب الانقلاب على الحكم ، لا سيما اذا لم يكن الحكم مسلحا بالثقة النامية من جماهير الشعب ، واذا لم يكن الشعب متشبعا برسالة الحكم نتيجة اخطاء يرتكبها الحكم ، او سوء تصرف في ادارة الامور ، او تعال على الاندماج في القوى الجماهيرية . حينذاك ، فسرعان ما تولد القوى المهيأة للانقلاب ، فاذا بالحكم ينهار في ليلة ظلماء، واذا « بدكتاتورية البورجوازية » تقوم باسم « تصحيح الاوضاع » و « اشاعة الديموقراطية » و « القضاء على الفساد » وانهاء « الاحزاب التي تقسم الراي الوطني وتشيع الفرقة » . ثم اذا بالمعونات الاميركية تتدفق ، واقساط الديون تؤجل ، وتصدير الخبرات يتوالى ، واسعار المنتجات ترتفع ، ويتم اغراق السـوق بالسلع الاستهلاكية التي كانت مفقودة وشحيحة .

وبطبيعة الحال فان دولة كالولايات المتحدة ، ذات قوة وعلم ، متمكنة من التكنولوجيا وعلوم الكومبيوتر ، وصاحبة « وكالة الاستخبارات المركزية » ، وصاحبة شركات عالمية ذات خبرة واسعة في شؤون العالم الثالث كشركات البترول وشركة التلفون والتلغراف ـ اداة تنفيذ الانقلاب العسكري في التشيلي ـ وشركات الموز والفواكه الكبرى ـ اداة تنفيذ الانقلابات العسكريـة في اميركـا الوسطى ـ لن تترك هذا كله للصدفة ، وانما هي تخطط له تخطيطا علميـا حديثا .

ولا ريب في ان عمل الاستخبارات الاميركية ، بعد الثورة التكنولوجية ، اصبح يختلف اساسا عن عمل الاستخبارات الساذج زمن الاستعمار القديم ، بحيث يبدو هذا الاخير قزما صغيرا امام هذا العملاق التكنولوجي الممتد الى جميع انحاء العالم • فالمخابرات ، ايام الاستعمار القديم ، كانت تعتمد على مجموعة من الناس تراقب الحركات المعادية للاستعمار وتحاول ان تكشفها او تكشف اساليبها وخططها • المخابرات الاميركية الان ليست جهاز استقبال فحسب ، وانما هي جهاز ارسال ايضا • وهي ليست ذات موجة واحدة فحسب تعمل بين اعداء الامبريالية ، وانما هي متعددة الموجات ، اخطبوطية الامتداد، تصل الى جميع التيارات والمنظمات والاحزاب والنقابات • وهي لا تعمل على اساس ان لها اصدقاء واعداء فحسب ، فالعداوات نفسها تصنف درجات ، والصداقات تصنف درجات ، واليد الاميركية تحاول ان تصل الى كل هذه الدرجات ، تخترقها ، وتوجهها ، وتلعب بها كما لو كانت مسرحا للعرائس • وهي ليست واحدة الاسلوب ، بل تستعمل كل الاساليب الممكنة • تخترق المنظمات الصديقة لتصلح من اساليبها في العمل ، وتخترق المنظمات المعادية ، لا لتكشف اسرارها فحسب ، بل لتدفعها ايضا في متاهات ، ولتوقعها في اخطاء ، يستفيد منها الاصدقاء • فهي قد تدفع في صفوف اليسار عملاء محرضين للتشويش واحداث الفوضى بادعاء التطرف ، وقد تتعاون مع الحركات القومية لمحاربة الشيوعية ، او مع الحركات الشيوعية لمحاربة القومية ، او مع الحركات الطائفية لمحاربة الاثنتين معا •

ولقد كشفت تحقيقات الكونجرس الاميركي ، بعد فضائح ووترغيت ، كثيرا من « الاسرار » التي كانت معروفة لدى شعوب العالم • واتضح دور المخابرات في انقلابات اندونيسيا وغانا والتشيلي ودول اميركا الوسطى والجنوبية واليونان وقبرص والبلاد العربية وايران وكمبوديا وتايلاند والكونغو، ونكاد نقول في كل بلدان العالم الثالث •

فاذا فشلت الحرب الاقتصادية ، وفشلت الحرب الاستخبارية ، فثمة ، بعد ذلك كله ، القلاع الاستراتيجية ، ثم بعدها الجيوش الاميركية نفسها •

تلك هي الامبريالية الاميركية • وتلك هي وسائلها • لم تعد خافية على احد ، لا سيما بعد ان فضحت نفسها بنفسها بعد حادثة ووترغيت والتحقيقات التي تلتها •

بين المبادىء والممارسة

ولكن اين اصبحت المبادىء والمثل الاميركية التي عملت تحت مظلتها

الامبريالية الاميركية ؟ لقد دعا كثير من الساسة الاميركان ، مثل جورج كينان وهانس مورغنتاو وجورج بول ، الى طرح هذه المظلة جانبا ، واعلان ما هو واقع فعليا من ان السياسة الاميركية الخارجية انما تعمل من اجل المصلحة الاميركية، وان « ما يصلح لشركة جنرال موتورز يصلح للولايات المتحدة وللعالم » ٠ كما استنكر بعض الساسة الاميركان ، كالسناتور فولبرايت ، اساليب السياسة الامبريالية وادركوا ردود فعلها المعاكسة للمصلحة الاميركية ٠ وبقي بعض الساسة ، كمثل ستيفنسون وكنيدي ، يحاولون التوفيق بين المثل وبين المصلحة ـ على رغم ان حادث خليج الخنازير في كوبا حصل ايام رئاسة كنيدي ـ ٠ ولكن الحقيقة هي ان المثل العليا التي تمنطقت بها الولايات المتحدة في اوائل دخولها طريق الامبريالية العالمية قد تحطمت على صخور الوقائع والممارسات والضغوط الحقيقية للمركب المالي الصهيوني العسكري داخل الولايات المتحدة ٠ قال ادلاي ستيفنسون ، معبرا عن هذا البون الشاسع بين مبادىء الولايات المتحدة وسياستها الفعلية « انه لمن السهل ان نناضل في سبيل المبادىء ولكن من الصعب ان نطبق هذه المبادىء » ٠

لقد ادعت الولايات المتحدة دائما ان سياستها الخارجية ترمي الى تحقيق اهداف رئيسية اربعة ٠ اولها الدفاع عن « العالم الحر » ضد الخطر الشيوعي ٠ وثانيها الدفاع عن الحرية ضد الدكتاتورية ٠ وثالثها العمل على رفع مستوى الشعوب ٠ ورابعها نشر السلام في العالم ٠ لقد وضع هيوبرت همفري هذه الاهداف في جملة واحدة يصف بها « مبدأ جونسون » ، المعلن عام ١٩٦٦ بعد اجتماعه مع كاو كي العميل الفيتنامي الجنوبي ، فقال « انه عهد علينا ، وعلى اجيالنا المقبلة ان نهزم العدوان ، وان نهزم الشقاء الاجتماعي ، وان نبني مؤسسات سياسية حرة ، وان نحقق السلام » ٠ فهل كانت هذه حقا اهداف ابشع حرب امبريالية خاضتها الولايات المتحدة في تاريخها ؟

اما فيما يتعلق بالهدف الاول ، اي ضد الخطر الشيوعي ، فان من الواضح ان « العقيدة الشيوعية » في ذاتها ليست خطرا حاليا داخل الولايات المتحدة ، وان الولايات المتحدة ليست على استعداد ، ولا هي من القوة ، بحيث تعمل على محاربة الشيوعية في البلاد الشيوعية ٠ وان خشية الولايات المتحدة الحقيقية من الشيوعية انما تنبع من مصدرين ٠ اولهما خشيتها من توجه بلدان العالم الثالث وحركاتها القومية التحررية نحو الاشتراكية مؤدية بذلك الى خروج هذه البلدان من نطاق السوق الحرة الاستغلالية ٠ وثانيهما قوة الاتحاد السوفييتي نفسه من حيث هو القوة المنافسة الاولى لقوة الولايات المتحدة في العالم ٠ والواقع ان موقف اميركا من الاتحاد السوفياتي لم يكن ليتغير لو كان هذا الاخير يحمل عقيدة اخرى ،

ما دام هو القوة المنافسة الاساسية التي لا تسير في فلك اميركا ، والتي لها ، هي ايضا ، سياستها الخاصة ومصالحها الخاصة ، المتعارضة في اكثر الاحيان ، والمتوافقة في اقل الاحيان ، مع مصالح الولايات المتحدة وسياستها ٠

فعندما كانت المانيا النازية واليابان العسكرية هما الدولتان اللتان تهددان مصالح ميزان القوى الامبريالي القائم ، لم تجد الولايات المتحدة بأسا من ان تحالف الاتحاد السوفييتي وان تمده بالمال والسلاح والمعونة ، على رغم شيوعيته وستالينيته ، من أجل القضاء على تينك القوتين المعاديتين للدول الغربية الامبريالية ولاميركا ٠ ولكن حين تم القضاء عليهما وخرج العالم اثر الحرب العالمية الثانية وليس على وجه الارض الا قوتان رئيسيتان فحسب هما الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي ، متعارضتان في المصالح وفي الاهداف وفي العقيدة ، استفاقت الولايات المتحدة على خطر « العقيدة » الشيوعية في ضوء استفاقتها على خطر « القوة » السوفييتية ٠

« فالخطر الشيوعي » الحقيقي هو بالنسبة للولايات المتحدة تعاظم قوة الاتحاد السوفيتي تعاظما يؤدي الى اختلال موازين القوى التي يجب ان تظل في صالح الولايات المتحدة ٠ فبعد تقسيم اوربا بين الدولتين العظميين ، وبعد نجاح الثورة الاشتراكية في الصين ، وبعد امتلاك الاتحاد السوفييتي للسلاح النووي وللصواريخ البعيدة المدى ، اصبح هم الولايات المتحدة الاول هو مقاومة امتداد هذه القوة افقيا ، بمد الاحلاف الاشتراكية خارج النطاق الموروث منذ عام ١٩٤٩ او عموديا ، بتطوير القدرات التكنولوجية والحربية لكتلة الدول الاشتراكية ٠

ليس الصراع اذن صراعا بين العقيدة الرأسمالية في الولايات المتحدة ، والعقيدة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ، وانما هو صراع بين قوتين كبيرتين تملكان القدرة على رسم خريطة العالم بالشكل الذي تريدانه لولا « توازن الرعب» القائم بينهما ٠

ان الولايات المتحدة تتحدث باستمرار عن « الخطر الشيوعي » او « الخطر السوفييتي » ، حتى جعلت من هذا الخطر اسطورة كبرى تبرر بها كل سياساتها الامبريالية في العالم ، على رغم ان جنديا واحدا من جنود الاتحاد السوفييتي لم يقاتل ، منذ انتهاء الحرب ، في اي ارض خارج المنطقة التي قررتها له اتفاقات يالطا وبوتسدام التي تم فيها تقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين الكبيرتين ، وعلى رغم ان جنود الولايات المتحدة قاتلوا في اقطار عديدة في العالم ٠ يقول لورد كينيث ، كما ينقل عنه السناتور فولبرايت ، متحدثا عن اميركا وعن الصين « ان هذين البلدين لا يكادان يفهمان بعضهما ٠ فأميركا تتحدث عن السلام ولكنها

تقذف بالقنابل جارة الصين · والصين ترقب اعمال اميركا وتتجاهل حديثها · اما الصين فتتحدث عن الحرب ، ولكن ليس ثمة جندي صيني واحد خارج الصين · واميركا تستمع الى حديث الصين وتتجاهل اعمالها » · والحق ان خشية الولايات المتحدة من امتداد النفوذ السوفييتي لا يعني فقط الخشية من انضمام دولة ما الى الكتلة الشيوعية ، بقدر ما يعني الخشية من « خروج » اية دولة من نطاق النفوذ الاميركي (١) · فالاساس ، في سياسة الولايات المتحدة ، هو ان تكون كل مناطق العالم ، خارج نطاق دول الكتلة الاشتراكية ، واقعة في نطاق نفوذها هي · والا فانها تتخذ كل اجراء ممكن ، ان عاجلا او آجلا ، لتصحيح الوضع بحيث يصبح كذلك ·

اما من حيث الهدف الثاني ، هدف الدفاع عن الحرية ضد الدكتاتورية ، فقد فقد معناه منذ زمن طويل ، وانقلب الى نقيضه · واصبح هم الولايات المتحدة الاول لا اشاعة الديموقراطية ، بل منع قيام اي نظام يساري في اي بلد من بلدان العالم · ذلك ان اي نظام من هذا النوع لا بد ان يصطدم بالمصالح الاقتصادية والامتيازات الاحتكارية الاميركية خاصة والغربية عامة ، ولا بد ان يخرج من نطاق النفوذ الاميركي الامبريالي · **وفي سبيل منع ذلك يهون القضاء على الحريات ، وتستعمل الانقلابات العسكرية ، وتدعم ، لا الديموقراطية ، بل دكتاتورية البورجوازية ·**

يقول السناتور فولبرايت ، في كتابه «غطرسة القوة» « اننا على رغم تعاطفنا مع الذين ينادون بالقضاء على الفقر والظلم الاجتماعي ، وعلى رغم العون المادي الذي نقدمه لكثير من البلدان الفقيرة في العالم ، فان تعاطفنا هذا سرعان ما يستحيل الى خصومة حين يتخذ الاصلاح شكل الثورة » · ثم يقول « ان كراهيتنا للعنف الذي يمارسه اليسار لا يقابله مثل تلك الكراهية للعنف حين يمارسه اليمين » ·

والحقيقة ان الولايات المتحدة تقيم احسن علاقاتها في بلدان العالم الثالث، لا مع اكثرها حرية وديموقراطية ، بل مع اكثرها رجعية ودكتاتورية وبوليسية · فهي لا تني تتآمر ضد سوكارنو ، ذي الديموقراطية الموجهة التي كانت تسمح

---

(١) في المناقشة التلفزيونية التي جرت بين الرئيسين فورد وكارتر قبيل الانتخابات الرئاسية ، برر الرئيس فورد مد ايران بالسلاح على نطاق واسع بقوله ان ايران حليف قوي، له حدود مشتركة مع الاتحاد السوفييتي وحدود مشتركة مع العراق التي « يحكمها الشيوعيون » · وطبيعي ان هذه لم تكن فلتة لسان ، وانما هي دلالة على ان « الشيوعي الحقيقي » في رأي الولايات المتحدة هو من حارب مصالح الامبريالية الاميركية ·

للاحزاب بالنشاط ، حتى تحل محلها دكتاتورية سوهارتو في مذبحة كلفت الشعب الاندونيسي ستمائة الف قتيل · وهي تتدخل عسكريا ضد « الثورة الدستورية » في الدومنيكان ، التي قامت في وجه احد عتاة الانقلابيين العسكريين ، لتقضي على القوى الجماهيرية ، وتحافظ على حكم الثراة العسكريين · وهي تتآمر ضد حكم « اللندي » في التشيلي ، هذا الحكم البرلماني الديموقراطي الذي احتفظ بالحريات الدستورية الى آخر يوم من حكمه ، وتدعم الانقلاب العسكري اليميني الذي جاء اثر مذبحة عنيقة قاسية من أسوأ المذابح التي عرفتها بلدان العالم الثالث : وهي مع الطاغية « باتيستا » وضد قائد الثورة الشعبية الجماهيرية « كاسترو » · وهي تؤيد الانقلاب العسكري في اليونان ، حين تشعر بخطر فوز القوى اليسارية في انتخابات برلمانية حرة ، بل وتخطط له وتنهي الديموقراطية اليونانية · وتقلب حكم الامير سيهانوك في كمبوديا لتأتي بطاغية عسكري يميني يقود البلاد الى الفساد والهلاك والحرب المدمرة · هي مع الحكم العسكري للبرازيل وضد الحكم البرلماني اليساري فيها · مع الانقلاب العسكري اليميني في الارجنتين وضد الحكم الديموقراطي ·

ان الحرية ، عند الولايات المتحدة ، هي حرية عمل الرساميل الاميركية والغربية · والدكتاتورية ، عندها ، هي استكمال التحرر الاقتصادي لقطر ما وخروجه من قيود « السوق الحرة » · فمصدق دكتاتور وشاه ايران ديموقراطي· ومسز غاندي دكتاتورة والجنرال ايوب خان ديموقراطي · وافضل اصدقاء الولايات المتحدة في العالم الثالث هي تايلاند وفرموزا وايران وكوريا الجنوبية، وملاوي ·

لقد سقطت اسطورة « الدفاع عن الحرية » سقوطا شنيعا · وكشفت تحقيقات الكونجرس الاخيرة ، وفضائح المخابرات المركزية والشركات المتعددة الجنسية ، والكتب العديدة التي كتبها عملاء المخابرات التائبون ، عن الادوار والمؤامرات التي تقوم بها الولايات المتحدة ضد كل حركة يسارية ، او يشتم منها رائحة يسار ، في العالم · ولقد كانت الولايات المتحدة تدعي ، حين ينكشف تدخلها ، انها انما تحارب « التدخل السوفييتي » من الداخل ، مفضية عما كشفه احرار اميركا ، ومنهم السناتور فولبرايت ، عن حقيقة ان الحركات اليسارية في بلدان العالم الثالث خاصة انما هي استجابة طبيعية ورد فعل حتمي للاستغلال الاقتصادي الذي تقوم به الاحتكارات الدولية وقوانين السوق الحرة وحلفاؤها من الطبقات ذات المصالح المرتبطة بالامبريالية · ان الولايات المتحدة تعرف ان جو الحرية والديموقراطية ، حين يتاح للجماهير الشعبية ، سوف يقضي على احتكاراتها ومصالحها المتعارضة مع مصالح الشعوب ، وان الدكتاتورية وحدها، عسكرية كانت او بورجوازية عسكرية ، هي التي تضمن لها بقاء مصالحها

الاستغلالية · ومن هنا دعمها للدكتاتوريات اليمينية ومقاومتها للحرية الديموقراطية ·

اما من حيث الهدف الثالث ، هدف رفع مستوى الشعوب ، فهو اعجب الاهداف واكثرها تناقضا مع الممارسة الحقيقية لسياسة الولايات المتحدة · وليس ثمة شك في ان الولايات المتحدة تتمنى رفع مستوى القدرة الشرائية لبلاد العالم ، فذلك ينعش اقتصادها وهي البلد المصدر الاول في العالم · ولكن الولايات المتحدة تعرف ايضا انه ليس ثمة سبيل حقيقي لرفع هذه القدرة الشرائية الا برفع القدرة الانتاجية · ولكن رفع هذه القدرة يقتضي حرية البلاد في استعمال ثرواتها ، ويقتضي التخلص من تحكم قوانين السوق الدولية ، ويقتضي تغيير نوعية الاقتصاد وتوجيهه نحو مصلحة البلد لا مصلحة السوق الدولية ، ويقتضي القضاء على الاحتكارات الاستغلالية والامتيازات المجحفة ، ويقتضي تغيير النظام الاجتماعي الطبقي المتخلف وازالة الظلم الاجتماعي · ولكن كيف يمكن ان يحدث هذا كله من غير ثورة اشتراكية تعيد النظر في نسج التركيب الاجتماعي للبلاد كما تعيد النظر في ارتباطاتها الخارجية ؟ ذلك هو سر التناقض الذي تقع فيه الولايات المتحدة بين الهدف المعلن والممارسة الفعلية · فهي قد ترغب في رفع مستوى الشعوب ولكنها تتبع سياسة لا يمكن ان تؤدي الا الى تدني هذا المستوى ·

وهي تعلم ذلك ولا تجهله · يقول جورج بول في كتابه « نظام القوة » بعد ان يرد على القائلين بان الصراع بين الدول الغنية والدول الفقيرة هو المشكلة الاساسية في العالم ، لا صراع الشرق والغرب « انا اقول بان هدفنا هو تحسين مستوى المعيشة في بلدان الجنوب ـ اي البلدان الفقيرة ـ لا ازالة الفجوة ـ بين الشمال والجنوب ـ ولا تضييقها ، لاننا ، على رغم مبالغاتنا في الخطب السياسية ، لن نقلل من فوارق الثروة بين الشمال والجنوب · فعلى رغم كل جهودنا في المساعدات الخارجية ، فان هذه الفوارق تنمو وسوف تستمر في النمو · ذلك ان التكنولوجيا تضاعف من نسبة تقدم الدول الصناعية بمقاييس مطلقة اكثر بكثير من امكانات التقدم التي يمكن ان تحققها الدول الفقيرة ··· ولو اردنا ان نحقق ولو قدرا بسيطا من النمو المطلق للدول النامية ، لكان علينا ان نحول مقادير من الموارد الخارجية اكبر بكثير مما فعلنا حتى الآن ، بالاضافة الى الامساك بخناق التزايد السكاني بصراحة بل وبشراسة » · ثم يقول « ولقد ادركنا بحق ان الاستقلال القانوني وحده سيكون نبيذا بلا خبز ، وانه يمكن ان يتحول الى شيء مر المذاق في الفم اذا لم يرافقه تقدم اقتصادي في هذا الجو الجديد والمثير من الحرية » ·

وهو يعترف انه لا بد من الثورة في كثير من الاحيان لتغيير النظام الاجتماعي وتحقيق اي تقدم اقتصادي . فيقول « يمكن القول بانه في كثير من المناطق ، حيث تتسلط مؤسسات اجتماعية وسياسية رجعية عنيدة ، فان الديموقراطية الغربية ستكون عاجزة عن ان تحقق الاجراءات التحديثية الاساسية اللازمة من أجل تحقيق التقدم . وان الحركة الثورية المتسلطة فقط يمكن ان تقضي على البنية القائمة ، وان تحطم العقبات القوية امام التنمية ، وان تفرض فرضا ذلك التوفير الضروري ، ولو على حساب الضغط على الرفاه العام ضغطا مؤقتا ، حتى تتمكن المجتمعات البدائية من تجميع رأس المال . وصحيح ان ثمة مجازفات في امتناعنا عن التدخل حينما تهددنا مثل هذه الحركات ، ولكنها مجازفات من قبيل عدم الاستقرار المؤقت يجب ان نتمكن من ان نعايشها ، على الاقل حيثما تكون مصالحنا الستراتيجية غير اساسية » .

ان الولايات المتحدة تقدم للبلدان المتخلفة مساعدات وقروضا عسكرية واقتصادية ، كما تقدم خبرات فنية . ولكن هذه المساعدات والقروض ليست الا جزءا صغيرا من الارباح الضخمة التي تجنيها من استثماراتها ومبيعاتها في بلدان العالم الثالث . لقد قررت الامم المتحدة في احد اجتماعاتها ان تخصص البلدان المصنعة الثرية ١٪ من دخلها القومي لمساعدة البلدان المتخلفة . ولكن هذه المساعدات لم تتجاوز ، في احسن احوالها ، ٧ر٠٪ .

ومع ذلك فان هذه المساعدات لها شروط غير معلنة رسميا وان تكن معروفة ومنشورة . **فالمساعدات الاميركية للدول الفقيرة هي مسمار جحا الذي يتيح للرساميل الاميركية ان تتدفق على المنطقة التي تساعدها ، والمفتاح الذي يفتح الابواب على مصاريعها امام البضائع الاميركية المستوردة ، والمتعهدين الاميركيين لتنفيذ المشاريع** . وبذلك تسترد الولايات المتحدة مساعداتها وتزيد من ارباحها وتنشط اقتصادها .

ثم ان هذه المساعدات تتجه ، في معظمها ، اتجاها استهلاكيا يؤدي الى انعاش اقتصاد تضخمي ، وقلما يتجه اتجاها انتاجيا اساسيا . لقد رفضت الولايات المتحدة ، مثلا ، ان تعين مصر في بناء السد العالي . ولكنها لم ترفض ، بعد ذلك ، ان تمدها بالقمح ، او بالخبرة في تربية الدجاج . انها قد تعين في بناء « القاعدة التحتية » الاقتصادية ، فتفتح الطرق وتنشر التعليم وتبني المستشفيات وتزرع الغابات وتنشىء محطات بث اذاعية وتلفزيونية وتحسن المواصلات السلكية واللاسلكية . ولكنها لا تحاول ان تقيم قواعد انتاجية صناعية او تعدينية قوية ، الا اذا دخلت شريكة برساميلها . فهي لم تبن لاي دولة مصنعا للفولاذ او للسيارات او للسماد الا عن طريق

القطاع الخاص ، واحيانا قليلة عن طريق القطاع المشترك . ومعظم المشاريع الانتاجية التي تمدها اميركا بالمساعدة مشاريع من نوع التصنيع الوسيط الذي تمدها هي بالمواد نصف المصنعة ، وتترك للبلاد ان تكمل تصنيعها او تجميعها او تغليفها .

ولكن اهم من ذلك ان الولايات المتحدة « تنتقي » الدول التي « تستحق » المساعدة . و « استحقاق » المساعدة له معيار اساسي واحد هو مبلغ خضوع الدولة للنفوذ الاميركي ، وسماحها بتشغيل واستثمار رؤوس الاموال الاميركية، وطواعيتها لقوانين السوق الدولية الحرة ، وقبولها لقدسيـــة الامتيازات والاتفاقات المجحفة المعقــودة ، ومحاربتها لقــوى اليسار المتطلعـة للتحــرر الاقتصادي ، وفوق ذلك كله أهميتها الستراتيجية في تنفيذ اغراض الامبريالية الاميركية . ولا ريب في أن اسرائيل تأتي ، باستمرار ، على رأس القائمـة . وتأتي معها كوريا الجنوبية وفورموزا وفيتنام الجنوبية (سابقا) . كما تأتي تايلاند وكينيا . وقد تأتي تركيا واليونان بعد ذلك . وتحصل عليها اندونيسيا بعد انقلابها على سوكارنو ، وغانا بعد انقلابها على نكروما .. وتمنع عـن مصر اذا رفضت الانضمام الى حلف بغداد . وعن التشيلي اذا قام فيها حكم يساري . ولا تعطي للارجنتين ، اذا حكمها البيرونيون ، الا بالقطارة .

ان مثل هذه السياسة في المساعدات ، عدا انها تربط البلاد كلها بعجلة السياسة الاميركية وتدخلها في نطاق الامبريالية الاميركية ، تستهدف اقامة اقتصاد استهلاكي تابع بالضرورة لاقتصاد اميركا واقتصاد الغرب . ولا شك في ان مظاهر الانتعاش الاقتصادي ، في ظل مثل هذه السياسة ، تبدو واضحة في البلاد التي تنعم بمثل هذه المساعدات ، بحيث تكون نماذج معروضة لاحسن ما في الحياة المترفة من ترف . ففي هذه البلاد دائما احسن الطرق واضخـم الفنادق واجمل البنايات واغنى المتعهدين وانشط التجار واكثر التلفزيونات والسيارات والملاهي وبقية مظاهر الرفاه . ولا شك في ان زيارة السائح العادي لاحدى هذه الدول اكثر امتاعا من زيارة دولة لا تتلقى هــذه المساعــدات ، ومنشغلة بتقوية قطاعها الانتاجي عن تنمية قطاع الترفيه .

في مثل هذا الجو فان المساعدات ، ولو اعطيت للحكومات ، تجد طريقهـا بطبيعة الحال الى جيوب المتعهدين ، ووكلاء الشركات الاجنبية ، واصحاب النفوذ في الدولة . هؤلاء يشكلون الطبقة المستفيدة مباشرة مــن المساعدات ، وهي نفسها الطبقة السياسية الحاكمة او المساندة للحكم . وهي ، ولو انقسمت الى احزاب وفئات ومجموعات ، تدور في فلك واحد ، فلك المحافظة على هــذا الترابط المتين بين الاقتصاد المحلي والاقتصاد الدولي ، وعدوها الاول هو كـل

حركة يشتم منها رائحة يسار او اتجاه قومي اصيل ·

أما الطبقات الاخرى فالمحاولة ترمي ، في نفس الوقت ، الى اكتسابها وامتصاص نقمتها او اضعاف ثوريتها على الاقل · فعلى رغم ان الاموال تذهب في مثل هذه الانظمة الى جيوب طبقة محدودة ، فهي لا تبقى في تلك الجيوب مخزونة، وانما تنفق وتستثمر لمصلحة اصحابها · صحيح انها تنفق في المشاريع الاكثر ربحا ، لا الافضل اجتماعيا ، ولكنها تنفق على كل حال ، وانفاقها يعني ان فتاتها يرشح الى بعض القطاعات العاملة ، لا سيما في قطاعي البناء والخدمات ، فيرتفع مستوى الاستهلاك عند هذين القطاعين ، وترتفع طموحات الحياة ، من غير ارتفاع حقيقي في الانتاج ، وترتفع الاسعار ، وينشأ التضخم، ويتصور كثير من الناس انهم في بحبوحة وما هم في بحبوحة ، ولكن آمالهم تظل متعلقة بتحسين احوالهم ، ورفع مستوى اجورهم ومعيشتهم ، لتحقيق طموحاتهم الاستهلاكية المتزايدة ·

ومن هنا فان هذا الوضع يحاول ان يربط حتى الكادح المسحوق بالنظام القائم · فالمزارع لا بد ان يبيع انتاجه · ولكنه لا يتمكن من بيع انتاجه الا لاحدى المؤسسات او الشركات التي تفرض عليه السعر والكمية والنوعية · والعامل لا بد ان يعمل ، ولكن العمل المتاح انما هو في احدى المؤسسات او الشركات التي تمتلكها الطبقة المرتبطة ·

ان الامبريالية تطمح الى ان تحقق في البلدان التي تساعدها مجتمعا من هذا النوع يمتص فيه النظام القائم نقمة الطبقات العاملة ، كما فعلت الولايات المتحدة في مجتمعها نفسه ، وتخلق من هذه الطبقات عمالا من عمد النظام بدل ان تكون متناقضة معه · ولكن ثمة فرقا كبيرا بين الولايات المتحدة وبين هذه البلدان ، هو ان الولايات المتحدة ، على رغم استهلاكها الباذخ ، اكبر دولة منتجة في العالم ، واستهلاكها الباذخ نتيجة انتاجها الضخم ·وان المساعدات الاتية من الخارج لا يمكن ان تخلق مجتمعا مكتفيا بذاته تصل بركاته الى معظم طبقات الشعب الا اذا وصلت هذه المساعدات الى مبالغ تعجز الولايات المتحدة نفسها عن تلبيتها ، الا في بلدان قليلة جدا هي تلك التي تعتبرها « استراتيجية »·

وفي الواقع فان الارقام تثبت ان البلدان الفقيرة التي تتلقى المساعدات ، باستثناء تلك التي تتلقى مساعدات ضخمة جدا ، انما يزداد تدني مستواها الاقتصادي المطلق والنسبي ، وان فقر الفقراء فيها ، بشكل اخص ، يزداد تدنيا وحرمانا ، ويكفي هنا ان نشير الى انه حين ازدادت صادرات العالم

الاجمالية من ٥ر٣١٣ بليون دولار عام ١٩٧٠ الى ٨٨٠ بليون عام ١٩٧٥ ، ازداد نصيب الدول الرأسمالية المتقدمة من هذه الصادرات من ٢٢٥ الى ٥٨٠ بليون دولار ، اي بزيادة مقدارها ٣٥٥ بليون دولار ٠وازداد نصيب العالم الثالث في نفس المدة من ٥٥ بليون الى ٢١٥ بليون دولار ٠ اي بزيادة مقدارها ١٦٠ بليون ٠ ولكن اذا نحن حذفنا الزيادة الحاصلة في صادرات الاوبيك والبالغة في نفس المدة ، ١٠٨ بلايين دولار ، والناتجة من زيادة الصادرات من ١٧ بليون الى ١٢٥ بليون دولار ، لظهر ان الزيادة الحقيقية في صادرات العالم الثالث ، من غير دول الاوبك ، وبالاسعار الجارية ، لا تساوي الا ٥٢ بليون دولار ٠ اي انه في الوقت الذي ازدادت فيه صادرات العالم الاجمالية بنسبة ١٨١٪ ، وازدادت فيه صادرات العالم الرأسمالي المصنع ١٥٨٪ ، لم تزد صادرات العالم الثالث ، من غير دول الاوبك الا ١٣٧٪ ٠

ومعنى ذلك ان هذا العالم الثالث ، على رغم المساعدات الاميركية وغيرها من مساعدات الدول المصنعة ، او بسببها ، قد أزداد تدنيا في مستواه المطلق وفي مستواه النسبي ، على رغم ان العالم الرأسمالي قد مر في هذه الفترة بأزمة شديدة لم يعرف مثلها منذ الازمة الكبرى عام ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ٠ وذلك هو ما تحقق من هدف « رفع مستوى الشعوب » ٠

اما ما تحقق من هدف الولايات المتحدة الرابع ، وهو نشر السلام في العالم ، فلا حاجة بنا الى الافاضة فيه ٠ يكفيان نقول انه ، باستثناء انه لم تقم حرب عالمية شاملة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فان جيوش الولايات المتحدة لم تكد تعرف الراحة منذ نهاية الحرب ٠ فقد اشتركت في الحرب الكورية ، وفي حرب جنوب شرق آسيا ، وانزلت جنودها في الدومينيكان وفي لبنان ، وقامت في ظلها اربع حروب عربية اسرائيلية ، وكانت ، من وراء ستار، وراء حروب محلية عديدة ، وثورات وثورات مضادة ٠ ان من غير الممكن ان ندعي ان الولايات المتحدة لا تريد السلام ٠ ولكنها تريد السلام الذي يضمن لها مصالحها الاستغلالية في العالم ، والسلام الذي يحافظ على قوانين السوق الدولية الحرة ، والسلام الذي تسيطر فيه قوى اليمين المترابطة مع الولايات المتحدة ، والسلام الذي يصبح فيه العالم في قبضة يدها ٠

الولايات المتحدة والامبريالية الاميركية :

يقول السناتور وليام فولبرايت « هناك اميركتان ٠ اميركة لنكولن وادلاي ستفنسون ، واميركة ثيدي روزفلت والمتعصبين المحدثين ٠ الاولى كريمة انسانية والثانية انانية شديدة الانانية ٠ الاولى ناقدة لذاتها ، والثانية مبررة

لكل ما تعمل · الاولى عاقلة والثانية حالمة · الاولى لطيفة والثانية مكفهرة · الاولى متسائلة والثانية مبشرة · الاولى معتدلة والثانيـــة ملأى بالهـــوج العاطفي · الاولى حكيمة والثانية متغطرسة باستعمال القوة العظمى » · ثم يقول « والتيار السائد الان هو في اتجاه سياسة اميركية خارجية اكثر صرامة وعدوانية ، اي ، في اتجاه سياسة اقرب الى روح تيودور روزفلت منها الـــى روح لنكولن » ·

ان السناتور فولبرايت ، الذي كان رئيسا للجنة الشؤون الخارجية لمجلس الشيوخ الاميركي الى عهد قريب ،والذي طالما انتقد سياسة الولايات المتحدة الاميركية ، لا يجد نفسه متعاطفا مع هذه السياسة ، ويرى بوضوح تناقض الممارسة السياسية مع المثل العليا الاميركية التي قامت عليها الولايات المتحدة في القرن الاول من استقلالها وثورتها · وهو يمثل ، في الحكم ، تيارا لم يعد له وجود في السلطة التنفيذية وكاد يختفي في السلطة التشريعية ، بعد الحـــرب العالميـــة الثانيـــة ·

انه يلخص كتابه كله « غطرسة القوة » في كلمات ، ويلخص مقترحاته في ثلاث نقاط اساسية « ان نجعل من انفسنا اصدقاء للثورات الاجتماعية ، ان نجعل من مجتمعنا نحن مثالا للسعادة الانسانية ، وان نذهب الى ابعد مـــن التبادل البسيط في بذل الجهد لاحلال السلام بين العوالم المتخاصمة » · ويذكر في تبرير ذلك نقطة في غاية الاهمية حين يقول « ان الامة تقوم بوظيفتهـــا الاساسية ، لا بصفتها (قوة) ، بل بصفتها (مجتمعا) ، او بمعنى اخر مبسط ، ان وظيفة الامة الاساسية ليست نفسها بل شعبها » ·

ولكن السناتور فولبرايت ظاهرة نادرة في الجهاز الحاكم للولايات المتحدة · وهي نادرة لانها ترجع بجذورها وبثقافتها الى ما قبل عهد الامبريالية الجديدة، عهد التحالف المالي ـ الصناعي ـ العسكري ـ الصهيوني ، الذي يدير الولايات المتحدة حقيقة ، والذي هو أكبر قوة مؤثرة في الحكم ، ومؤثرة في الانتخابات · وهو من بقايا ذلك الخط الممتد من جفرسون الى لنكولن الـــى ادلاي ستفنسون المشرف على الانقراض · ولانه جزء من الماضي ، وجزء من الجهاز الحاكم ، وان يكن معارضا له في خطوطه الاساسية ، فهو لا يـــرى ان لب المشكلة في السياسة الامبريالية للولايات المتحدة هو هذا التطلع الى الحاق العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بهـــا ·

ولكن الظاهرة التي يجب ان تسترعي النظر فعلا ، ليست ظاهرة التراث الماضي ، بل ظاهرة المستقبل ، ظاهرة تفكك المجتمع الاميركي من داخلـــه ،

وانقسامه الى يسار ويمين ، الى جيل مستقبل وجيل حاضر ، لا سيما بعد حرب فيتنام ، وبشكل اخص بعد عام ١٩٦٨ ٠

هذه الظاهرة التي عبرت عن نفسها بطرق عديدة ، كحركة التحرر الزنجية المسالمة والعنيفة ، وحركات الحقوق المدنية ، والمظاهرات المعادية للحرب الداعية للسلام الرافضة للتجنيد ، ثم حركات الطلاب الرافضة لسلطات الجامعة المطلقة وحركات سلامة المستهلكين ، وثورات الجيل الجديد ضد الجيل القديم ، والهبية والبيبية ، والتحرر الجنسي ، وحركات تحرر المرأة ، وحركات منع تلوث البيئة، كل هذه الحركات ، على اختلاف اهدافها المباشرة ودوافعها المحركة ، يجمعها شيء مهم اساسي ، هو رفض النظام القائم ، ورفض الحضارة التكنولوجية المادية ، ورفض التسابق على الربح والتسابق على معطيات المجتمع الاستهلاكي، ورفض كل ما ينتج عن ذلك من علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، والانفتاح ، في الدرجة الاولى ، على الانسان ، الانسان الحر ، الجديد ، المنطلق من قيود المجتمع التكنولوجي المادي الاستهلاكي ٠

لقد تساءل الكثيرون ، قبل اعوام قليلة جدا ، عما يمكن ان يحدث في مجتمع كمثل مجتمع الولايات المتحدة ، حين تطغى آثار الثورة التكنولوجية ، ويصل المجتمع الاستهلاكي الى درجة من النمو يكاد الاكتفاء فيه يصبح عاما — على رغم ان حكومة الولايات المتحدة نفسها تعتبر ان ١٧٪ من شعبها فقراء — فلم يجدوا لذلك جوابا ، ولم تكن علائم الثورة الجديدة قد ظهرت بعد ٠ ان كل ما فعله روستوف في كتابه « مراحل النمو الاقتصادي » الصادر عام ١٩٦٠ ، هو انه تساءل ولم يعط جوابا ٠ وحين صدر كتاب هربرت ماركوز « الانسان ذو البعد الواحد » عام ١٩٦٤ ، والذي تنبأ فيه بأن مصير المجتمع التكنولوجي لا بد ان يقود الى « تزايد لا عقلانية المجتمع ككل ، والتبذير والحد من الانتاجية ، والحاجة الى التوسع العدواني ، والتهديد المستمر بالحرب ، والاستغلال المكثف ، وانعدام الانسانية » والذي يئس فيه من قيام الطبقة العاملة بدورها التاريخي النقدي الثوري بعد ان امتصها النظام وجعلها اكثر محافظة من المحافظين ، لم ير ماركوز اصلا في غير طبقة « المنبوذين واللامنتمين ، المستغلين والمضطهدين من العروق والالوان الاخرى، والعاطلين والمعطلين » ٠ فهؤلاء « معارضتهم ثورية وان يكن وعيهم غير ثوري » ٠ وهم « حين يتجمعون ويخرجون الى الشوارع ، دون سلاح ، ودون حماية ، ليطلبوا ادنى حقوقهم المدنية ، يعرفون انهم سوف يواجهون الكلاب ، والحجارة ، والقنابل ، والسجون ، ومعسكرات الاعتقال ، وحتى الموت ٠٠٠ ومجرد كونهم يبدأون برفض ان يلعبوا اللعبة قد يكون الحقيقة التي تنذر ببدء نهاية عصر ، ولا شيء ينبىء بانها ستكون نهاية طيبة ٠

فالقدرات الاقتصادية والتكنيكية للمجتمعات القائمة واسعة الى درجة تسمح بتعديلات وتنازلات للمحرومين ، وقواتها المسلحة مدربة ومهيأة بحيث تستطيع مواجهة الحالات الطارئة . ولكن السيف ، على اي حال ، معلق ،داخل وخارج حدود المجتمعات المتقدمة » .

ولكن لم يكد عام ١٩٦٨ يطل حتى كانت حركات الاحتجاج الصغيرة المتشرذمة المتفرقة قد وصلت حدا عارما يكاد يجرف الجيل الجديد كله معه ، من اية طبقة جاء . ولعل العامل الاساسي الاول الذي حرك هذه الحركات ووحدها في الداخل كان حركة الحقوق المدنية ، والعامل الاساسي الاول في الخارج كان حرب فيتنام التي كلفت الولايات المتحدة ١٥٠ بليون دولار ، و ٤٥ الف قتيل ، ومئات الالوف من المشوهين والجرحى ، وملايين من الشباب الذين كفروا بكل غايات هذا المجتمع واهدافه ووسائله . فلقد استفاق الجيل الجديد على حقيقة انه يخوض حربا اشعلها الشيوخ ، وانه يقدم الضحايا ويدفع الثمن مقابل سلعة لا يريدها هو ، وان الذي يقوم بالقتل والتدمير في فيتنام هو نفس السلطة التي تقوم على القمع في داخل الولايات المتحدة ، وان قضية التحرر داخل المجتمع الاميركي هي نفسها قضية تحرر الشعوب .

يقول هارفي ويلر ، احد كبار مفكري هذه الحركة ، في كتابه « سياسة الثورة » في وصفه لما فعلته الرأسمالية في الولايات المتحدة « لقد ولدت فسادا ليس له نظير . وغرقت في تبذير للموارد من غير وعي . وتركت البلاد في بشاعة لا تكاد تصدق . وحولت اميركا الى قفر ثقافي يتميز بتدنيس كل ما من شأنه ان يشرف الوجود الانساني . انها لم تفشل في القضاء على الفقر فحسب ، بل عجزت حتى عن تأمين مقتضيات الحياة ، او الخدمات الاجتماعية بشكل معقول . وباختصار فالرأسمالية الاميركية انتجت ثروة عظيمة ، ونهبت موارد الامة ، ولم تفعل شيئا آخر » .

وحين يحلل العلاقة بين النظام والامبريالية يقول « ان الامبريالية والطغيان هما في الاساس شيء واحد ، وان كان الظلم الامبريالي يضرب من الخارج ، والظلم الطغياني ينبع من الطبقة العليا في المجتمع نفسه ، والفرق ، من وجهة نظر المظلومين ، فرق ضئيل » . ثم يقول « وحين ظهر ان دولة الرفاه تعتمد على الحرب وعلى الامبريالية في الخارج وعلى الطغيان الثقافي في الداخل ، ظهرت الحاجة الى مرحلة جديدة من مراحل النضال الديموقراطي . لقد وضح، عام ١٩٦٠ ، ان التمايز بين السياسة العالمية والسياسة الداخلية قد اختفى ، وان النضالات المتفرقة التي تخوضها الشعوب المظلومة في سانتو دومنجو – عاصمة الدومينيكان – وهافانا – عاصمة كوبا – وسايغون – عاصمة فيتنام

الجنوبية ـ وسلما و واتس ـ منطقتان في الولايات المتحدة ـ ، قد تداخلت ، وان الامبريالية والطغيان قد تحالفا ، وانه من اجل ان نقهر احدهما يجب ان نقهر الآخــــر » ٠

هذه الاتجاهات ليست اتجاهات قلة ضئيلة في الولايات المتحدة ، وانما هي اتجاهات جيل باكمله احترق بنار الاضطهاد الداخلي وبنار حرب فيتنام ٠ وهو، وان لم يصل الى مواقع الحكم ، فقد كان له اثر كبير في الضغط على الحكم من اجل الانسحاب من فيتنام ، ومن أجل المصالحة مع الصين ، ومن اجل عدم التدخل في انجولا ، ومن اجل تحرير الزنوج والمضطهدين في اميركا نفسهـا٠ ولقد ظهر اثر هذا الجيل واضحا حين فرض نفسه على الحزب الديمقراطي ، وفرض مرشحه ، السناتور ماك غوفرن ، على الحزب ، مرشحـــا لرئاسة الجمهورية ضد نيكسون ٠ وعلى رغم ان هذا المرشح سقط ، لا سيمـــا حين حاربته نقابات العمال الاميركية ، وهي قوة محافظة اشد المحافظة استوعبها النظام أتم استيعاب ، فان هذا الاتجاه قوي وملموس ومعبر عن نفسه ، وان لم يعبر عن اكثرية الاميركيين بعد ٠

ان هذا الاتجاه يشعر بأن الروح الامبريالية خطر على الشعب الاميركي نفسه مثلما هي خطر على شعوب العالم ٠ وان الخلاص من كليهمـا يستدعي مزيدا من النضال في الداخل ومساندة لنضالات الشعوب في الخــــارج ٠ وارتفاع مستوى هذا النضال ، داخل الولايات المتحدة ، قد يرتفع نتيجة اسباب داخلية محض ، ولكنه يزداد ارتفاعا كلما ازداد نضـــال الشعوب في الخارج ضد الامبريالية ، وازدادت على الشعب الاميركي تكاليف مكافحة هذا النضال٠

يقول البير كامو « ان ما يميز عصرنا ٠٠٠ هو الطريقة التي اقتحمت بها الجماهير وأحوالها التعيسة المشاعر المعاصرة ٠ نحن نعلم الان انها موجودة، بينما كنا نميل دائما الى نسيانها ٠ واذا كنا اليوم اكثر وعيا فليس ذلـــك لان ارستقراطيينا ٠٠٠ قد اصبحوا افضل ـ لا ، لا تخشى شيئا من ذلك ـ وانمـــا لان الجماهير أصبحت أقوى وهي تمنع الناس من أن تنساها »٠

[٤]

الحركة القومية الاشتراكية

مولد الحركة :

الحركة القومية الاشتراكية هي المرحلة الرابعة من مراحل تطور الحركة القومية ونضوجها · فبعد أن مرت هذه الحركة بمرحلة رد الفعل القطري ، ثم مرحلة الاصلاح الديني ، فمرحلة الوطنية البورجوازية الليبرالية ، كان حتما ان تنتهي الى مرحلة القومية الاشتراكية ، القومية التقدمية ذات المضمون الاجتماعي ، القومية التي تحمل رسالتها الى كل مواطن في الامة وكل انسان في العالم ، القومية التي تفتح طاقات كل انسان فيها ، وتحقق ذاته ، وتنفي غربته·

هذه المرحلة لم تولد كرد فعل على تحدي الامبريالية الاميركية · ولكن هذا التحدي كان له اثر كبير في انضاج المرحلة وبلورتها ووضعها في سمتها القومي الاجتماعي الطبقي التاريخي السليم ، من حيث أنه كان الخصم الاساسي في تطبيق أهداف هذه المرحلة ، والعائق الاساسي الذي لا بد ان تناضل ضده من أجل ان تكون ·

ان ولادة هذه المرحلة ، على اختلاف تواريخها في بلدان العالم الثالث ، قد انتظمها في معظم هذه البلدان قانون عام · فقد ولدت الحركة القومية الاشتراكية مع حصول هذه البلدان على استقلالها السياسي ، او تبعت هذا الاستقلال بفترة قصيرة ، الا حيثما تحقق الاستقلال متأخرا جدا ـ أي بعد نضوج الحركة القومية الاشتراكية في كثير من بلدان العالم الثالث وانتصارها وتحولها الى قدوة ـ ، وحيثما تحقق بعد صراع دموي عنيف طويل ، انفصلت فيه مواقف السادة عن مواقف الثورة ، ووضحت فيه المواقف الطبقية اتم الوضوح ، كما في الجزائر وموزمبيق وانجولا ، حيث التحم الصراع القومي نفسه مع الصراع الطبقي ، وانتج نضالا قوميا ونضالا طبقيا اشتراكيا ملتحمين التحاما كاملا ·

ففي الصين مثلا ، حيث يمكن ان نقول ان هذه الحركة ولدت لاول مرة في العالم الثالث ، كانت ولادتها بعد الحرب العالمية الاولى ، وبعد ان نالت الصين

بعض حقوقها ، واسترجعت بعض الامتيازات المسلوبة ، وقامت حكومة وطنية تسيطر او تكاد على ارض الصين كلها ، على يد الحركة الوطنية ، بقيادة صن يات سن ، التي أطاحت بالحكم الامبراطوري عام ١٩١٢ وأزالت تلك الامبراطورية المنشوكية الفاسدة المهترئة الرجعية ، وحاولت ان تقيم في مكانها حكومة مركزية حديثة ، ولكنها لم تنجح في ذلك الا بعد وفاة صن يات سن وحلول شان كاي شيك محله ، واكتساحه شنغهاي عام ١٩٢٧ ، وتخليصه للصين من معظم القيود التي كانت ترزح تحتها ٠ في هذه الفترة ، التي عمت فيها الفوضى أرض الصين ، وتقاسمها حكام المقاطعات ، وظهر العجز الحقيقي للاستقلال السياسي عن اطلاق الذات الصينية المحبوسة ، والطاقات الصينية المكبوتة ، ولدت الحركة القومية الاشتراكية ، او حركة التحرر القومي الاشتراكي ، وأخذت سمتها القومي الاشتراكي السليم فقط بعد ان تولى قيادتها ماوتسي تونغ وحول الثورة الطبقية المحض الى ثورة شعبية تحررية قومية صينية طبقية ٠

كذلك لم تولد الحركات القومية الاشتراكية في الهند ، بشكل متميز عن النضال الوطني الذي قاده غاندي ، الا بعد الاستقلال ٠ ولم يولد حزب البعث في القطر السوري وينتشر الى بقية انحاء الوطن العربي الا بعد الاستقلال ٠ وولدت حركة التحرر القومي الاشتراكي في فيتنام بعد انسحاب اليابان من فيتنام واعلان الاستقلال ٠

تهاوي الوطنية البورجوازية :

ذلك ان الحركات الشعبية العارمة التي حققت الاستقلال السياسي ، والتي قادتها في معظم الاحيان قيادات اقطاعية او بورجوازية او مثقفة ، خاضت نضالها في وقت كان الاستعمار فيه الخصم الاول للشعب ولآماله ولحريته ٠ فكان التحرر من الاستعمار ، وبالتالي تحقيق الاستقلال ، الهم الاول للنضال والمناضلين ٠ وعلى رغم ان هذا النضال قد كشف وعي الشعب على ما يعيش في ظله من فقر ومرض وجهل وكبت وغربة انسانية ، وولد في نفسه آمالا طويلة عريضة في تغيير هذا الشقاء كله والخلاص منه ، فقد ربط بين تحقيق آماله هذه وبين تحقيق الاستقلال ربطا عقلانيا حين عزا شقاءه هذا الى وجود الاستعمار ، وتوهم ، بذلك ، ان حل هذا يكون ، اوتوماتيكيا وحتميا ، بحل المشكلة الكبرى ، ومواجهة التناقض الاكبر ٠

من اجل ذلك لم يساور الجماهير الشعبية شك في قياداتها ، وسارت وراءها ، مخلصة لها كل الاخلاص ، مرتبطة بها اشد الارتباط ، مسلمة

قيادها اليها كل التسليم · ورمت ظهريا بكل ما كان يطرحه بعض المثقفين من افكار عن أولوية الصراع الطبقي وتقدمه على الصراع القومي ضد الاستعمار · وكانت بذلك منسجمة مع نفسها ومع ظروفها التاريخية وحكم الضرورة تمام الانسجام · ولكنها ، بالمقابل ، استقبلت بانفتاح ورجاء كبير تلك الآراء التي كانت ترى بذور الصراع الطبقي متضمنة في الصراع القومي نفسه ، والتي جعلت برنامج الاصلاح الاجتماعي جزءا من برنامجها القومي بعد تحقيق الاستقلال ، على أن لا تكون هذه الآراء والاتجاهات خارجة عن الصراع القومي ، او معارضة له ، او عقبة في سبيله · بذلك ، رضيت الجماهير الشعبية بتأجيل قضاياها الملحة الى ما بعد الاستقلال · رضيت بالتضحية ، ولكنها لم تكن تعرف انها ستكون هي الضحية · قبلت بمواجهة التحدي الخارجي ، مغضية ، مؤقتا ، عن كل تحد داخلي ·

ولكن الجماهير الشعبية المسحوقة سرعان ما اكتشفت التناقض بين ما سمي بالاستقلال وبين ما كانت هي تطمح اليه من الاستقلال · وسرعان ما ولدت فجوة عميقة لا يمكن ردمها بين الحكام وبين المحكومين ·

فحين تولت قيادات الحركة الوطنية الحكم في البلاد المستقلة حديثا، كانت تستند الى تأييد ودعم من الشعب يكاد يكون اجماعيا · وكان الشعب يتطلع الى ما ستفعله هذه القيادات له ، في ازالة ما يعاني من مشاكل ، وفي بناء مجتمع جديد وعدته هذه القيادات به ، بلهفة وأمل كبيرين · ولعل بعض هذه القيادات على الاقل ، لم تخل من نظرة اجتماعية ، ومن توقد الى حل مشاكل الشعب ، ومن شعور بحاجته الى اصلاح للأوضاع سريع ·

ولكن الوضع كله كان يكتنفه تناقض كبير بين الشروط التي لا بد من تحققها في بلد متخلف من اجل ان ينطلق في طريق البناء ، ومن اجل ان يتمكن من اقامة مجتمع جديد يلبي تطلعات الشعب وطموحاته ، ومن الشروط المتوفرة للواقع القائم التي لا يمكن ان تكون قادرة على تحقيق اي شيء جدي على نطاق شعبي واسع · فمن جهة ، كانت ثمة طبيعة الحكام وانتماءاتهم الطبقية وثقافتهم المستندة الى أصول بورجوازية ، وطبيعة اولئك الذين التفوا حول الحكام ، بعد الاستقلال ، من رجال مال طموحين واصحاب مصالح اقتصادية متطلعة الى النمو والحلول محل رجال الاعمال الاجانب الذين كانوا ايام الاستعمار، ومحل شركاتهم ووكالاتهم وتجاراتهم · ومن جهة اخرى كانت ثمة طبيعة المبادىء والشعارات التي تميزت بها المرحلة الوطنية البورجوازية ، والتي طرحت أيام النضال ضد الاستعمار ، والتي قامت في الاساس على المطالبة بالحرية الديموقراطية وبالدستور وبالتمثيل الشعبي ، والمطالبة ببناء مجتمع

اقتصادي «حر» وطني ،والمطالبة باقامة مجتمع «حديث» على الاسس التي تقوم عليها المجتمعات الغربية ٠

ولعل الحكام لم يروا أي تناقض بين ما طرحوه ايام النضال من شعارات وما حاولوا ان يطبقوه حين توليهم الحكم من سياسات ؛ فلقد طرحوا انهم يناضلون من اجل الاستقلال ، وقد حققوه بشكله السياسي «الممكن» ، وانضموا الى هيئة الامم المتحدة ٠ وطرحوا المطالبة بديموقراطية برلمانية ، ولم يجدوا صعوبة في تحقيقها ، فهم قد نالوا ثقة الشعب وتأييده لهم من قبل الوصول الى الحكم ، وما كان عليهم اكثر من ان يضعوا لهذه الثقة الممنوحة مقدما مؤسسات تعبر قانونيا عن توفرها ٠ وطرحوا اقتصادا وطنيا حرا يحاربون بـه الفقر والجهل والمرض ، وحققوا ذلك بتشجيع البورجوازيين الجدد على فتح البنوك ، وانشاء الصناعات ، والحلول في الشركات والوكالات محل الاجانب ،وتشجيع المصنوعات الوطنية ، وحمايتها من المنافسة الاجنبية ٠

ولكن قناعة الحكام وحدها لم تكن كافية لاقتناع جماهير الشعب الكادحة التي لم يصبها من هذا الاستقلال المرجو ، ومن الحكـم الوطني المأمول ، أي تحسن حقيقي ملموس في شروط حياتها اليومية ٠ ذلك ان عقبات اساسية موضوعية كانت تقف بين هذه السياسات وبين ترجمتها لتغيير اساسي في حياة الشعب ، عقبات لا يمكن تجاوزها الا بتجاوز السياسات كلها ، والبناء من جديد بمعطيات جديدة كل الجدة ، مغايرة كل المغايرة للمعطيات المطروحة ٠

أولى هذه العقبات هي انه كان من المستحيل البدء بحركة انطلاق اساسية أصيلة مع انعدام رأس المال وتراكم رأس المال ٠ وان أي تراكم حقيقي لرأس المال يستعمله الرأسماليون الجدد المنطلقون في ميادين التجـارة والصناعـة والخدمات لا بد ان يأتي اما من مصادر خارجية ، فيزيـد من تبعية السوق المحلية لاسواق العالم الامبريالية ، واما من مصادر داخلية ، فيسرق اللقمة من أفواه الشعب نفسه ٠ وبالتالي فان « المساواة في الفقر » التي كانت تعم البلاد زمن الاستعمار ، حل محلها تفاوت طبقي ازداد حدة كلما تقدم الرأسماليون في مشاريعهم ، وكلما ازدادت شركاتهم وصناعاتهم وتجاراتهم وبناؤهم وخدماتهم٠ فكان لا بد ان ترتفع مستويات تكاليف المعيشة والاسعار وان تزداد حاجـات الشعب الاستهلاكية كلما تقدمت الطبقة « ذات المصالح الاقتصادية » في ارتقاء سلم الثروة والغنى ، وكان لا بد ، لذلـك ، من ان ينخفض مستوى حيـاة الكادحين في الشعب انخفاضا مطلقا ونسبيا ، حتى عن المستوى الذي كان عليه ايام الاستعمار ٠

ولقد دافعت هذه الانظمة عن سياستها بان اشارت الى ما تفتح من طرق،

وما تحسن من مواصلات ، وما تبني من موانىء ، وما تشجـــع من صناعات وطنية · كما أشارت الى ما تظهره الارقام الاقتصادية من حيث ارتفاع الدخل القومي العام ، ومن حيث تحسن أرقام التجارة الخارجية ، ومن حيث الزيادة الحاصلة في عدد المصانع والمتاجر والفنادق والبنوك والشركات ولكنها لم تكن تشير الى ان فائدة هذا كله انما تذهب الى جيوب المتموليـــن والاقتصاديين ومسؤولي الدولة الكبار ، وان فروقا معيشية هائلة بدأت تولد بين هؤلاء وبين الكادحين من ابناء الشعب · هؤلاء الكادحون لم يشعروا بأن وضعهـــم قد تحسن ، وانما شعروا بان فقرهم ازداد فقراً ، وبؤسهـم ازداد بؤســا ، وان الريف لم يعد يتسع لهم ، وأن المدن انما اسكنتهم في بيوت الصفيح او القش التي نبتت من حول المدن لتخدم القلة القليلة ، ولكن المتزايدة ، من مترفي هـذه المـدن ·

وثانية هذه العقبات هي ان هذا التطور البورجوازي الـــذي قصد منه أن يخلق مجتمعا اقتصاديا متقدما على نمط التجربة الغربية الرأسمالية ، كانت تنقصه الظروف الموضوعية التي أحاطت بالتجربة الغربية وأدت الى نجاحها ، ولم يكن من الممكن اعادة هذه التجربة في مجتمـــع من مجتمعـــات العـالم الثالث ، لا سيما بعد خوضها تجربة نضالية ضخمة ضد الاستعمار ·

فالظلم الفاحش الذي عاش فيه العمال الاوروبيون منذ اواخـــر القرن الثامن عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، لم يعد من الممكن اعادة تطبيقـه في النصف الثاني من القرن العشرين ، لا في البلدان المتقدمة ولا في البلدان المتخلفة ، لا سيما بعد انتشار الصحافة والاذاعة والتلفزة والمواصـــلات في انحاء العالم ، وبعد تفتح وعي الناس وادراكهم واطلاعهم علـــى ما يجري في الغرب الرأسمالي وفي الشرق الاشتراكي · واذا كان الغرب الرأسمالي المتقدم يجد صعوبة في المحافظة على المعادلة التي توازن بيـن مقتضيـــات النمو الاقتصادي المتواصل وطلبات العمال المتزايدة ، فأولى بالبلدان المتخلفـة ان لا تجد هذه المعادلة على الاطلاق ·

من جهة اخرى ، فان الاستعمار الذي كان السند الاساسـي للغرب في تقدمه ، فأمده برأس المال ، وبالمادة الخام ، وبالسوق المستهلكة ، وبامكانات الاستثمار ، وبالمهجر لسكانه الفائضين ، لم يعد متاحا اليوم بعد ان تقلص ظل الاستعمار من العالم ، ولم يعد الاستغلال المباح في المستعمرات ممكنا الا في ارض البلاد نفسها ومن أفواه الكادحين انفسهم ·

ولكن هذا الاستغلال نفسه ، المفروض في عملية بناء المجتمع الراسمالي

من أجل ايجاد تراكم مبدئي لرأس المال ، يصبح تطبيقه مستحيلا في شعوب خاضت عمليات نضال شاقة وطويلة ضد الاستعمار ، وتولد عندها بذلك وعي جديد على حقوقها وطموحاتها لا يمكن ان يستسلم وان يستخذي امام ضياع هذه الحقوق وسرقتها من قبل ، لا اولئك الذين تزعموا نضاله فحسب ، بل من قبل تلك الشريحة العليا من المجتمع التي كانت هي نفسها متعاونة مع الاستعمار ممالئة له حين كان الاستعمار يتصرف بشؤون البلاد . فاذا كان الوعي الاجتماعي قد تكون في الغرب نتيجة تغير معطيات الحياة الاقتصادية، فالوعي الاجتماعي في المستعمرات قد سبق هذه التغيرات لانه ولد من خلال النضال السياسي .

لذلك كله كان لا بد لهذه التجربة ان تفشل فشلا ذريعا في كسب قلوب الجماهير ، او في المحافظة على ما كانت قد كسبته منها ايام النضال . وكان لا بد لخيبة الامل ان تصيب الجماهير في هذا « الاستقلال » الذي نالته ، ولم يغير نيلها اياه شيئا في بؤسها وشقائها وتخلفها واستعبادها وغربتها . وكان لا بد لخيبة الامل هذه من أن تدفع الى اعادة النظر في معطيات كان يظن انه قد اصبح مفروغا منها ، وان تفتح الاعين على أن الاستقلال نفسه لم يحمل في حقيقته المعاني التي حملته اياها زمر القيادة التقليدية ، وان هذا الاستقلال الذي فشل في رفع مستوى الشعب قد فشل كذلك في انقاذ البلاد من التبعية للدول الامبريالية . واذا بالشعوب « تكتشف » ان بقاء القواعد الاجنبية التي كانت قد سمحت بها ثمنا « بسيطا » لقاء حصولها على الاستقلال ، كانت في حقيقتها نقاط ارتكاز وانطلاق وتهديد مستمر للقوى الاستعمارية . وان « المعاهدات الثنائية » بينها وبين الاستعمار كانت قيودا على سلطاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تلغي كل معنى من معاني الاستقلال. وان الاستعمار الاقتصادي الذي عانت منه ايام الاحتلال ما زال قائما بكليته وبكل تفاصيله وبكل ضغوطه .

التحديات الداخلية :

هذا التناقض بين ما سمي بالاستقلال وبين ما كانت الشعوب تطمح اليه من الاستقلال ، كشف الغطاء عن « التحديات الداخلية » وركز عليها تركيزا لم يكن متاحا حين انشغل الشعب انشغالا كليا بمجابهة التحدي الخارجي .

وطبيعي ان الوعي على وجود التحديات الداخلية ليس جديدا في الحركة القومية . فمنذ ظهر ضعف شعوب اسيا وافريقيا امام الهجمة الاوروبية الغازية ، كان لا بد من اعادة النظر في تركيب المجتمع الشرقي

ومعطياته ومسلماته وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية ، وكان لا بد من نقل هذا المجتمع الى العصر الحديث ، ومحاربة التخلف الموروث ، والتخلف الذي خلقه وخلفه الاستعمار من ورائه ، بل ان عملية اعادة النظر هذه كانت جارية بالفعل ، وتتقدم حثيثا كل يوم ·

ولكنها بعد الاستقلال فقط اخذت شكل المعركة الساخنة ، وبلغت اوجها، وذهبت الى الجذور، الى ابعد مما ذهبت اليه كل المعارك الاصلاحية السابقة· وأصبح التخلف ، بمظاهره الموروثة والمستجدة ، تحديا عنيفا ، وبلغ هذا التحدي أوجه حين تدخلت الامبريالية الاميركية في المعركة ، تساند قوى الرجعة والتخلف والاستغلال ، وتعطيها مبررات وتمنحها قدرات لم تكن تملكها قبل ذلك ·

وازاء خيبة الامل التي أصيبت بها الجماهير ، وازاء الضياع الذي تركها فيه تناقض الطموح والواقع ، كان لا بد ان تتخذ مظاهر التخلف اشكالا حادة، وتطرح نفسها بشكل مباشر وقوي ، بشكل تحد ·

١ ـ التحدي الاقتصادي :

ان اول هذه التحديات الداخلية المهمة واكثرها الحاحا كان تحدي الفقر، أي تحدي التخلف الاقتصادي ولم يكن هذا التخلف ليعني وجود فقر فحسب ، وانما كان يعني تخلف الاساليب الانتاجية ، وتخلف الانتاجية نفسها ، وتخلف العلاقات الانتاجية ، وتناقض هذه العلاقات مع مقتضيات اساليب الانتاج الحديثة ، وتناقض النظام الاقتصادي كله مع تطلعات شعب حارب الاستعمار وخاض نضاله طويلا ضده ، وتكون لديه وعي على حقوقه وطموحاته وآماله · وزاد في بلورة هذه الوعي التغيير الطبقي الناشيء عما أحدثه التغيير الانتاجي ، نوعا واسلوبا ، في حياة المجتمع الذي فقد موازينه القديمة ولم يجد ، بعد، موازينه الجديدة ·

فالاستعمار الاحتلالي ، حين رحل من البلاد ، خلف وراءه مجتمعا ، لا هو بالمجتمع القديم القائم على انتاج الكفاية ، والذي لا تمثل فيه تجارة التصدير والاستيراد الا جانبا صغيرا من جوانب نشاطه الاقتصادي ، ولا هو بالمجتمع الحديث القائم على الالة والمصنع والزراعة المكننة والانتاج المكثف · ترك مجتمعا متخلفا في معظم جوانبه اشد التخلف ، وترك « جزرا » متقدمة ، صناعية او تعدينية او زراعية حديثة او تجارية او مالية ، حديثة الادارة والاسلوب ، ولكن تابعة للاقتصاد الغربي ، مرتبطة بخدمته ، ممولة له بالمواد

الخام ، مستوردة منه منتوجاته المصنعة ٠ وهي ، فوق ذلك ، محصورة في عدد محدود من شريحة محدودة من السكان ، لا تتجاوزها الى الجماهير الواسعة٠

فقد المجتمع القديم أسس « الاطمئنان الاقتصادي » التي كان يعيش عليها قبل قدوم الاستعمار ، حين كانت القرية اساس المجتمع ٠ وكانت فقيرة ، ولكنها كانت تزرع ما تأكل وتنسج ما تلبس وتبني ما تأوي اليه ٠ كان ثمة نظام للتملك جماعي ، وكانت الارض « مشاعا » تقسم بين الناس دوريا ليزرعوها ويأكلوا منها ٠ كان ثمة ملاك او رؤساء قرى او زعماء عشائر وعائلات ٠ ولكن حاجات هؤلاء لم تكن لتزيد كثيرا عن حاجات فلاحيهم وتابعيهم ٠ وكان ثمة استقلال ٠ ولكن كان ثمة نوع من المسؤولية المشتركة المتبادلة بين السيد والمسود ، مسؤولية يدعمها النظام الاجتماعي القائم ، كما تدعمها تعاليم الدين والتقاليد والاخلاق والقرابة ٠

كل هذا هدمه الاستعمار حين وجه الانتاج توجيها تصديريا ، وحين ادخل نظم الادارة الحديثة في بعض القطاعات التي تهمه ، وحين ادخل نظام تسجيل الاراضي الحديث ، وأحل الملكية الفردية محل الملكية الجماعية ، وافقد الفلاحين حقهم في ارضهم وفي انتاجهم ، وحين طبع تصرف السيد وسلوكه بطابع الربح الفردي المجزي ليحل محل علاقة المسؤولية المشتركة ، وحين فتح امامه ابواب طموحات في الاستهلاك وفي الرخاء لم تكن تخطر له ببال ، وحين هدم ، مع النظام الاقتصادي والاجتماعي القائم ، القيم والعلاقات الخلقية والدينية والسلوكية المرتبطة به ، دون ان يقيم مقامها ما يحل محلها ٠

هذا التحدي الاقتصادي ظن الكثيرون ان من السهل مواجهته ، وان هذه المواجهة لا تقتضي اكثر من « تشجيع » الصناعات المحلية ، و « حمايتها » ، وتشجيع « المبادرة » الفردية ، وتنويع مصادر الزراعة ، ونشر التعليم ٠ وعمق هذا الظن واقع تجربة الحرب العالمية الثانية التي دفعت الدول المتحاربة الى الانفاق في بعض المستعمرات ، والى تشجيع الصناعات والزراعات التي تحتاج اليها الحرب ، والتي خلقت انعاشا تضخميا أوهم الكثيرين ان مجرد الاستمرار فيه وعلى دربه كفيل بحل مشاكل البلاد حلا نهائيا ٠

ولكن الاستقلال بدأ يظهر ان هذا الانعاش الذي اصاب طبقة محدودة ، سميت في ذلك الوقت بأغنياء الحرب تمييزا لها عن اصحاب الغنى الموروث ، قد اصاب جماهير الناس بالفقر وازدياد الحاجة حين ادى الى ارتفاع اسعار حاجياتهم وارتفاع مطاليب حياتهم بشكل يفوق اي ارتفاع في مداخيلهم ٠ وانه ، في حقيقته ، بدل ان ينعش اقتصاد البلاد قد انعش اقتصاد اقلية ضئيلة من

الناس على حساب اكثرية الناس الكادحين ٠

بالاضافة الى ذلك فان هذا الانعاش لم يكن يمت الى التنمية كما هي مطلوبة في بلد متخلف ، ولا الى البناء المنتج ، ولا الى التحرر الاقتصادي بصلة ٠ فرأس المال القليل المتراكم القابل للاستثمار انما يستثمر فيما يجلب الربح لصاحبه ، لا فيما تستدعيه ضرورات التنمية العقلانية ، وكثير منه يذهب في تسديد حاجات استهلاك مستبدعة جديدة تبذر رأس المال بدل ان تجمعه ٠ وحين لا تتوفر رؤوس الاموال التي يحتاجها الانعاش الاقتصادي في الداخل ، وهي فيما تتوفر في بلد متخلف ، فان عليها ان تأتي من الخارج، اما في شكل شركات مستثمرة اجنبية ، او في شكل قروض مرتفعة الفائدة، او في شكل مساعدات لها ثمنها السياسي ، قواعد عسكرية ،او تحالفات ، او معاهدات غير متكافئة ، او ما شاكل ذلك من الارتباطات ٠

وتفشل كل السياسات الرامية الى تغيير البنية الاقتصادية الاستعمارية على رغم الاستقلال ٠ فتغيير هذه البنية يحتاج الى رأسمال ونقد اجنبي ٠ وسبيل هذا النقد ، من الداخل ، هو زيادة الانتاج المعد للتصدير ، لا التقليل منه ولا الكف عن انتاجه ٠ ولكن زيادة الانتاج ، كما عرفت غانا فيما فعلت بالكاكاو ، انما تؤدي الى خفض اسعاره العالمية ٠ لان البلاد المصدرة ليست هي التي تتحكم في اسعار منتجاتها بل العواصم التجارية للسوق العالمية ٠ والواقع ان اسعار مادة ما لا ترتفع الا حين ينخفض انتاجها ٠ وبالتالي فالبلاد تدور في حلقة مفرغة ٠ والكارثة تحل بها ان زادت انتاجها ، وتحل بها ان قللت من انتاجها ٠

من هنا ، فان التحدي الداخلي الاقتصادي الذي لا يرد عليه الا بزيادة كمية الانتاج ، وتنويع الانتاج ، والاتجاه نحو التصنيع ، ونحو الزراعة المكثفة، وزيادة معدل الانتاجية ، واصلاح العلاقات الانتاجية ، وتراكم رأس المال ، ورفع مستوى المعيشة ، وتقديم الخدمات الاجتماعية ، وتشغيل اليد العاملة المعطلة كليا او جزئيا ، هذا التحدي لم يكن له من جواب في ظل النظام الاقتصادي الرأسمالي ، الا اذا كانت زيادة الاعتماد على رأس المال الاجنبي الوارد من الدول الامبريالية ذاتها التي ناضلت ضد استقلالها الشعوب يعتبر جوابا ، او اذا كان التضييق المتزايد على الشعب نفسه لمصلحة تراكم رأس المال في أيد قليلة يعتبر جوابا ٠

لذلك ، كان على الشعب أن يجد ردا على هذا التحدي مختلفا جذريا عن الجواب الذي وجدته الحكومات البورجوازية ٠ وكان لهذا التناقض الكبير بين

ما هو قائم وبين ما هو مطلوب اثر اساسي في بناء دوافع الحركة القومية الاشتراكية ٠

٢ ـ التحدي الاجتماعي :

وكان التحدي الاجتماعي هو ثاني التحديات الداخلية ٠ فجميع هذه الحضارات الشرقية القديمة الموروثة اهتزت من جذورها عندما واجهها الاستعمار بزخمه الجديد المتنامي المعتمد على الكسب المادي اعتمادا كليا ، والمزور عن القيم الانسانية ازورارا كاملا ٠ والشعوب التي كانت مستكينة الى قدرها ، مطمئنة الى اوضاعها ، قانعة بذلك التوازن الاجتماعي الذي انتهت اليه حضاراتها ، اقتلعت من جذورها الاجتماعية ٠ لم تعد مطمئنة ، ولا قادرة على الاطمئنان ، الى الهياكل العظمية التي بقيت لها من حضاراتها السابقة ، بعد ان فقدت هذه الحضارات قوة الدفع والابداع فيها ، ولم تخلف سوى الشكل الخالي من المضمون ، والعظم الخالي من الروح ، والطقس الخالي من الرسالة ٠ ولم تكن هذه جميعها ، بعد أن تحجرت وتكلست ، قادرة على أن تواجه هذا التحدي الخطير الطارىء عليها من الغرب ٠

وسواء شاءت شعوب الشرق او لم تشأ فقد كان عليها ان تعيش التغييرات الجديدة التي فرضها الاستعمار على المجتمع ٠ وكان لا بد للتغييرات الاقتصادية في الانتاج أن يرافقها تغييرات في العلاقات الاجتماعية ، وفي القيم الثقافية والخلقية السائدة ٠

فالعلم القديم لم يعد يفي بمقتضيات الحياة الجديدة ومتطلباتها ٠ والعلاقات العائلية والقبلية والطبقية والطائفية القديمة بدأت تنهار فعليا امام علاقات الانتاج الجديدة وما رافقها من تغييرات قانونية وادارية ٠

وعندما خاضت جماهير الشعب النضال تلو النضال ، ودخلت المعركة تلو المعركة ، فان تجربة النضال ذاتها ، وما تكون حولها من وعي نضالي جديد ، نفت الاستكانة والاطمئنان القديمين ، وحررت الانسان من القيود المتخلفة التي كانت تفرض عليه القالب الذي يتحرك من ضمنه ، وردت اليه انسانيته التي كان قد فقدها مرتين ، مرة في عصور الانحطاط ، ومرة في عهود الاستعمار ، واشعرته بمسؤوليته وقيمته وحريته كما لم يشعر بها منذ مئات السنين ، ومنحته معايير جديدة لتقييم الناس والاشياء والعلاقات غير تلك التي تعارف عليها اباؤه واجداده ، وغير تلك التي حاول فرضها المستغلون الاجانب ، فاصبح العطاء النضالي معيار القيم الجديدة ، وحل محل معايير النسب وشرف المهنة او الطبقة او الوجاهات او الثروة ٠

ولكن حينما تحقق الاستقلال ، ووصلت طبقة الزعماء والوجهاء الى الحكم ، فسرعان ما اكتشف الشعب ضياعه التام ازاء هذا الوضع الجديد ٠ فهو لم يرجع الى مجتمعه القديم ، وما كان له ان يرجع اليه ، وهو رأى قيمه النضالية الجديدة التي وعد النفس بها ومارسها من خلال النضال تفلت من بين يديه ٠ وانه يعيش مجتمعا هجينا لا هو بالمجتمع القديم ، ولا بالمجتمع الصناعي الحديث ، ولا بالمجتمع النضالي ، وانما هو مجتمع تستعمل فيه الطبقة الحاكمة الجديدة المعطيات القديمة ، حين ترى في العودة اليها مصلحة لها ، والمعطيات الجديدة ، حين ترى في العودة اليها مصلحة لها ٠ فشعارات الحكام شعارات مستقاة ومستمدة من الحياة الاوروبية الحديثة ، او من التجربة النضالية ، وواقعهم في الحكم يستند الى علاقات اجتماعية عائلية وقبلية وطائفية وطبقية قديمة ، هم مذعورون من تغييرها ٠

طرحوا شعار الاستقلال ، وكان يعني اعطاء الحكام الجدد حق استقلال جماهيرهم الذي كان يمارسه المستعمرون ٠ وطرحوا شعار وحدة الامة ، او ما سمي احيانا بوحدة الجبهة الداخلية ،وعنوا به كبت كل صوت تقدمي يدعو الى تغيير اساسي في مجتمع الامة ٠ وطرحوا شعار الديموقراطية من أجل ايصال الزعماء التقليديين والطبقة البورجوازية الجديدة الى مناصب الحكم ٠

وفي الوقت الذي كان الشعب فيه يتطلع الى حياة جديدة متصلة القيم بالانسان الجديد الواعي الباني المناضل ، متصلة بمعاني الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص والتعادل بين الاخذ والعطاء ، واجه الجهود الجبارة للحفاظ على القيم التخلفية التي تضمن للطبقة القديمة الجديدة الحاكمة كل امتيازاتها ووجاهاتها ، ولتغطيتها بشعارات تقدمية خالية من اي محتوى ٠

من هنا كان التحدي الاجتماعي ، ذلك التحدي الناشىء عن التناقض بين العلاقات الاجتماعية القائمة فعليا والممارسة فعليا ، وبين العلاقات الاجتماعية المرجوة ، المنسجمة مع تطلعات الجماهير ، ومع مستلزمات بناء مستقبل امة ، كان دافعا اساسيا من دوافع ولادة الحركة القومية الاشتراكية ٠

٣ ـ التحدي القومي :

على ان اهم تحد داخلي حقيقي واجه شعوب العالم الثالث بعد الاستقلال كان ، مرة اخرى ، تحدي الهوية ، تحدي تحديد الذات ، الاجابة على سؤال « من انا » ٠ واصبح سؤال « من انا » يتضمن بالضرورة محتوى الهوية ، سؤال « ماذا اريد » ٠

قبل الاستقلال حددت الشعوب هويتها الى حد كبير · وحددتها بحكم منطق التاريخ ، لا بحكم المنطق الاوسطي · لقد دارت المناقشات في الوطن العربي حول تحديد « من نحن » ، أعرب نحن ، ام مصريون وسوريون ويمنيون وجزائريون ، ام نحن مسلمون ، أم نحن عالميون بلا هوية ؟ ودارت نفس المناقشات في الهند، وتساءل الهنود أهم هنود ، أم هم مسلمون وهندوس وبوذيون ، أم هم مجموعات عنصرية ودينية لا تجمع بينهم صلة ، أم هم بلا هوية ؟ وكذلك كان الامر في افريقيا ، هل الافريقيون قبائل ،أم هم أمم ، هل هم زنوج أم افارقة ، ام غانيون ونيجيريون واوغنديون وغينيون ؟ ولم تلد الجواب مناقشات منطقية · وانما ولد الجواب من منطق التاريخ نفسه ، الذي فرض جوابه فرضا · وكان هذا الجواب ، بحكم حتمية التاريخ ، **قوميا في كل الاحوال ، وكانت على أوسع نطاق ممكن من الرباط القومي في كل الاحوال**، على عكس القوميات الغربية البورجوازية القائمة على اضيق نطاق ممكن · فكانت « القومية العربية » جواب العرب على التساؤلات ، و « القومية الهندية » الجواب الهندي الطبيعي ، و « الوحدة الافريقية » الجواب الافريقي ·

ولكن بدلا من أن تكون « الاستقلالات » التي حصلت عليها ، بلدان العالم الثالث حافزا لتحقيق الكيان المنطقي التاريخي الطبيعي المعبر عن الاجوبة القومية التي فرضت نفسها بحكم النضال ضد الاستعمار ، اي اقامة دول او وحدات او اتحادات تعكس هذه التشكيلات القومية الكبرى التي تجمعها وحدات حضارية تاريخية ضخمة ، بدلا من ذلك فقد عملت هذه الدول المستقلة ، التي كانت حدودها في معظم الاحيان هي الحدود التي رسمها الاستعمار من خلال اقتسام دوله للعالم ، على الاحتفاظ بحدودها القائمة ، وعلى الدفاع عن سلطات طبقتها الحاكمة التي تمتعت في ظل هذه الاستقلالات بامتيازات كانت مقتصرة على المستعمرين من قبل ، وأصبح الدفاع عن هذه الامتيازات واجبها الاساسي · وكلما استقرت بهذه الطبقة الامور ، وكلما ازدادت امتيازاتها ، وكلما اتسعت الهوة بينها وبين الشعب ، ازداد تمسكها بسلطانها وبامتيازاتها وبحدودها · ولم تجد سلاحا تستعمله في هذا كله افضل من وضع مصلحة الاقليم في مكان مصلحة الامة ، واحلال « الاقليمية » محل « القومية » ، واثارة النعرات المحلية ، وتضخيم التمييزات الجغرافية ، ولو أبقت القومية شعارا مرفوعا ولكن فارغا من كل محتوى · **بذلك تغير معنى « الاستقلال » نفسه · وبدلا من ان يكون استقلالا عن النفوذ الاستعماري ، اصبح استقلالا عن بقية الاقاليم ·**

ولم تقتصر النكسة على احلال الاقليمية محل القومية ، ولا على استبدال معنى الاستقلال ، بل ذهبت الى اكثر من ذلك ، حين ارتأت الطبقة الحاكمة ، من

اجل تقوية سلطانها ، تسليح نفسها بكل علاقة اجتماعية خلفها عهد التخلف او عهد الاستعمار ، بل باحياء ما مات منها واندثر في خضم النضال القومي المشترك · ففي داخل القطر الواحد اتجه الحكم ليستند ، هنا ، الى قاعدة قبلية ، وهناك الى قاعدة طائفية ، وهنالك الى قاعدة عرقية عنصرية · حتى تحللت الاقليمية نفسها الى ما هو اصغر منها بكثير · واكثر تخلفا · ولا عجب في ذلك ، لان **زوال الرابطة التاريخية الوحيدة التي يمكن ان يرتبط بها النضال القومي ، الرابطة القومية ، انما يعني زوال كل الروابط ، ويعني التفتت والتحلل المستمر ·**

ولكن شعوب العالم الثالث ادركت ، بالحدس التاريخي اكثر مما عرفت بالمنطق الفكري المجرد ، التناقض الكبير بين حقيقتها وحقيقة هوياتها ، وبين هذا الذي يطرح شعارا ويطبق عكسه فعلا · ادركت ان كل **خطوة في طريق الانتقال من القومية الى الاقليمية الى الروابط الصغرى المتخلفة كانت في حقيقتها خطوة في طريق توسيع الهوة بين الطبقة المستفيدة المستقلة الحاكمة وبين جماهير الشعب ، وكانت ترسيخا لدعائم الطبقة ، وتأكيدا لدوام استفادتها واستقلالها وحكمها ، وكانت نفيا للوجود القومي للامة ، الوجود الذي ارتبط ارتباطا حتميا بقضية التحرر القومي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من طغيان عوامل الاستعباد والاستغلال الداخلية والخارجية معا ، الوجود الوحيد الذي يضمن للمواطن تحرره من غربته ، وعودته الى حريته ، وتمكينه من العطاء لمجتمعه وللانسانية ·**

من هنا اصبح التحدي القومي ، بعد الاستقلال ، اكثر ضرورة والزاما منه قبل الاستقلال · فقبل الاستقلال كان التحدي للقومية تحديا خارجيا فحسب ، او هكذا كان يبدو ، ولكنه بعد الاستقلال اصبح تحديا خارجيا وداخليا في نفس الوقت ، حين التقت مطامح الامبريالية مع مطامح الطبقة الحاكمة المستغلة في المحافظة على ما سمي « بالوضع الراهن » وفي العمل على تخليد هذا الوضع ·

الامبريالية الجديدة والتحام التحديين الخارجي والداخلي :

حين حصلت دول العالم الثالث على استقلالها لم تتخل دول الاستعمار الاوروبي عن مطامعها الاقتصادية والسياسية في هذه الدول · فبذلت ما امكنها البذل في محاولة للحفاظ على الاوضاع بالشكل الذي خلفتها فيه وراءها ، من تجزئة قومية ، من اعتماد كلي في اقتصادها على الاقتصاد الغربي ، من حكم طبقة وجهاء وزعماء لها مصلحة في الابقاء على الاوضاع والعلاقات

الاقتصادية والاجتماعية القائمة ، من روابط وتحالفات ومعاهدات سياسية وعسكرية تضمن ابقاء هذه الدول داخل معسكرها وداخل منطقة نفوذها ·

ولكن هذه الجهود كان محكوما عليها بالفشل · اولا ، لان دول الاستعمار نفسها كانت اضعف من ان تفرض ارادتها ، بعد خروجها من الحرب منهوكة القوى مدمرة الاقتصاد ، وبعد هزيمتها أمام نضالات الشعوب هزيمة لا قيامة لها بعدها · وثانيا ، لان الطبقة المستفيدة التي تركتها وراءها كانت، بفعل الاستعمار نفسه ، شريحة رقيقة من شرائح المجتمع لا قبل لها بالوقوف امام غضبة جماهير الشعب ومطالبتها بتحقيق الامال التي منت نفسها بها أيام النضال · بل لعل تحالف الاستعمار مع هذه الطبقة ، وتحالف هذه الطبقة معه كان عاملا يزيد في اضعاف حكم هذه الطبقة وفي فضحها وفي توسيع الهوة بينها وبين الجماهير وفي تقريب نهايتها ·

ولكن الامبريالية الجديدة ، ممثلة بالولايات المتحدة الاميركية، لم ترض عن هذا « الفراغ » الذي خلفته الدول الاستعمارية وراءها · فدخلت عالم دول العالم الثالث بقوة وزخم وخطط جديدة واساليب جديدة ، مدركة منذ البدء انه لا الدول الاستعمارية باساليبها العتيقة ، ولا الطبقة الحاكمة الجديدة ، بضعفها وقلة عددها ، قادرتان على منع التغيير الجذري الاساسي في بنية أمم العالم الثالث وبنية مجتمعاتها ، وانه لا بد لها من بذل مجهودات مادية وعسكرية وبوليسية وسياسية واعلامية وثقافية ضخمة ، من اجل ربط هذه الدول بها من جهة ، ومن اجل توسيع قاعدة الطبقة الحاكمة ، لتضم شرائح جديدة من المجتمع لم تكن منها أول الامر ، بل لعل بعضها كان في الحركة الجماهيرية المناهضة لهذه الطبقة ، ومن اجل خلق تقدم رأسمالي استهلاكي ملموس وملحوظ ، فيه كل مظاهر الترف والرفاه المتاحة في الدول الصناعية الغنية ، لتكون الطبقة المستفيدة منه درعها وواجهتها في درء خطر الحركة القومية الاشتراكية ، المهددة لمصالح الولايات المتحدة ، ومصالح الغرب ، بل لنظام السوق الرأسمالي الاحتكاري العالمي كله ·

لم تعتمد الامبريالية الجديدة على الطبقة الصغيرة المكونة من الحكام وحاشيتهم من زعماء الاقطاع والوجهاء الوارثين والبرجوازية المتعلقة بأذيالهم · بل انها عملت ، في بعض الاحيان، على تنحية هذه الطبقة اذا وصلت درجة الاحتراق والانهيار الكلي · وانما خلقت واعتمدت طبقة بورجوازية مثقفة ناشئة ، وأتاحت لها كل الفرص لتتسع وتعمق جذورها ، وربطت بين مصالحها ومصالح الامبريالية ربطا محكما ، فخلقت بذلك ما يمكن ان نسميه « بالبورجوازية الطفيلية » ، وسلمتها مسؤولية الدفاع عن اهداف الامبريالية

في دول العالم الثالث في ظل شعارات قومية ودينية وديموقراطية وتنموية، تغطي بها الاساس الاستغلالي الاستعلائي الامبريالي لغايات هذه الطبقة ٠

هذه البورجوازية الطفيلية التي خلقتها الامبريالية الجديدة كانت تختلف اختلافا كبيرا عن البورجوازية الاقطاعية الوجيهة القديمة ٠ فالاقطاعية القديمة كانت أقل عددا ، واقل غنى وترفا ، وكان لها ، في معظم الاحيان ، ارتباطاتها الموروثة من العلاقات الاجتماعية التخلفية مع سواد الشعب ، التي تحمل بعض معنى المسؤولية ، وتتضمن قدرا من القيم الاخلاقية ، حتى ولو كانت هذه القيم مستقاة من المجتمع المتخلف ٠ ولكن البورجوازية الطفيلية الجديدة اصبحت اكثر عددا واكثر غنى وترفا ، واثقل في المصالح ٠ وكانت بعض فضلات مصالحها ترشح الى بعض قطاعات الشعب فترتبط بها في كسب رزقها ٠ ولكنها لم يكن يربطها مع سواد الشعب ، الذي من وسطه نشأت ، وعنه انفصلت ، اية روابط اجتماعية ، ولم تقيدها أية ضوابط أخلاقية موروثة ٠ ولم تجد أمامها سبيلا الى البقاء سوى اقامة « دكتاتورية البورجوازية » ، بالرشوة والمحسوبية وشراء الضمائر ، وبالارهاب والحكلم البوليسي، وباثارة العصبيات الصغيرة ، وبالارتماء الكامل في احضان الامبريالية ، والاخلاص الكامل للنظام الرأسمالي الاستغلالي ، وفتح الابواب على مصاريعها لدخول الرساميل الاجنبية ، والاستمساك المطلق بالتجزئة القومية وبالحدود القائمة، والمحافظة على « استقلال » الاقليم عن بقية الاقاليم لا عن النفوذ الاجنبي ٠ كل ذلك مع جرعة محترمة من توسيع التعليم والخدمات الصحية ورفع مستوى الاستهلاك ليسهل على قطاعات من الشعب قبول تلك السياسة والاغضاء عنها بل والترحيب بها ٠

وبارتماء هذه الطبقة في احضان الامبريالية والنظام الرأسمالي وبارتباطها بالسوق العالمية « الحرة » وقوانينها ، وبدعم الامبريالية لمصالح هذه الطبقة المستحدثة ومساندتها لها من كل الوجوه ، لم تعد التحديات الداخلية داخلية محضة ، ولا عاد التحدي الخارجي خارجيا محضا ، وانما التحم التحديان ليصبحا تحديا واحدا ذا وجهين متداخلين اشد التداخل ، مندمجين كل الاندماج ٠ واصبحت معركة التحرر بذلك داخلية خارجية في آن معا، وارتبط التحرر القومي بالتحرر الاقتصادي بالتحرر الاجتماعي ارتباطا يجعلها جميعا معركة تحرر واحدة ذات وجوه مختلفة ولكن ملتحمة مندمجة كذلك كل الالتحام وكل الاندماج ٠

بذلك تبلور في الامة تياران متناقضان متميزان واضحان كل الوضوح٠ فثمة ، في اليمين ، تيار ثري متزايد الثراء ، طموح ككل رأسماليي العالم،

مؤمن بنظام مجتمع رأسمالي استهلاكي ، مؤمن بان التنمية لا تتم الا بالاعتماد المطلق على دول الغرب المصنعة ، كافر بقدرة الامة على التحرر الاقتصادي ، مؤمن بما يسميه « المبادرة الفردية » ، متمسك بالحدود الاقليمية ، مقاوم للوحدة القومية ، مستسلم للضغوط الخارجية ، مرتم في احضان الامبريالية وحلفائها، عدو مطلق لحركات التحرر الشعبية القومية الاشتراكية ٠

وثمة ، في اليسار ، تيار جماهير الشعب الكادح المستغل المستعبد المكبوت ، المقيد بقيود السوق الحرة والواقع بين براثنها ، المقيد بقيود التمزق القومي والضياع والغربة ، ضحية التقدم الرفاهي وضحية السحق القومي في آن معا ٠

بهذا التبلور في التيارين ، أصبح التحدي الخارجي والتحدي الداخلي تحديا واحدا ٠ وأصبح الصراع الطبقي والصراع القومي صراعا واحدا وأصبح الصراع القومي الطبقي يدور بين هذين التيارين ٠

خصائص الحركة القومية الاشتراكية :

ان اية حركة تاريخية هي بنت ظروفها الموضوعية ٠ فهي لا يمكن ان تولد من الفراغ ، ولا في الذهن منفصلا عن الواقع التاريخي الحي ٠ ولا يمكن ان تولد الا حين تكون ردا على تحد ما ، او نقضا لواقع ما ، وهي لذلك ، ومن أجل أن تكون في مستوى الرد والنقض المطلوبين منها تاريخيا ، لا بد ان تتخذ خصائصها وسماتها واتجاهاتها من طبيعة التحديات ومن طبيعة الصراع على هذه التحديات والرد عليها ٠

وبسبب التماثل الكبير في الظروف التاريخية للتحديات الخارجية والداخلية التي واجهتها وتواجهها شعوب العالم الثالث ، كان طبيعيا ان تكون ردود الفعل ، في كل مراحلها ، وبخاصة في مرحلة القومية الاشتراكية ، ضمن اطار واسع من الخصائص يضمها جميعا على اختلاف المعطيات الذاتية لهذه الشعوب ٠

ان ميلاد الحركة القومية الاشتراكية هو نفسه مجرد مرحلة في سلسلة تطور النضال القومي ضد الاستعمار ، قديمه وجديده ، وضد التخلف ، قديمه وجديده ٠ وبسبب ان ميلاد الحركة القومية كلها انما كان ، في الاساس ، موجها ضد الاستعمار ، وبسبب ان تحدي الاستعمار لشعوب العالم الثالث تحد عام ، وهو نفسه الذي يمنح العالم الثالث تميزه الاساسي الخاص به ،

وبسبب تخلي الحركة الوطنية البورجوازية ، بعد حصولها على الاستقلال السياسي ، عن متابعة خط النضال هذا ووقوعها في احضان الامبريالية الجديدة ، وتحالفها معها ، فان السمة الجامعة الاولى في كل الحركات القومية الاشتراكية كانت متابعة هذا النضال ضد الامبريالية الى اخر مداه.

ان متابعة النضال ضد الامبريالية الى اخر المدى انما تعني القضاء على البقايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية للامبريالية في الوطن. ولكن بسبب « عالمية » الامبريالية « وتوحدها » بقيادة الولايات المتحدة الاميركية ، فأقصى المدى يعني تجاوز النضال في الوطن الواحد ، للوصول الى حركة نضال « عالمية » و « موحدة » بين شعوب العالم الثالث للقضاء على الامبريالية ، من حيث هي نظام هيمنة عالمي ، وللقضاء على فكرة استغلال دول لدول ، او استغلال شعوب لشعوب.

من هنا ، فان الحركة القومية الاشتراكية ، اينما وجدت ، لا بد ان تستهدف ، اول ما تستهدف ، التحرر السياسي الكامل للامة واخراجها من مناطق النفوذ العالمي ، والقضاء على كل تبعية سياسية او عسكرية لاية قوة امبريالية، او لاية قوة اجنبية ، او لاية قوة تنتقص من الاستقلال القومي.

ان هذا يجعلها ضد السياسة الامبريالية وملحقاتها وحلفائها ، سواء تمثلت في قائدة الامبريالية الجديدة ، الولايات المتحدة الامريكية ، او في الدول التابعة لها والسائرة في فلكها ، او في البقايا المادية للامبريالية القديمة والتي هي الان ركائز وقلاع للامبريالية الجديدة ، كالصهيونية وحكم الاقليات العرقية ، والدكتاتوريات البورجوازية الرجعية المسلمة نفسها ومصيرها للامبريالية. وكذلك هي ضد السياسة الامبريالية سواء تمثلت في بقايا الاستعمار الاحتلالي القديم، او في التحالف العسكري والسياسي ، او في التبعية الاقتصادية للسوق الحرة، او في احتكار ثروات الشعوب ، او احتكار مياه المحيطات ، او احتكار العلوم.

وهي ، في سبيل تحقيق هذا ، تتعاون مع كل الحركات التحررية ، في بلدان العالم الثالث وفي جميع دول العالم .

وبسبب ادراك الحركة القومية الاشتراكية انه لا استقلال حقيقيا دون تحرر اقتصادي من قوانين السوق « الحرة » ، ودون الخلاص من استغلال الدول المصنعة لثروات شعوب العالم ولجهدها الانساني ، فهي تستهدف تحرير الاقتصاد القومي وتحرير الثروة القومية . ولكنها تدرك ، بالاضافة الى ذلك ، ان مثل هذا التحرير له شروط اساسية لا بد من توفرها . فهي لا تملك ان تحرر

اقتصادها من الاستغلال وهي مرتبطة بالسوق الحرة وقوانينها • كما لا تملك ان تحرر اقتصادها بواسطة الطبقة المرتبطة مصلحيا مع القوى الراسمالية الامبريالية • ومن هنا فان مهمة التحرر الاقتصادي ، في نفس الوقت الذي هي فيه رد على التحدي الخارجي ، لا بد أن تكون ردا على التحدي الطبقي الداخلي •

فالحركة القومية الاشتراكية مضطرة حتميا ، من خلال نضالها من اجل التحرر الاقتصادي ، الى ان تعيد النظر في نظامها الاجتماعي كله • فهي لا تملك ان تكون ضد الاستغلال الخارجي وان تكون مع الاستغلال الداخلي • والذين حاولوا هذا الفصم في ربع القرن الاخير اضطروا الى الوقوع مجددا في أحضان الاستغلال الخارجي • فالحركة مضطرة الى ان تكون ضد «الاستغلال» في ذاته ، سواء تمثل في استغلال عالم لعالم ، او دولة لدولة ، او طبقة لطبقة •

وهذه الحركة ، الرافضة لاستعباد امة لامة ، واستعباد طبقة لطبقة ، والتي عانت من ظلم الاستعمار ومن طغيانه وكبته ، والتي ناضلت من اجل حرية الشعب وحرية المواطن ودفعت الثمن تلو الثمن في سبيل ذلك ، هي ، بالضرورة، ضد استعباد المواطن ، بالقدر الذي هي فيه ضد استعباد الشعب وضد استعباد الجماهير الكادحة • لذلك فهي ضد النظم الفاشية والدكتاتورية والبوليسية والتعسفية ، وضد الكبت والاضطهاد بجميع اشكاله ، وبخاصة حين يوجه هذا الكبت ضد حركات الجماهير التحررية ، السائرة في مسار التاريخ التقدمي • سيما وأن الكبت في شعوب العالم الثالث ميراث متراكم • فهو ميراث تخلفي قديم ، وميراث استعماري ، وميراث بورجوازي جديد • وسيما ، لان الغاية الاساسية من النضال كله ، في كل اوجهه ومراحله ، لايمكن ان تقيم الا بذلك القدر من الحرية الذي تمنحه للمواطن • وان التحرير السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، في التحليل النهائي ، لا يمكن الا ان يكون تحريرا «لعلاقات» الانسان من اجل تحرير «الانسان» ذاته •

ولان الحركة القومية الاشتراكية ، في الاساس ، رد على الاستعمار والامبريالية ، ولان الاستعمار والامبريالية قد قطعتا اوصال الامم وجزأتها واقامت لها حدودا منسجمة مع مقتضيات المنافسة الدولية في اقتسام العالم، ولان الطبقات المستغلة التي اتت الى الحكم بعد الاستقلال قد كرست هذه التجزئة لانها احفظ لامتيازاتها واضمن لابقاء سطلتها ، ولان طبيعة المعركة التي خاضتها شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات قادتها الى معرفة ذاتها وهويتها معرفة جديدة ، فهي ضد التجزئة وضد الاقليمية وضد الطائفية والعنصرية ، ولا تعترف برابطة غير الرابطة القومية التحررية •

فالحركة القومية الاشتراكية اذن ، حيثما كانت من بلدان العالم الثالث ، حركة رافضة للامبريالية والصهيونية ، وحكم الاقليات المستوطنة ، رافضة لمبدأ الاستغلال الدولي والاستغلال الطبقي ، رافضة لاستعباد الامة ولاستعباد المواطن وكبت حريتها وحريته ، رافضة لتجزئة الامة وتقطيع اوصالها ، عموديا وافقيا ، اقليميا او طائفيا او عنصريا ٠

هذا الوجه الرافض للحركة هو وجهها السلبي الذي يعين ويحدد اتجاه الحركة وخصومها ٠ على أن حركة في هذا المستوى التاريخي لا يمكن ان تقنع بهذا الوجه السلبي الا اذا تحولت الى حركة براغماتية فاقدة لاهدافها ٠ اما الحركة الواعية ، الملتحمة مع التاريخ ، النابعة من صميمه ، المدركة لابعاده ، فان لها ، الى جانب وجهها السلبي هذا ، وجهها الايجابي الممثل لاهدافها ٠ ذلك ان النضال ضد الاستعمار والتخلف لا تكتمل غايته بمجرد الخلاص منهما ، بل ببناء نقيضهما ٠ هذا النقيض المتمثل في حرية الامة وتقدمها ، في حرية المواطن وتقدمه ، في حرية الانسان وتقدمه ، وفي حرية العالم وتقدمه ٠

فهي تناضل ضد الامبريالية والتخلف من أجل أن تجد ذاتها القومية الموحدة ، المتحررة من القيود ، من اجل ان تتلمس الخيط المتواصل في تاريخها ، الممتد بين ماضيها ومستقبلها ، من اجل ان تفجر طاقات امتها وانسانها ، من اجل ان تساهم في حمل مسؤوليتها الحضارية نحو نفسها ونحو الانسانية ٠

تناضل ضد الاستغلال الامبريالي لثرواتها المهدورة وجهد انسانها المسروق ، وضد نظام السوق « الحرة » وقوانينها الراسمالية المستغلة ، من اجل اقامة مجتمع متحرر اقتصاديا ، مالك لثرواته ولجهد ابنائه ، مجتمع لا طبقي خال من الاستغلال ، قادر على رفع مستواه الانتاجي والاستهلاكي ، مشرع أبوابه امام تفتح مواهب ابنائه وقدراتهم وكفاءاتهم ٠ مجتمع يصبح فيه العمل حقا كما هو واجب ، يسعد به الفرد كما يسعد به المجتمع ، منطلقا لقدرات الانسان لا قيدا عليها ٠ مجتمع يحيا فيه الانسان متحررا من الخوف ومن الارهاب ومن التمييز بكل اشكاله والوانه ٠

تناضل من اجل التحرر من طغيان المادة القائم على مبدأ الربح ، ومن اجل بناء قاعدة ثقافية انسانية لا قيمة فيها ارفع من قيمة الانسان نفسه ، عقلا وعاطفة وجسدا ، تسودها علاقات اجتماعية انسانية تنمي في الانسان انسانيته ، تحرره من طغيان الالة كما تحرره من طغيان المجتمع ، وتستمد اخلاقيتها من ايمانها به ، وتعيده من غربته الى ذاته ٠

تناضل من اجل التحديث ، لخلق مجتمع متقدم تقني ، تكون فيه الالة في خدمة الانسان ومجتمعه ، لتساهم في اسعاده ، ولا يكون هو في خدمتها، عبدا طيعا لها ولقوانينها الغيبية ·

تناضل من اجل عالم متآخ انساني ، معتمد بعضه على بعض ، تسوده علاقات السلام والاخوة والمحبة . من غير استغلال ولا استعباد ولا استعلاء ، في ظل نظام للتعامل دولي عادل يعطي لكل ذي حق حقه ، ويجعل ثروة العالم للعالم ، وجهد الانسان لاخيه الانسان :

تناضل من أجل هذا كله مدركة لوحدة اهدافها وان تعددت الوجوه والسمات · مدركة ان اهدافها قد تتمرحل ولكنها لا تتجزأ ولا تتناقض ولا يمكن تحقيقها على أيدي من تناضل ضدهم ·

تناضل وهي تدرك ان اهدافها لا يحققها غير النضال وحده · وان النضال ، لا اقناع الخصم ولا التبشير ، هو قوة التغيير الاساسية التي تملكها بين يديها · تناضل وهي تدرك ان عملية النضال ، غير انها موجهة سلبيا نحو الخصم ، موجهة ايجابيا نحو المناضل نفسه ، تفسد ذاته من أدرانها التخلفية، تخلق فيه قوى الابداع ، تطهره تطهيرا ، تدفعه الى الانقلاب على نفسه من خلال الانقلاب على وضعه ·

تناضل وهي تعلم أنها تقوم بأداء رسالة الحرية ضد قوى الطغيان ·

التميز القومي في الحركات القومية الاشتراكية :

لان التحدي الذي تواجهه شعوب العالم الثالث تحد مشترك بينها جميعا، فالخصائص الاساسية لردود فعلها خصائص مشتركة · ولكن لان لكل شعب من هذه الشعوب ما يميزه عن الشعوب الاخرى فان للحركة القومية الاشتراكية لكل منها ما يميزها عن الحركات المماثلة في الشعوب الاخرى ضمن النطاق المشترك لخصائصها جميعا ·

بعض هذه الحركات اتخذ الماركسية اساسا ايديولوجيا بعدما خاب امله في تجربة التحديث البورجوازي الديموقراطي · ولكنه لم يقف عند حدود الماركسية الاممية الخاصة بالبلدان المتقدمة صناعيا ، المستندة الى دور العمال الصناعيين التاريخي ، وانما طور هذا الفكر تطويرا اساسيا حوله الى ايديولوجية ذات منهج ماركسي في التحليل ، وذات بنيان قومي مستمد من وضع البلدان المتخلفة المقارعة للاستعمار والامبريالية ، المناضلة ضد التخلف ،

الساعية الى تثبيت المنطلقات التاريخية للامة ، والى تثبيت وعي الذات القومية • وبعضها اتخذ القومية منطلقا له • ولكنه انعطف بهذا المنطلق من حركة انتماء محض ، موجهة ضد الاستعمار الاحتلالي ، الى حركة تحرر شاملة ذات محتوى اقتصادي واجتماعي وانساني وحضاري ، ورفعها الى مستوى الايديولوجية الشاملة • وهكذا اختلف المنطلقان ، والتقت ، على تماين، النتائج • وبالاضافة الى هذين المنطلقين الاساسيين ، فان بعضها اتخذ طريقا براغماتيا محضا • فلم يتخذ ايديولوجية ولكنه اتجه اتجاها قوميا واتجاها اشتراكيا ، بفعل الضغوط والاحداث ، لا بفعل تخطيط مسبق او ايديولوجية شاملة •

بعضها قام بتنظيم مسبق في ظل الحكم الوطني البورجوازي ، وبعضها لم تتح له هذه الفرصة ، وانما ظهر بشكل انفجاري من غير تنظيم قاعدي ، ليحاول ، من بعد الوصول الى الحكم ، اقامة تنظيم فوقي يساند الحركة الفاقدة للتنظيم القاعدي • بعضها قام بثورة شعبية ضد الاحتلال • وبعضها قام بثورة شعبية ضد الطبقة الواقعة في احضان الاستعمار • وبعضها قام بانقلاب عسكري •

بعضها انطلق من مجتمع ذي حضارة عميقة الجذور • وبعضها انطلق من حضارات سطحية لا تنفذ الى أعمق من الجلد • بعضها كانت حضارته السابقة عونا له على مقارعة الاستعمار والتخلف • وبعضها كانت حضارته معوقا امام نضاله ضد الاستعمار والتخلف •

هذه الفروق التي فرضت نفسها على الحركات القومية الاشتراكية، فتميزت كل منها بمنطلقها الايديولوجي ، وبخطى سيرها واساليب كفاحها ، وبتنوعها في درجة تركيزها على الوجوه المختلفة من اهدافها ، وباختلافها في درجة نضوجها وفي مدى صمودها والتصاقها بغاياتها وفي امكانات تعرضها للانحراف ، ناتجة كلها عن ظروف تاريخية تكاد تفرض نفسها فرضا •

بعض هذه الظروف حضارية لا سبيل الى الفكاك منها ، فليس طبيعيا ابدا ، والحضارة الصينية مختلفة كل الاختلاف عن الحضارة الهندية ، وكلتاهما مختلفتان عن الحضارة العربية الاسلامية ، وكل هذه مختلفة عن الحضارة الزنجية ، ان تكون ردود فعل شعوب هذه الحضارات واحدة او متشابهة كل التشابه ، لا سيما وان هدفا اساسيا من اهداف اي حركة قومية اشتراكية ، بل محور هذه الاهداف جميعا ، هو بعث الوعي القومي في الامة ، وربط حاضرها بماضيها وبمستقبلها ، اي رد الحياة وعودة الروح

اليها . وبالقدر الذي تختلف فيه الكونفوشيوسية عن البراهمية عن البوذية عن الاسلام عن الوثنيات الزنجية ، لا بد من ان تتأثر ردود الفعل بهذه الاختلافات.

بعض هذه الظروف ظروف تاريخية تتعلق بالاستعمار نفسه .
فشعوب اميركا اللاتينية ، مثلاً ، تختلف اختلافا اساسيا في تاريخها مع الاستعمار عن شعوب اسيا وافريقيا ، فالمستوطنون المهاجرون كانوا هم السادة المستعمرين . ولكنهم سرعان ما وقعوا هم ، وسكان البلاد الاصليون . والزنوج المستوردون ، فريسة للامبريالية الاميركية التي اعتبرت هذه القارة منطقة لنفوذها منذ بداية القرن التاسع عشر ، وتعاونت في سبيل ابقاء هذا النفوذ مع نبلاء المهاجرين واقطاعييهم وبورجوازييهم وجنرالاتهم ، ولم تمر شعوب اميركا اللاتينية بنفس أدوار ردود الفعل التي مرت بها شعوب اسيا وافريقيا . ومع ذلك فهي سرعان ما أدركت ، بعد الحرب العالمية الثانية ، ان المشاكل التي تواجهها هي ، في الحقيقة ، نفس المشاكل التي تواجه تلك الشعوب ، وان خصومتها مع الامبريالية الاميركية ، المدعومة بالطبقة ذات الامتيازات ، المحمية بالدكتاتوريات العسكرية البورجوازية ، هي على نفس مستوى خصومة شعوب اسيا وافريقيا ، وان عليها ، من اجل ذلك ، ان تنضم الى مجموعة دول العالم الثالث وان تخوض معها نفس المعارك التي تخوضها.

كذلك ، ففي حين ان استعمار الغرب للصين اقتصر على احتلال بعض المرافيء ، والحصول على بعض الامتيازات ، وبعض التنازلات عن السيادة ، وأبقى السلطة الامبراطورية المركزية قائمة وان سلبها حقيقة سلطاتها ، فان احتلاله للهند كان احتلالا مباشرا سلب الهنود كل حقوقهم ، ولكنه حقق لهم وحدة لم يعرفوها منذ الاف السنين في تاريخهم . بينما انشغل الاستعمار في الوطن العربي بتجزئته وتقطيع أوصاله وتوزيعها غنائم بين الدول الاوروبية، وحكم كلا من هذه القطع باسلوب يختلف عن اسلوب حكمه في القطع الاخرى. لذلك فلا عجب ان يتميز رد الفعل الصيني عن رد الفعل الهندي عن العربي عن شعوب اميركا اللاتينية .

وبعض هذه الظروف يتعلق بحركة النضال نفسها . بموعد بدئها ، بزخمها، بقوة جماهيريتها ، بالطبقة التي قادتها ، بالحرية التي تمتعت بها ، بالوسيلة التي اتبعتها ، بطول أمدها . فعمق الحركة ، مثلا ، يتناسب طرديا مع عنف المقاومة ومع طول امدها ومع جماهيريتها ومع تداخل نفوذ الامبريالية مع نفوذ الطبقة الحاكمة . ويتناسب عكسيا مع الحرية التي تمتعت بها المقاومة ، ومع تنامي الحس الاجتماعي للطبقة الحاكمة ، ومع انعدام آثار التدخل الامبريالي في الحكم .

كما ان بعض هذه الظروف جغرافية ، فليس من قبيل الصدفة المحض اتصال جميع الدول الشيوعية ، باستثناء كوبا ، برا بعضها ببعض ، بدءا من كمبوديا وانتهاء بتشيكوسلوفاكيا . ولا شك ان مجاورة دولة شيوعية كبيرة ودعمها لحركة المقاومة وحمايتها لها ذو أثر كبير في امالة كفة المزايا نحو الشيوعية ، حتى وان انتهت هذه الشيوعية بعدئذ الى قومية اشتراكية تتطلع الى الاستقلال بسياستها عن الدولة التي ناصرتها ، كما حدث في الصين وفي كوريا وفي فيتنام .

وطبيعي ان نعترف ، بعد هذه الظروف التي تفرض نفسها على الحركة فرضا ، ان لطبيعة الزعامة التاريخية التي تتقدم لحمل مسؤوليات هذه الحركات أثرا كبيرا في منح الحركة عمقا تاريخيا او في سلبها عمقها التاريخي . فكمال أتاتورك غير غاندي غير ماوتسي تونغ غير كيم ايل سونغ غير بن بلا . ان الزعيم او القائد لا بد له من أن يتفهم الظروف الموضوعية المحيطة به وأن ينطلق منها . ولكن عظمته تتجلى بالفعل حين ينطلق من هذه الظروف الموضوعية بوعي وادراك عميقين ، الى آفاق المستقبل الشاسعة ، في طريق صلد من الوعي التاريخي العميق ، ومن المشاركة الجماهيرية الواسعة . ومثل هذا القائد لا بد أن يطبع تاريخ أمته بطابعه هو ، بالاضافة الى طابع الظروف الموضوعية غير الارادية .

ان الاختلاف الكبير في هذه الظروف جميعا لا بد ان يخلق تميزا في حدود الفعل بين شعب وشعب ضمن الاطار العام المشترك لشعوب العالم الثالث .

ففي الصين ، مثلا ، انطلقت الحركة القومية الاشتراكية من تبني النظرية الماركسية . والواقع ان اتجاه الحركة الوطنية الصينية نحو الاتحاد السوفييتي بدأ منذ ايام صن يات صن ، قبل ان يولد الحزب الشيوعي . بينما استغرق انتقال الحزب الشيوعي نفسه من منطلق ماركسي لينيني جامد الى حركة صينية اشتراكية اكثر من خمسة عشر عاما من النضال داخل الحزب وخارجه . فاذا بحثنا عن اسباب هذا المنطلق الماركسي وجدنا ، اولا ، ان الصين مجاورة للاتحاد السوفييتي ، وان الاتحاد السوفييتي قد شجع هذا الاتجاه حين تنازل عن كل امتيازاته في الصين التي كان قد حصل عليها أيام الحكم القيصري ، ولان رد فعل الشعب الصيني ، ثانيا ، على فشل الحركة الوطنية الصينية في تحقيق اغراضها المعلنة جاء في وقت مقارب لنجاح الثورة الاشتراكية في روسيا وانهائها للحرب الاهلية . فكان طبيعيا ، والعدو الامبريالي عدو مشترك ، ان تنفعل الحركة الشعبية انفعالا كبيرا بانتصار

الثورة البلشفية ۰ ثم ان الحركة الوطنية الصينية ، ثالثا ، كانت مضطرة ، منذ البدء ، الى أن تتجه ضد الماضي الموروث ، وضد التقاليد البالية ، وضد الثقافة القديمة ، التي كان يمثلها ويتمسك بها الحكم الامبراطوري الفاسد المتخلف الذي فشلت كل محاولات تحديثه ، والواقع تحت النفوذ الاجنبي والمستسلم له ۰ كل هذا الى جانب ان الحركة الوطنية ، بعد ان الت زعامتها الى شان كاي شيك ، فشلت في توحيد البلاد ، وفي مقاومة الغزو الياباني ، وفي العودة الى الجماهير ، وفي استكمال استخلاص حقوق الصين من الدول الغربية والقضاء على الامتيازات الاجنبية ، وشغلت نفسها بضرب قوى اليسار ، وزيادة الاعتماد على الاغنياء والوجهاء وتجار المدن وطبقة الكومبرادور والقواد العسكريين الطامحين الى النفوذ والغنى ، وغرقت في الرشوة والفساد ، واهملت العناية بتغيير اوضاع الجماهير الاقتصادية والاجتماعية ، بالاضافة الى هزائمها المتوالية امام قوى العدوان اليابانية الغازية ۰

جميع هذه الظروف ، بالاضافة الى ضعف اثر الدين في المجتمع وحلول اداب السلوك الكونفوشيوسية محله ، والى ان الاستعمار لم يكن مباشرا ولا ملموسا الا من خلال الحكم الامبراطوري نفسه ، دفعت الحركة التحررية في الصين الى التركيز على الصراع الطبقي اكثر من تركيزها على الصراع القومي، والى التركيز على التحديث اكثر من تركيزها على الهوية الصينية التي لم تكن موضوع نزاع ، الى ان جاء العدوان الياباني الشامل ، واندمج الصراع القومي اندماجا تاما مع الصراع الطبقي ، وارتفع نجم ماوتسي تونغ الداعي الى ماركسية « صينية » معادية للامبريالية ، معتمدة على جماهير الفلاحين ، ماركسية قومية اشتراكية في آن معا ۰

مقابل ذلك فان الحركة القومية الاشتراكية في الوطن العربي قد اتسمت بالانطلاق من المنطلق القومي ، وسيطرة هذا المنطلق على الاتجاه الاشتراكي ۰ ذلك ان ما أصاب هذا الوطن من احتلال مباشر او شبه مباشر في معظم اقطاره، وما خلفه الاستعمار من تجزئة خلفها وراءه عند انسحابه ، وما عقده من تحالفات ومعاهدات ، وما زرع في ارض الوطن من صهيونية مستوطنة متحدية للوجود القومي ، كل ذلك جعل التركيز على الصراع القومي يسبق ويتقدم اي تركيز على الصراع الطبقي ، الا حين اصبح الصراع الطبقي هو نفسه الوجه الاخر للصراع القومي ، وحين انفصلت طبقات من الشعب عن الشعب وربطت مصالحها ومصيرها بمصالح الامبريالية ومصيرها ، ولم تجد سبيلا للتعامل مع الصهيونية سوى الاستسلام لمطالبها والتعايش معها ۰ حينذاك اندمج الصراع الطبقي اندماجا تاما مع الصراع القومي ،وتبلورت مختلف الصراعات في تيارين

أساسيين متناقضين ، احدهما ضد الامبريالية والصهيونية والاستغلال الدولي والمحلي ومع الوحدة القومية والتحرر والحرية والاشتراكية والسلام العالمي القائم على العدالة ، وثانيهما مستسلم للامبريالية والصهيونية ، مؤمن بالانفتاح على الاستغلال الغربي ، متمسك بالسلطة الاقليمية ، عامل على بناء مجتمع خدمات استهلاكي ، مستهدف رفع مستوى الطبقة المستغلة للشعب ، موجه ضد حركات اليسار والاشتراكية والوحدة والتحرر والحرية ، لا يكاد يرى خطرا عليه من غيرهما

وهكذا نرى كيف ان تجربتين مختلفتين في منطلقهما تتميزان ، بحكم ظروفهما الموضوعية ، تميزا كبيرا عن بعضهما ، وتختلفان في اسلوبهما واتجاههما ومقدار تركيزهما على الاولويات ، وتلتقيان ، مع ذلك ، وبسبب وحدة التحدي الاساسي فيهما ، في اهدافهما وغاياتهما وخصائصهما المشتركة العامة .

شمول النظرة وواقعيتها :

ومع أن ردة الفعل القومية الاشتراكية يمكن ان تتخذ لها خصائص ذاتية ضمن اطار الخصائص العامة التي تجمعها ، فان تقييم اية ردة فعل منها لا يمكن ان يكون بالمفاضلة بين خصائص ردة فعل وخصائص ردة فعل اخرى، مادامت معظم هذه الخصائص هي بنت ظروفها التاريخية ، وتكاد تكون محتومة بتلك الظروف .

فليس من حق مثل هذه الحركة في الوطن العربي ان تقوم « بثورة صينية » في هذا الوطن . كما ليس من حق شعوب افريقيا ان تزعم انها ستقوم بثورة فيتنامية في افريقيا . مثلما انه ليس في الامكان ان تقوم « ثورة كوبية » في بلدان اميركا اللاتينية ، كما اثبت استشهاد جيفارا .

وانما يتم تقييم أية حركة منها ، بمقدار استجابتها العلمية الثورية لظروفها الانية الموضوعية ، وبمقدار تجاوزها لهذه الظروف بربط تلك الاستجابة بنظرة تاريخية شاملة ، يمتد شمولها آنيا ، بمعنى ان هذه النظرة تتمكن من رؤية التحدي من حيث هو ، ايضا ، تحد كامل موحد وان اختلفت وجوهه وتعبيراته ومراحله ، كما يمتد هذا الشمول امتدادا تاريخيا الى الماضي والى المستقبل ، من حيث انه يدرك صلة هذا الصراع القائم بين التحدي ورد فعله، بسير حركة التاريخ كله ، ويتمكن من رؤية موضع هذا الصراع في سلسلة مراحل التاريخ . ذلك وحده هو الذي يمكن ان ينقل الصراع من مستوى رد الفعل الانعكاسي الى مستوى رد الفعل الايجابي العقلاني . وبذلك وحده يمكن ان تقيم الحركات وان يفاضل بينها .

ان الشمول الآني انما ينبع من وضوح الرؤية واتساع أفقها واستلهام الواقع ومعاناته في الفكر والممارسة معا ٠ انه هو الذي يتيح امكـان رؤية الدى الحقيقي للصراع الذي تخوضه الشعوب ، ووحدة التحـدي ووحـدة رد الفعل في هذا الصراع وبالتالي فانه يقي الحركات القومية المناضلة الواعية من الوقوع في خطأ التناقض بين اهدافها ، او تجزئة غاياتها ، ومن الخطر الذي ينجم عن هذا الخط الجسيم ٠ بالنظرة الشمولية الآنية لا يمكن لحركة ان تدعي انها في الاتجاه القومي ما دامت مستسلمة للامبريالية ، او انها وحدوية ولكنها غير اشتراكية ، او اشتراكية ولكن كابتـة لحركة الجماهيـر ، او معاديـة للصهيونية ولكن صديقة للولايات المتحدة ٠ النظرة الشاملة الآنيـة تعلمنا ان الهدف الاساسي واحد ، وان طريق السير الى تحقيقه ، وان تفرع ، واحـد ٠ وهي لا تعني انه لا يجوز لحركة ان تسير في طريق تحقيق وجه من وجـوه غاياتها الا اذا سارت فـي طريق تحقيـق كـل الوجـوه ٠ فعـة واحدة ٠ ولكنها تعني ان أي كسب تحققه في أي ميدان يجب ان يكون منطلقـا ودعما لمكاسب اخرى في الميادين الاخرى لا عقبة امامها ولا بديلا لها ٠

اما الشمول التاريخي فينبع من رؤية المسار التاريخي الذي يشكل الحاضر الآني مجرد مرحله من مراحله وحلقة في سلسلته ٠ انه يرى التراث التاريخي في الحاضر ، ويدرس التاريخ دراسة مستقبلية ، ويعـي القوى والصراعات الآنية من حيث اتجاهاتها في المستقبل ٠ فهو لا يغفر للحركة ان تلهـث وراء الاحداث لتلحق بها وتحللها ، وانما يتيح لها أن ترى في اتجاهات الاحداث، من قبل ان تقع ، صورة المستقبل لتعد له عدتها ٠ ان الشمول التاريخي يمنـح الحركة جذورا عميقة تنطلق منها ، ويفتح امامها آفاقا واسعة تنطلق اليها ٠ انه يمنح الحركة الوعي على انها بنت التاريخ ، من اجل ان يصنع منها صانعا للتاريخ ٠ ويعبر الاستاذ ميشيل عفلق عن هذا المعنى في كلمات قصيرة رائعة معبرة ، حين يقول « ان هذه النظرة وهذا الموقف من التراث ٠٠٠ لم يكن موقفا تفسيريا للماضي بقدر ما كان موقفا ثوريا من الحاضـر ورؤية حضاريـة للمستقبل » ٠ كما يقول ايضا « ان نجاح هذه المهمة ـ مهمة التصحيح والقضاء على مظاهر التردي ـ يتوقف آخر الامر على مدى وعي الثورة العربية لذاتهـا وللظروف والقوى المحيطة بها ٠ كما يتوقف على النتيجة العملية لهذا الوعي ، وهي قدرة الثورة على السيطرة على الظروف ، والتخطيط للمستقبل المستوعب لتخطيط الاعداء ٠ فالثورة هي دوما مهاجمة ، بمعنى انها تفهم المستقبل ، وتسهم الى حد ما في خلقه ، فتقدر ما يحتوي عليه من امكانات مساعدة او معوقات ، وتعمل وتتصرف بشكل يمكنها من استغلال امكانات المساعدة ، واتقاء المعوقات او تذليلها والتغلب عليها» ٠

ان شمول النظرة ليس لازمة من لوازم اي حركة ولو كانـت قوميـة

واشتراكية . ان خصائص الحركة الاساسية ، العامة منهـا والخـاصة ، مفروضة عليها فرضا بحكم قوانين التاريخ . اما التوصل الى شمول النظرة فهو عمل واع وارادي وخلاق وابداعي قد يتاح لبعض الحركات دون بعض، ويتجاوز ضرورات التاريخ وحتمياته . ان وعي الذات وعمق الممارسة ونمـو العلاقة الجدلية بين الوعي والممارسة يهيء السبيل لولادة هذه النظرة ولكنـه لا يحتمها . ان ميلاد هذه النظرة عمل ذاتي وعبقري متصل باستلهام التاريخ ولكنه الهام وحدس يتجاوز التاريخ .

ان الحركة التي تقف عند حد الضرورة التاريخية لا تتجاوزها هي في خط التاريخ . ولكنها حركة انعكاسية ، براغماتية ، آنية قاصرة عن التطلـع الواعي الى مستقبل متسع الافاق ، معرضة للانحراف ، للتغيير والتبديل ، بل للانقلاب على ذاتها وعلى غاياتها . فاذا ما اكتسبـت النظرة الشاملة ، وتجاوزت الضرورة التاريخية المحتمة ، واتسع افقها آنيا وتاريخيـا ، فقد خلقت لنفسها ايديولوجية ، ومنطقت اهدافها ووسائلها ، واغنت نفسها بثروة من العقل والايمان والقدرة على الابداع ، واستعلت على الحتمية التاريخيـة المحضة ، وأحلت ارادتها الخلاقة الى جانبها ، ليكون بينها وبين التاريخ صلة أخذ وعطاء ، بدل ان تكون صلة اخذ فحسب .

ان مثل هذه الحركة ، حين تتجاوز آنيتها وانعكاسيتها ، وتتحول الى عمل ايجابي ارادي خلاق واع وعقلاني ، تصبح حركة متكاملة متنامية تفور بالحياة ، وتغتني بالقدرة على الصمود ، وعلى مواجهة كل المواقف . فلا يملأ نفسها الغرور اذا ما انتصرت ، ولا تنزل الى دركات اليأس اذا ما انتكست . لانها تعلم ان النصر لن يكون اخر الطريق بل مبتداه . ولانها تعلم ان الانتكاسة لا تعني النهاية بل تعني منطلقا الى مستوى جديد من التجربة النضالية اكثـر وعيا ، واغنى عطاء ، بذلك تصبح النكسة مثل النصر ، خطوة جديدة في بناء المستقبل الكبيـر .

[٥]

التحدي المستقبلي

التحدي المستقبلي قوة جاذبة :

التحديات حين تخلق ردود فعلها فهي قوى « دافعة » • تسبق رد الفعل زمنيا وتكون سبب وجوده • فاذا ارتفع مستوى رد الفعل الى المستوى الايجابي العقلاني الثوري فهو لا يكتفي بان يرد على التحدي بنقضه ونفيه ، بل يتطلع الى ما هو أبعد من المنفي ذاته ، الى خلق تركيب جديد ، مستقبل جديد، يجعل التحدي نفسه مستحيل الوقوع • حينئذاك يكتسب مجتمع « المستقبل » المطموح اليه خصائص ذاتية لم تكن في مادة الصراع نفسها ، ولكنها من نبت هذا الصراع ومن ثماره •

هذه الغايات والاهداف الجديدة المطموح اليها ، وان تكن مرتبطة بتحديات الماضي والحاضر التي ولدتها في احضانها ، فهي متجاوزة لها ، متطلعة الى مستقبل جديد ، « مجذوبة » اليه بقوة « التحدي المستقبلي » ، بحيث تصبح هذه الغايات نفسها « قوة جاذبة » لاي انسان يناضل من اجل تحقيقها • بذلك تصبح صورة المستقبل هذه هي « التحدي الايجابي » الذي يتطلب التحقيق ، وتكمل بذلك صورة « التحدي السلبي » الذي يستدعي الرفض ، والاستجابة لمثل هذا التحدي لا يمكن ان تكون الا عملا عقلانيا واعيا ، شامل النظرة ، متضمنا موقفا فلسفيا واخلاقيا من الانسان ومن المجتمع ومن الوجود •

ان الحركات الاشتراكية الرافضة للتسلط الرأسمالي الصناعي قد سبقت نظرية ماركس بعشرات السنين • ولكنها كانت جميعا ردود فعل انعكاسية لتحديات المجتمع الطبقي الصناعي ، خالية من اي رد فعل ايجابي بناء ، بعضها اتجه الى رفض الثورة الصناعية قاطبة • وبعضها اختار حلولا تعاونية • وبعضها قدم حلولا اقتصادية دون ان يقترب من النظام السياسي • بعضها دعا الى الثورة • وبعضها الى العصيان والاضراب • وبعضها الى الانقلاب • وبعضها اكتفى بالوعظ والارشاد •

ولقد وصف ماركس هذه الحركات جميعا « بالطوباوية » لانها افتقرت الى الرؤية العلمية الشاملة التي تتجاوز مستوى النفي والرفض الى مستوى تصور التركيب الجديد الذي يحل محل الوضع القائم • وهذا ما فعله ماركس •

فمن خلال الوعي الكامل للتناقض الاجتماعي ، والدراسة العلمية للتحدي وقوانينه ، ولرد الفعل وقوانينه ، خلق ماركس التحدي المستقبلي الذي بدونه يصبح كل رد فعل آنيا ،قاصرا عن تلبية الرغبات الدفينة المتطلعة الى مجتمع جديد يغير معطيات المجتمع المتحدي تغييرا أساسيا وأصيلا وجذريا ٠

وجاء لينين من بعده لاستكمال هذا الدور بعد ان حول « الماركسون الاورتوذكس » نظرة ماركس الحية الى دغمائية جامدة ، والى مستوى قوانين العلوم الطبيعية الحتمية ، وبعد أن انتهوا عمليا الى اعفاء البروليتاريا من دورها النضالي ، حين ظنوا انه ليس على البروليتاريا سوى ان تنتظر اللحظة الحاسمة التي تنضج فيها التناقضات حسب القوانين « العلمية » لتنقض على النظام الرأسمالي انقضاضا خفيفا لطيفا لا يكلفها اكثر مما يكلف القابلة ولادة المولود ، وحين ظنوا ان البروليتاريا ، جميع البروليتاريا ، بحكم انتمائها الطبقي وحده ، سوف تقوم ، حسب القوانين « العلمية » بالمهمة التاريخية الملقاة على عاتقها بحكم الضرورة الحتمية ٠ ان هذا الذي فعله الماركسيون الارثوذكس رد الماركسية الى مستوى الانفعال الانعكاسي ، حين افقدها حيويتها وروحها ، وجعلها قانونا طبيعيا ، وحين آمن بالحتمية الميكانيكية للتاريخ ، وحتمية الاستجابة الميكانيكية للبروليتاريا ٠ بذلك أفقد المستقبل قوة تحديه حين قدمه للبروليتاريا من حيث هو آت لا ريب فيه ، وأفقد البروليتاريا نضاليتها وفعاليتها وثوريتها وارادتها الخلاقة ٠

ادرك لينين ان الماركسية الحية الفاعلة شيء غير هذا وان رد الفعل الواعي المتصل بتحدي المستقبل شيء غير ميكانيكية المدرسة الارثوذكسية وحتمياتها واستسلامها للاقدار ٠ ادرك القوة الدافعة عند البروليتاريا حين تجوع وحين تستعبد وحين يسرق جهدها ٠ ولكنه أدرك ايضا ان هذه القوة تدفعها الى أن تعمل شيئا ، ولكنها لا تدفعها ، بالضرورة ، الى مستوى نقض نظام الحكم ونظام الانتاج ونظام العلاقات الانتاجية ، وابداع نظام جديد للحكم وللانتاج وللعلاقات ٠ ادرك هذا وشرح في كتابه « ما العمل » كيف أن البروليتاريا ، اذا تركت لردود فعلها الانعكاسية ، من غير وعي ونظرة مستقبلية بالاضافة الى الانضباط والتنظيم ، فان نضالها قد يتخذ شكلا نقابيا محضا ، أي شكلا يقنع من الحل الكلي بجزئيات تستجيب لحاجاته اليومية العاجلة فحسب ٠ وكيف ان تحقيق رد الفعل العقلاني الثوري ، من اجل اقامة مجتمع جديد قائم على نفي الرأسمالية والبروليتارية معا يقتضي قيادة وتنظيما ووعيا ونضالا ، ويعتمد على توفر ظروف موضوعية ، ولكنه يتجاوز هذه جميعا باستعمال الارادة الذاتية الطوعية ، الواعية للظروف الموضوعية من جهة وللنظرة المستقبلية من جهة اخرى ٠

بذلك أعطى لينين لكل الثوريين من بعده درسا في معنى رد الفعل الواعي ، وفي ربط حل مشاكل اليوم بتحديات المستقبل ، وميز بين النظرة الاصلاحية المقتصرة على المشاكل الآنية ، والنظرة الشاملة الثورية المستقبلية. فهذه النظرة وحدها هي التي ترفض الواقع ، وترفض الاصلاحات الجزئية التي يقدمها الواقع كلما اضطر الى تقديمها ، ادراكا منها بان الجزئيات التي تشكو منها ليست سوى اعراض ومظاهر ، من كل هو مصدر الفساد الحقيقي، وبأن الحل الجزئي لا يمكن ان يصل الى عمق الحل الكلي ، ولا يغير مصدر فساد الواقع .

ان العالم الثالث المصاب بكل آفات الدنيا ، من استعمار الى تجزئة الى اقليمية ، الى استغلال اقطاعي وبورجوازي ودولي ، الى فقر وجهل ومرض ، الى تخلف اقتصادي واجتماعي وحضاري ، عاجز عن معالجة كل من هذه الادواء جزئيا . وهو مضطر الى أن يرى ويلمس الصلة الجامعة بينها جميعا ، ومضطر الى أن يرفض هذا الواقع ، لا في جزئياته الصغيرة المبعثرة ، بل في كليته .

ولا يتأتى له هذا الا بعد تحليل واع علمي ثوري عميق لمعطيات المجتمع القائم . والانتقال من هذا الى البديل النقيض ، الى صورة مستقبلية متحدية جاذبة . الى مستقبل لا تكون صفاته سلبية ، وانما يكون ذا صفات ايجابية. مستقبل لا توصف الامة فيه بانها « غير مجزأة » وانما توصف بانها « امة واحدة » . ولا يوصف المجتمع فيه بان « غير مستغل » بل بانه « اشتراكي » . ولا يوصف الانسان فيه بانه غير مكبوت ولا مستعبد بل بانه « حر » .

ان وجود هذا التحدي المستقبلي ، وتوجيهه الجاذب لحركة النضال ، لا يعني ان الحركة ترفض ان تعالج المشاكل الجزئية ، او ترفض ان تمرحل قضاياها . على الضد من ذلك ، فالنظرة المستقبلية هي القادرة على ان تقدم الحلول السليمة للمشاكل الجزئية والآنية . وحلولها انما تكون سليمة لانها جزء من كل ، لا جزء مبتسر قائم بذاته قد ينقلب هو نفسه ليكون عقبة في سبيل حل ما هو اكثر اهمية في تقرير المصير .

ان التحدي المستقبلي الجاذب ، على ضد التحديات الدافعة ، لا يكتفي بان يرشدنا الى ما لا نريد ، وانما هو دليلنا لان نعرف مانريد . دليلنا لمعرفة المستقبل الذي نريد ، ولمعرفة السبيل الذي يجب ان نسلك، والوسيلة التي يجب ان نستعمل .

مستقبل العالم الثالث وعالم المستقبل :

للانسان ان يحلم بمستقبل يبنيه حسب هواه ومشيئته · ولكن مثلما ان الانسان محكوم بقيود وضعه الحاضر ، غير مختار لتحدياته ، ولا منتق لردود فعله ، وانما هي مفروضة عليه من تاريخه ، فكذلك مستقبله محكوم الى حد كبير بالمعارك التي يخوضها اليوم · ارادته تكمل رسالته ، او تحرفها ، او ترتد بها ، او تبدع ما هو جديد فيها · ولكن دون ان تفقد جذورها في معارك الماضي والحاضر ، دون ان تبتسر هذا المستقبل ابتسارا · فالمستقبل لا يولد من عدم ، وانما هو استكمال لصراعات اليوم ، ولكن في صعيد جديد · هو مرتبط بالحاضر ارتباطا جدليا ، ينفيه ليحل محله ، مثلما ان الحاضر مرتبط بالماضي جدليا ، ينفيه ويحل محله ·

فالنظرة المستقبلية التي عنينا ليست خلقا جديدا ، ولا ابداعا من فراغ · انما هي النظرة التاريخية التي تغوص في اعماق معارك الحاضر ، لتستشف مسارها التاريخي ، فتعي ماضيها ، وتعي حقيقتها وحقيقة القوى المتراجعة والقوى المتقدمة فيها ، لتعي ، في نفس الوقت ، امتدادها المستقبلي ·

هذه النظرة تنقذ الموقف الآني من نظرته البراغماتية ، فتعطيه امتدادا الى خلف وامتدادا الى الامام ، وتمنحه بعدا تاريخيا · فيكون المستقبل وليد الحاضر ، مثلما أن الحاضر وليد الماضي · ولكن كما ان الحاضر ليس هو الماضي ، لانه ليس امتداده المستقيم بل امتداده الجدلي الذي ينفيه ، كذلك فالمستقبل ليس الحاضر · ولكن النظرة المستقبلية في الحاضر ترسم حدود المستقبل ·

وهذا ما يعنيه القول بان معارك التحرر الانساني هي في « مسار التاريخ » · وان الاستعمار والاستعباد هو « ضد مسار التاريخ » · اي أن شعارات اليوم التي يناضل الانسان من اجل تحقيقها ، والمفروضة في الواقع بحكم الظروف الموضوعية التاريخية ، هي واقع المستقبل ، هي المستقبل نفسه · والواقع الذي توجه ضده هذه الشعارات سيصبح « ماضيا » في المستقبل ·

ان شعوب العالم الثالث تناضل من اجل هويتها القومية ووحدة هذه الهوية · وتناضل من اجل مجتمع اشتراكي تعم فيه المساواة ويعمه الرخاء · وتناضل من اجل مجتمع حديث متقدم ماديا متمتع بالقيم الانسانية في نفس الوقت · وتناضل من اجل مواطن حر قادر على استغلال طاقاته وعلى تنمية مواهبه وتحقيق ذاته · وتناضل من اجل عالم حر متاخ تسوده علاقات

التكافؤ والعدالة ويعمه السلام · ان اهداف النضال هذه هي نفسها جوانب التحدي المستقبلي ·

ولكن من أجل ان تتحول اهدافنا المستقبلية من صعيد الاهداف الجاذبة الى صعيد واقع المستقبل نفسه ، فلا يكفي ان تنبع من واقع معاركنا الحالية ومن تطلعاتنا المستقبلية · انها يجب أن تجد في عالم المستقبل التربة الخصبة التي تلائمها وتمدها بامكانات التحقق والبقاء والنمو · اي انها يجب ان تجد ان المستقبل متطلع اليها بالفعل ، مثلما هي متطلعة اليه ، ان تجد ان العالم كله، لا العالم الثالث فحسب ، متطلع الى نفس الاهداف وساع الى تحقيقها · ان تجد ان « الظروف الموضوعية » للعالم ، عالم المستقبل ، مهيأة من اجل ان تحول التطلع الى واقع فعلي ·

وبسبب ان العالم المصنع الذي تناضل شعوب العالم الثالث ضد استعماره واستغلاله واستعباده هو خصم هذه الاهداف فانه هو نفسه الهدف الذي يوجه ضد اوضاعه النضال ، وهو نفسه المعرض لانقلاب تاريخي على ذاته ، لا يقل عن الانقلاب التاريخي الذي تصنعه شعوب العالم الثالث لنفسها · لان كل خطوة يخطوها العالم الثالث في طريق تحقيق اهدافه ، تقابلها خطوة يخطوها العالم المصنع الى الوراء في طريق تراجعه · فالعالم الثالث ، في بناء المستقبل، هو العامل المؤثر في التغيير · ولكن العالم المصنع هو المتاثر بهذا التغيير · ومثلما ان حركات التحرر من الاستعمار انما تحقق اهدافها حين تخلق في البلد المستعمر شعورا وتيارا وحركات مؤمنة بعدم جدوى الاستمرار في الاستعمار، فكذلك يحقق العالم الثالث اهدافه المستقبلية حين يدفع شعوب العالم المصنع المستعمر الى الايمان بعدم جدوى الاستمرار في عبادة الاهداف الحالية والى العمل على وجوب الاستعاضة عنها بما هو أجدى وانفع للعالم ، واكثر اسعادا للانسان وتحقيقا لانسانيته ·

ولعل الذي يمعن النظر في ما يدور في العالم من حوله ، ويرى اتجاه التطورات الكبيرة الجارية فيه ، يدرك الى اي مدى تمكنت قوى العالم الثالث من زعزعة اركان المعطيات الغربية التي كانت الى وقت قصير تعتبر في عداد المسلمات ، والى أي مدى تمكنت من ان تسمع صوتها وان تسمع رجع الصدى في داخل المجتمعات الغربية نفسها · ولعل الذي فعله النضال الفيتنامي في داخل الولايات المتحدة لا يقل شأنا واثرا عما فعله في فيتنام نفسها ·

والحقيقة البارزة الان هي انه على رغم ان الربع الثالث من هذا

القرن العشرين كان يمثل ذروة امتداد وتوسع الامبريالية الاميركية ، فان نهاية هذا الربع بدأت تشهد بوادر سقوط هذه الامبريالية ، وبوادر سقوط كثير من مسلماتهـــا ٠

ولعل اهم ما سبب هذا التغير هو ارتداد اهم مسلمتين في الحضـــارة الغربية على نفسيهما ، الثورة التكنولوجية ، والامتداد الامبريالي ٠

ارتداد الثورة التكنولوجية :

ان اعظم انتصارات الثورة الصناعية هو تحقيق الثـورة العلميـــة التكنولوجية ، هذه الثورة التي تبدت في اكتشافاتها المتصلة في عالم الجزئيات اللامتناهية في الصغر ، وفي عالم الفضاء اللامتناهي في الكبـــر ، وفي عالم « السيبرنائية » اللامتناهي المركب ، كما يسميه روجيه غاردوي ، وما ادى اليه ذلك كله من تطبيقات فتحت امام الانسان آفاقا وفجرت قوى انتاجية وعلمية لم يكن يحلم بها منذ امد قصير ٠ بل ان بعض العلماء يعتقدون ان كل ما مر علـى تاريخ الانسانية ، منذ اختراع النار والدولاب والزراعة ، دور ، وان هذه الثورة دور آخر ٠

ولكن برغم ان هذه الثورة التكنولوجية هي قمة انتصار الثورة الصناعية فانها هي نفسها اكبر سلاح يوجه ضد علاقات هذه الثورة ومسلماتها التي ما تزال سائدة حتى اليوم ، وهي نفسها التي تهدد بانهيـــار الاسس الاجتماعيـة التي تقوم عليها ، وهي نفسها التي تبشر بقيام عصر جديد من انتصار الانسان على الآلة وعلى الاغتراب الانساني المتصل بالآلة ٠ ذلك انها ، حين فتحت ، بواسطة التقدم العلمي ، عصرا جديدا من انتصار الآلة المركبة على الآلـــة البسيطة ، فتحت عصرا جديدا من انتصار الانسان على الطبيعة ، كما فتحت، في نفس الوقت ، قدرات جديدة امام الآلة ومالكي الآلة للتحكم في حياة الناس ومصائرهم ٠ فعملقت تناقضا بين الآلة والانسان كانت جذوره قد ابتدات في عصر الثورة الميكانيكية ، ولكنها انمـــا بلغـــت اوجها في عصـــر الثورة التكنولوجية ٠

ان الانسان يجد نفسه الآن مسيطرا على الطبيعة ، بواسطة علمــه ، وبواسطة الآلة التي اكتشفها واخترعها هو نفسه ٠ ولكنه يجد نفسه ، في نفس الوقت ، مستعبدا لهذه الآلة ، مستملكا لها ، في كل اوجه حياته ٠ وبعد ان كان مالكو الآلة يستعبدون بها طبقة من الناس ، هي طبقة العمال ، اصبح مالكو الآلة الجديدة او المسيطرون عليها ، يستعبدون مجتمعا بكامله ٠ وحيـــن قدمت

الثورة التكنولوجية للانسان مفتاح حريته ، شدت وثاق قيود اغترابه ٠

لذلك كان من اثر ولادة القوى الانتاجية والعلمية الجديدة ان تعمقت تناقضات في المجتمع ، وولدت صراعات ، طرحت امـــام الانسان مشاكـل جديدة لم تعد تتعلق بكيانه الطبقي فحسب ، كمـــا كان الشان في الثورة الميكانيكية ، بل بكيانه من حيث هو انسان ٠ ولذلك ايضا ، فنحن نشهد ، لاول مرة ، تماثلاً كبيرا في التناقضات المطروحة حاليا في مجيتمعات العالم المصنع المتقدم ، سواء كانت جزءا من العالم الرأسمالي او من العالم الاشتراكي ، على رغم الاختلاف الكبير بين العالمين في العلاقات الانتاجية السائدة ٠ فتناقض حرية الانسان مع سيطرة الآلة الحديثة تناقض واحد في الحالين ، على رغـــم ان « المسيطر » على الآلة فيالعالم الرأسمالي هو صاحب رأس المال ، وان « المسيطر » في العالم الاشتراكي القائم حاليا هو « الدولـــة » او « الحزب ـ الدولـــة » ٠

ومن هنا ، وعلى رغم اختلاف الدوافع الآنية في كل حالة ، لا بد ان نلاحظ العلاقة الصميمة القائمة بين حركات الزنوج ، وحركة الحقوق المدنية ، وحركة معارضة الحرب ، وحركات السلام ، والحب ، والزهور ، ومقاومة تلـــوث البيئة ، والثورات الطلابية ، في العالم الرأسمالي ، وبين حركـات حقـــوق الانسان ، والحركات العمالية والفلاحية ، وحركات المثقفين والعلماء والفنانين، وحركات « الفن الحر » ، ودعوات « الاشتراكية الانسانية » وما الى ذلك ، في العالم الاشتراكي ونجاحه في الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا ٠

ان مشكلة التناقض الحديثة ، في العالم المصنع المتقدم ، هي مشكلة حرية الانسان امام طغيان تلك الآلة الجبارة ، المستندة الى الآلة التكنولوجية ، المسماة « النظام » او « الدولة » او « المؤسسة » او « المجتمع » ٠ ولقد كانت هـــذه المشكلة المطروحة في العصر الصناعي الميكانيكي ٠ وكانت نواة اساسيـــة لابحاث ماركس في « الاغتراب الانساني » ٠ ولكنها لم تبلغ في يوم من الايـــام الحدة التي بلغتها في هذا العصر المعاصر ٠ واذا كانت طبيعة التناقضـــات الضخمة القائمة في المجتمع الرأسمالي المتقدم قد دفعت معظم الحركـــات الاحتجاجية الى رفض المجتمع الآلي برمته ، والى الدعوة تارة الى العودة الى الطبيعة ، والى الحب الحر ، والى الموسيقى البدائية الصاخبة ، والى حيـاة مشتركة فطرية ، والى التعليم الحر ، فان طبيعة المجتمع الاشتراكي ، الهادف ماركسيا الى خلق الانسان النموذجي ضمن الحضارة التكنولوجية ، والمعاكس ستالينيا لهذا الهدف في التطبيق ، لونت هذه الحركات بلون آخر ، حين جعلت مطلبها الاساسي « حرية الانسان » و « القيم الانسانية » والعودة الى الماركسية الانسانيـــة ٠

ولكن « حرية الانسان » ، واسترجاع « القيم الانسانية » ، وفتح المجالات امام النمو الكامل لقوى الانسان الخلاقة المبدعة ، والتطلع الى تحقيق السعادة الانسانية الذاتية ، وتجنب اسباب الاغتراب الانساني مهما يكن مصدرها ، ليكون الانسان الجديد « مناضلا في الثورة ضد جميع الاغترابات ، وشاعرا يغني الابداع ضد الجمود الآلي » ، كما يقول غاردوي، هذه جميعا تظل هي الهدف الاساسي لحركات الاحتجاج في كلا العالمين وان اختلفت مظاهرها ·

ان مشاكل الثورة التكنولوجية مشاكل عديدة ومتضاربة وممتدة الى جميع ميادين الحياة · فمضاعفة امكانات الانتاج ، والتغيرات السريعة في السلع المنتجة ، والادوات التي يستعملها الانسان ، ، وسيطرة اجهزة الدعاية والاعلان التكنولوجية المتطورة على العقلية الانسانية ، وخلقها حاجات لم تكن قبل ذلك حاجات ، وتحويلها الكماليات الى ضروريات ، كل ذلك ادى الى تغير متسارع في شكل الحياة الانسانية ، اصبح الانسان معها لا يستقر « على حال من القلق » ، واصبحت شروط حياته ترسم له من الخارج ، لا من ميوله ولا من احتياجاته ·

ولقد ضاعفت هذه الثورة التكنولوجية من استعمالها لموارد الطبيعة المتاحة لها مضاعفة سريعة جدا حتى اصبح السباق بين استمرار توفر هذه المواد وبين استهلاكها سباقا حادا ومتوازيا يهدد بالخطر · وعلى رغم تفاؤل بعض المفكرين من قدرة الثورة التكنولوجية على صنع اي مواد تريدها ، يخشى آخرون من نضوب هذه المواد وتحول الكرة الارضية الى خراب شامل · يقول يوثانت ، امين عام الامم المتحدة السابق « ان الحقيقة الاساسية المذهلة التي تطبع الاقتصاد المتقدم اليوم هي قدرته على الحصول ، باقصر الطرق ، على نوع الموارد وكميتها التي يقرر ان يحصل عليها · وان الموارد لم تعد هي التي تحد اتخاذ القرارات ، وانما القرارات هي التي تصنع الموارد · وهذا هو التغير الثوري الاساسي ، بل لعله اكثر التغيرات التي عرفها الانسان ثورية » · ولكن هارفي ويلر ، في كتابه « سياسة الثورات » يقول ، مستندا الى ما يدعوه « قانون الخط المقارب البيئي » بأن معدل نضوب اي مورد يتناسب مع معدل القدرة التكنولوجية على استغلال ذلك المورد · وهذا يعني انه كلما ازدادت القدرة التكنولوجية ، ازداد نضوب الموارد المتوفرة · وان هذا لن يؤدي الى اقل من كارثة عالمية · لان نضوب الموارد لن يقتصر على ما هو في باطن الارض ، بل سيشمل ما هو على وجهها وما في البحر والسماء والفضاء كذلك ·

والتكنولوجيا ليست مجرد آلات ومصانع · انها ايضا ادارة معتمدة على الآلات الحاسبة ، تتدخل في حياة الانسان ، تجعله رقما ، تنظم له عمله ، واوقات فراغه وتطلعاته ومزاجه وقراراته واطلاعه ، بل وتنتخب له زوجته ، بكل وسائل الادارة والاعلام الحديثة المتقدمة ، وتخضع هذا كله لدراسات « اجتماعية » احصائية دقيقة ، حتى مشاكل العمال والعمل، وطلباتهم وميولهم وكيفية ارضائهم وامتصاص نقمتهم ورسم تطلعاتهم وطموحاتهم والاستجابة لها ، اصبحت تعالج تكنولوجيا ، وتوجه توجيها انعكاسيا مبرمجا « مشروطا » بحيث تمكنت المؤسسات الفوقية من امتصاص الطبقة ومن تذويبها في المؤسسات نفسها ، حتى فقدت الطبقة العمالية روحها الثورية ، بل تحولت الى طبقة اكثر رجعية ومحافظة من الطبقات المتنفذة نفسها ·

وقضت التكنولوجيا على المعنى الحقيقي للديموقراطية · ذلك ان نتائج العلم والتكنولوجيا ، ومن يسيطر على ادواتهما وغاياتهما ، اصبحت هي صاحبة الكلمة العليا في القرارات · وليس من السهل معارضة نتائج العلم ولا نتائج التكنولوجيا · فالقرارات الخطيرة التي تقررها مؤسسات العلم والبحث، ومصانع الانتاج الآلي قرارات فوق مستوى علم الانسان العادي بها · والناس تقرر الموافقة عليها لانها ترضخ لمقتضيات العلم والدراسة ، ولمن يقف وراء اقرارها من « مراكز القوى » المحيطة بمجالس النواب والشيوخ والحكومة ، دون ان يعرفوا مبلغ خطورتها على حياتهم او على بيئتهم ، ودون ان يدركوا الاثار الاجتماعية والانسانية المترتبة على هذه القرارات · ان التعقيد القائم في حياة اليوم تعقيد يتجاوز مستوى الادراك العادي الا اذا تثقف الانسان العادي ثقافة خاصة تجعله في صميم القرارات لا في خارجها ، او الا اذا انتظر حتى تصيبه الشرارات المتطايرة من هذه القرارات بعد فوات أوان معارضتها ·

فاذا اضفنا الى ذلك كله ان هذه التكنولوجيا ، في البلدان الرأسمالية ، هي تكنولوجية لا غاية لها ، وان غايتها الوحيدة ما زالت هي مضاعفة الكسب والربح ، وان هذه المضاعفة تقتضي مضاعفة الاستهلاك ، في الداخل وفي الخارج معا ، وانها لا تجد مجالا للتقدم ارحب ولا اوسع ولا ادعى للسباق المتواصل كما تجد في ميدان الحرب والاداة الحربية وفي محاولة السيطرة على العالم بجميع الوسائل ، أدركنا تلك الرابطة القوية التي تربط هذا التقدم التكنولوجي العشوائي بالحرب وبالامبريالية ، وادركنا لماذا كان الثائرون على تسلطها وهيمنتها ، على اختلاف مواقفهم ودوافعهم ، ضد الحرب وضد الامبريالية

في العهد التكنولوجي لم تعد مشكلة الفقر المادي هي مشكلة الانسان الاولى

المتقدم العشوائي
تكنولوجيا بالحرب

في بلد مصنع ، على رغم اعتراف الولايات المتحدة بان ١٧٪ من سكانها يعيشون في فقر مدقع ، وعلى رغم ان ١٠٪ من قوتها العاملة عاطلة عن العمل. وانما مشكلة الانسان الاولى هي الاغتراب الانساني في مجتمع آلي . هذا الاغتراب كان اغترابا بسيطا امام الآلة الميكانيكية في عهد الثورة الصناعية ، فأصبح اغترابا معقدا وشاملا لمجتمع مسير بكامله تكنولوجيا . لقد منح النظام الآلي التكنولوجي الانسان عددا من الاختيارات لم يكن متاحا له من قبل ، ولكن ضمن نظام الآلة لا خارجها . ومن هنا فالخارجون على هذا الاغتراب ، والثائرون على هذا الاستلاب ، لم تعد ثورتهم منصبة على طبقة ، ولا مثلوا هم طبقة محددة بالذات ، وانما ثاروا على نظام مجتمع باكمله ، ومثلوا كل ذي نزعة انسانية لم يستكمل النظام بعد استلابه ، لا سيما بين الطلبة وبين المثقفين .

ان من الواضح ان ليس للانسان ان يعود عن هذا التقدم التكنولوجي الذي حققه . بل ليس للانسان حرية ان يقف من التقدم حيث وصل . فالتقدم العلمي التكنولوجي تقدم انساني في ذاته . وليس للانسان ان يوقف تقدمه بارادته ومشيئته . ولكن العملاق التكنولوجي الذي افلت من القمقم يكاد يبتلع الانسان الذي صنعه والذي افلته . وما لم يقم الانسان ، بعزم وتصميم وارادة جبارة وبحكم تلقيه لنتائج هذا الافلات العشوائي ، بالسيطرة على هذه القوة التي اطلقها هو نفسه ، فانها ستنتهي به وبالعالم الذي يسكنه وبالبيئة التي تحيط به الى الدمار .

ان علائم الثورة على التسلط الاخطبوطي للثورة التكنولوجية ، في العالم المتقدم ، قد بدأت تظهر معالمها باشكال مختلفة . وعلى رغم ان بعضها يكاد يضل السبيل الى انتصاره برفض التكنولوجيا في ذاتها ، كما فعل الطوباويون قبل ماركس . فان طريق الثورة الاساسي يتضح باستمرار للثوار الحقيقيين . انه طريق سيطرة الانسان على القوى التي اطلقها ليجعلها في خدمته ، وفي خدمة حريته ، وفي خدمة قيمه الانسانية والاخلاقية .

ان المستقبل لن يكون الا مستقبلا تكنولوجيا يسيطر فيه العلم . ولكن هذا المستقبل نفسه هو الذي يحمل في ذاته بذور تحرر الانسان ، كما حمل بذور استعباده . فالتكنولوجيا ليست خيرا في ذاتها ، ولا هي شر في ذاتها. وانما يضع الانسان فيها خيرا او يضع فيها شرا بالغاية التي يستعملها من اجلها . ولانها هي من صنع الانسان فلن تكون اقوى من الانسان . واذا كان طبيعيا ان تولد الثورة التكنولوجية قبل ان يستطيع الانسان السيطرة على نتائجها . بل قبل ان يقدر مخاطر هذه النتائج ، لان من المستحيل السيطرة

المسبقة على نتائج لم تولد بعد ، فليس من الطبيعي في شيء ان يشهد الانسان استعباده المتواصل على يد التقدم التكنولوجي دون ان يتحرك للثورة على هذا الاستعباد ، وارجح القول ان اداة الثورة في البلدان المصنعة لن تكون ، كما كانت في عهد التصنيع الميكانيكي ، اشد الطبقات فقرا ، بل اشد الناس اغترابا • واشد الناس اغترابا في العهد التكنولوجي هم « ذوو الياقات البيضاء » ، اي المثقفون والفنيون والمهندسون والعلماء والاداريون ، الذين يؤهلهم وعيهم وعملهم لادراك مدى استعبادهم ، وتحاشي هذا الاستعباد •

واذا كانت الثورة ، في بلاد اصبحت سيطرة التكنولوجيا واثارها الاستعبادية فيها حقيقة قائمة ، من الصعوبة بمكان ، فهي لن تكون كذلك في بلاد كبلدان العالم الثالث ما زالت تطرق ابواب التكنولوجيا طرقا خفيفا ، اذا ادركت مخاطر الاستسلام لسيطرتها • ومثلما هي قادرة ، الى حد كبير ، على القفز من مرحلة ما قبل الصناعة الى مرحلة الصناعة المتقدمة ، دونما حاجة الى المرور بكل المراحل التي مر بها التطور الصناعي في البلاد المتقدمة ، فهي قادرة على القفز الى مرحلة « التكنولوجيا الانسانية » دونما حاجة الى المرور في مراحل استعباد التكنولوجيا •

ان بلدان العالم الثالث ، وهي التي كان الانسان والعلاقات الانسانية والقيم الانسانية محور حضاراتها دائما ، والتي في نضالها القومي التحرري عرفت قيمة الانسان مجددا ، واستهدفت تحريره من كل القيود التي تعطل طاقاته وتقزم قيمه وتزيد من اغترابه ، مؤهلة لان تتطلع الى مجتمع يسيطر فيه الانسان على علمه وعلى انتاجه ، بواسطة التكنولوجيا ، قبل ان تعشعش فيها الاثار السلبية للتكنولوجيا ، ومؤهلة لان تتطلع الى مجتمع تكنولوجي يكون في خدمة الانسان ، لا الى مجتمع يكون في خدمة التكنولوجيا •

ارتداد المد الامبريالي :

وكما ان اعظم انتصار للغرب المصنع يهدد بالارتداد على صانعيه ، كذلك فان المد الامبريالي ، الذي اعتبره الغرب المصنع نتيجة طبيعية لتقدمه العلمي والصناعي ، يهدد بالارتداد ، كذلك ، على صانعيه •

لم تعد تطلعات العالم الثالث اليوم قاصرة على التطلع الى الاستقلال السياسي • فقد تجاوزت شعوب هذا العالم تلك المرحلة المتواضعة ، واصبحت تطمح الى تغيير وضعها من حيث هي « موضوع قوى التاريخ » الى ان تكون « صانعة لقوى التاريخ » • وبدأت تتخذ في العالم دورها الطليعي في دفع القوى التحررية ، في داخلها وفي العالم كله ، الى بناء عالم جديد ، وانسان جديد ، وحضارة جديدة •

ان الذين يتطلعون من حولهم في الوقت الحاضر ، لا سيما في وطننا العربي، ويشهدون المد الامبريالي الضخم الذي يسيطر على المنطقة باجمعها الا جزءا هنا وهناك ، سوف ينكرون علينا هذا التفاؤل ، وسوف يضعونه في باب الامنيات . ولكن هذا بالضبط هو الفرق بين من ينظر نظرة مستقبلية ومن يكتفي بالنظر الى توازن القوى القائم في لحظة آنية من لحظات التاريخ الطويل . فالناظر نظرة مستقبلية انما يرى ان « الاستعمار والصهيونية يركزان هجومهما على وطننا العربي ، وبدرجة عالية من الاعداد ، بسبب عاملين ، اولهما ، الوضع العالمي الذي يشهد الآن فترة انتعاش وتفوق مؤقت للانظمة الرأسمالية الاستعمارية بزعامة الولايات المتحدة الاميركية ، والذي يعبر عنه بالتفوق التكنولوجي وبأساليب التآمر . وثانيهما ، اهمية الوطن العربي الاستراتيجية واهمية الثروات النفطية الموجودة فيه . وادراك الاستعمار والصهيونية لامكانات التقدم والثورة الكامنة في الامة العربية . ان المخطط الاستعماري الصهيوني استباق لهذا التقدم المحتوم على المدى البعيد بقصد عرقلة سيره وتأخيره » . كما قال الاستاذ ميشيل عفلق في خطابه في الذكرى الثلاثين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي .

فالناظر نظرة مستقبلية لا يرى الهجمة الشرسة ومظاهر نجاحها فحسب، وانما يرى القوى الكامنة في الشعب العربي ، القادرة « بالنضال الجماهيري الواسع » و « بالنضال العربي الموحد الذي يشمل الوطن العربي او معظم مساحاته » على الانتصار على أصحاب هذه الهجمة ، ويدرك ، موضوعية العوامل التي تؤمن له هذا الانتصار ، سواء في داخل الوطن العربي ذاته ، او في العالم الثالث ، او في الكتلة الاشتراكية ، او في قوى التغيير المتصاعدة في داخل الولايات المتحدة نفسها .

ان الايمان بحتمية انتصار قوى الوطن العربي وقوى العالم الثالث على الامبريالية ليس ايمانا ذاتيا فحسب ، على اهمية الايمان الذاتي في مثل هذه المهمة ، ولكنه ايمان موضوعي ، قائم على معرفة لتصارع قوى التاريخ ، وادراك لقوانينه ، ووعي على متغيرات الحركة القومية في العالم الثالث ومتغيرات المجتمعات الامبريالية نفسها .

اننا حين نشهد صراع العالم الثالث مع الامبريالية اليوم فنحن لا نشهد صورة ثابتة ستاتيكية ،وانما نشهد مرحلة من مراحل الصراع الطويل ، وصورة واحدة من عملية التضاد والتناقض التاريخية الحية ، القائمة بين الشعوب المضطهدة المستغلة وبين الامبريالية . في خلال هذه العملية التاريخية ازيلت اسطورة « رسالة الرجل الابيض » ، وازيلت اسطورة « الاستقلال السياسي » ،

وازيلت اسطورة « الخطر الشيوعي » ، وازيلت اسطورة « حتمية انتصار التفوق التكنولوجي » .

ان الشعوب المضطهدة ، نتيجة للمراس الذي اكتسبته من خلال عمليات النضال الطويلة والعميقة ضد الامبريالية ، قد حققت يقظة قومية ، ووعيا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، لم يقتصر على رفض معطيات الاستعمار ،وعلى رفض التبعية ايا كان لونها ، وعلى رفض الاستغلال الذي هي ضحيته ، بل امتد ليرفض تخلف الذات نفسها من جهة ، وليرفض اسس المجتمع الاستغلالي الاستبدادي كلها من جهة اخرى ، وليتطلع الى بناء مجتمع انساني تسوده علاقات التكامل والتكافؤ والاخوة من جهة ثالثة .

والشعوب المضطهدة تدرك أن أي كسب حققته لم يتحقق بالصدفة ، ولا بسبب من ارتفاع المستوى الخلقي في البلدان الغربية ، ، ولا بعملية اقتناع عقلانية من طرف واحد ، وانما تحقق ، فقط ، حين بلغ النضال القومي أوجه ، وحين بلغ القهر الاستعماري أوجه . وحين ايقنت دول الاستعمار ، وجماهير شعوبها بشكل اخص ، أن تكاليف وقف هذا التيار النضالي ، التكاليف الاقتصادية والبشرية والنفسية ، قد تجاوزت أي فوائد يمكن ان تجنيها من استمرار الاستعمار بالقوة ، اي حين تمكن النضال القومي من استنزاف القدرة الاستعمارية استنزافا وصل الى ذلك الحد الحاسم الذي اهتزت فيه القاعدة المنطقية لمعنى الاستعمار ذاته .

فكما فعل الاستعمار فعله التاريخي في شعوب المستعمرات فخلق فيها انعكاسة اليقظة القومية، فعلت اليقظة القومية فعلها التاريخي في بلدان الاستعمار، فدفعت شعوبها في طريق التحرر من العقلية الاستعمارية ، والتحرر من التعالي الحضاري . ودفعت جماهيرها الى رفض الاستغلال الطبقي الداخلي الذي ما اتيح له ان يمتد هذا المدى الطويل الا اعتمادا على ما كانت تجنيه البورجوازية من مستعمراتها ، وتوزع فتاته على طبقاتها الكادحة ، فتمتص بذلك ثوريتها ونقمتها ، وتجعلها جزءا لا يتجزأ من المؤسسة الحاكمة ، ثم تستغلها لتحمل معها وعنها عبء المحافظة على الاستعمار والمغانم الاستعمارية ، ولتخوض حروبها من اجلها .

واذا كان هذا الانقلاب في العقلية الاستعمارية قد حصل بشكل واضح وقاطع في فرنسا ، بعد الثمن الفادح الذي دفعته في كل من فيتنام والجزائر، فقد حصل بعضه ، بدرجات اقل تحديدا ، في البلدان الاستعمارية كلها . بل وفي الولايات المتحدة نفسها . ولا ريب في ان تصميم الولايات المتحدة في

السبعينات ، بعد خسارتها الفادحة في فيتنام ، على ان لا تخوض حروبها بنفسها وان توكل مثل هذه المهمات الى « قلاعها » الحليفة في كل « الصغيرة » منطقة ، هو ظاهرة من ظواهر هذا الانقلاب من ناحية الاسلوب . ان لم يصل بعد الى مستوى العقلية .

والواقع ان التشاؤم الذي اظهره هربرت ماركوز في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » بصدد انحسار قوى الثورة في الطبقة العاملة في الولايات المتحدة ، واقتصارها على المنبوذين واللامنتمين وامثالهم ، انما كان سببه تركيزه المطلق على التناقضات الداخلية في داخل الولايات المتحدة ، واهماله لاثر حركات التحرر في العالم الثالث في تحريك قوى الثورة في البلد الامبريالي ، ولعل عذره انه كتب كتابه هذا عام ١٩٦٤ في ذروة تنامي القوة الاميركية في العالم وذروة تسلطها المطلق ، وفي ذروة نجاح الامتصاص التكنولوجي للنقمة الداخلية ، واصراره على ان القوى العاملة ، من ذوي الياقات الزرقاء ، هي وحدها التي تتركز فيها قوى النفي للوضع القائم . ولكنه هو نفسه ، وغيره من الكتاب الثوريين ، ادركوا بعد زمن قليل ، وبشكل خاص عند تصاعد المقاومة الفيتنامية المعنى البعيد لهذه المقاومة ، وقدرتها على اظهار استلاب القوى المثقفة رائد العاملة الفنية واغترابها المطلق في ظل النظام، وقدرتها على تحريك قوى الثورة في البلدان الامبريالية نفسها .

هذه العوامل الموضوعية المتغيرة ، اذن ، تجعل ايمان شعوب العالم الثالث بحتمية انتصارها ايمانا « موضوعيا » يتجاوز حدود الايمان الذاتي الاعمى ، ويتجاوز حدود الظروف القائمة الآنية . **فالعالم الثالث ، في غمرة صراعه من اجل تحرير نفسه وبناء مستقبله ، منغمس ، من حيث يدري ولا يدري ، في حركة متصاعدة تاريخيا تستهدف بناء العالم كله على قواعد واسس جديدة . بينما يخوض العالم الامبريالي الراسمالي حربا دفاعية متراجعة تاريخيا .**

ان في العالم الثالث تناقضات ضخمة ما تزال تعوق سيره وتقدمه واداء رسالته . ولكن معوقاته قوى رجعية مصيرها الى الزوال . وقوى العالم الامبريالي ما تزال منتصرة ومتقدمة وممعنة في التقدم . ولكن في داخله تناقضات نابعة من قوى المستقبل المتطلعة الى اهداف قريبة من اهداف القوى التحريرية في العالم الثالث .

نحن اذن ، في بداية هذا الربع الاخير من القرن العشرين ، انما نشهد بدايات خطوط مستقبل جديد ، مهد ارضه وهيأها ارتداد الثورة التكنولوجية على نفسها ، وارتداد الامبريالية على نفسها ، وتلاقي نتائج الارتدادين في بؤرة

واحدة موجهة ضد الحرب والاستغلال والاستعباد والاغتراب الانساني · وسوف نرى ، فيما تبقى من هذا الفصل ، بعض مظاهر هذا العالم الجديد ·

ليس للدول الصغرى مكان :

ليس للدول الصغرى مكان في عالم المستقبل · فالثورة التكنولوجية ، التي هي طابع العصر ، ثورة علمية واسعة · تكاليف ابحاثها العلمية تكاليف تنوء بها حتى الدول والمؤسسات الكبرى · لقد مضى ذلك العصر الذي كانت فيه الاكتشافات والاختراعات العلمية يقوم بها افراد في مختبرات صغيرة متواضعة · واصبح البحث العلمي يجري في مؤسسات ضخمة تحتاج الى تعاون الوف من العلماء والمهندسين والفنيين ، وتخصص له الملايين · والانتاج نفسه ، المبني على هذه البحوث ، اصبح انتاجا في حاجة الى رساميل ضخمة ، وقاعدة علمية وصناعية واسعة ، وكميات من المواد الاولية هائلة ، واسواق للاستهلاك عالمية·

مثل هذا البحث العلمي ومثل هذا الانتاج لم يعد قادرا على تحقيقه الا دول كبرى ذات امكانات طبيعية ضخمة ، وموارد هائلة ، وثروات دفينة ، وقاعدة علمية واسعة مختارة من عدد كبير من السكان ، بل وقدرة على استجلاب وامتصاص العلماء من كل انحاء العالم ·

ان الدول الصغرى ، حتى الدول التي كانت قبل ربع قرن فحسب « لا تغيب عن ممتلكاتها الشمس » اصبحت دولا من الدرجة الثانية ، مهما بلغ تقدمها الاقتصادي والتكنولوجي . وفقدت كثيرا من مظاهر استقلالها وسيادتها التي كانت تعتبر اساسية في القرن التاسع عشر . واضطرت . من اجل ان تبقي على وجودها نفسه . الى احد اختيارين . فاما الاشترات في تحالفات مع احدى الدولتين الكبريين مع فقدان الاستقلال الذاتي والاعتراف بالتصنيف في الدرجة الثانية من الدول . واما الدخول في «كتل» و «وحدات» و «اسواق مشتركة» ، تجمع امكاناتها مع امكانات دول اخرى مماثلة وتوحدها لتجعل منها شيئا قريبا من مستوى الدول الكبيرة ·

ونحن نشهد في اوربا الغربية اليوم ظاهرة معاكسة لما كان شائعا فيها في القرن التاسع عشر · فبينما اتجهت القوميات الصغيرة في الدول الجامعة في القرن الماضي الى الانفصال عن « الامبراطوريات » · والسعي الى الاستقلالات الصغرى . بدأت الدول الاوربية الكبرى نفسها اتجاها جديدا نحو تجاوز الحدود التاريخية للقوميات . واقامة وحدة اقتصادية ووحدة عسكرية ووحدة سياسية فيما بينها . على رغم ان حربا عالمية كبرى قد قامت بين هذه الدول منذ زمن

قصير • وهكذا اصبح التطلع الى « لم شمل » القوميات الاوربية الكبرى والصغرى في وحدة شاملة تجمع امكاناتها بعضها الى بعض من اجل « البقاء » في هذا العالم الذي أصبحت فيه القدرة على البقاء تقاس بحجم الامكانات المتاحة اصبح هو اتجاه اليوم المتطلع الى المستقبل •

يقول جورج بول في كتابه « نظام القوة » ان « المجتمعات المتماسكة التي لا يقل عدد سكانها عن مائتي مليون ، والتي لا يقل دخلها القومي عن ثلاثمائة الف مليون دولار ، هي وحدها التي يمكن ان تدعي لنفسها مركزا قياديا بين قوى العالم » فالقوة لم تعد تقاس بمعيار عسكري محض ، وانما تقاس بالامكانات البشرية والعلمية والتقنية والادارية والطبيعية ، وبالقدرة على استخدامها وتنميتها وتطويرها • فلا المانيا ، اغنى دول اوربا الغربية واكثرها تقدما علميا ، ولا بريطانيا ، اعرق دول اوربا الغربية في الثورة العلمية والصناعية ، بقادرتين على اللحاق بتكاليف البحث العلمي الحديث ، والانتاج الضخم المرتبط بالثورة التكنولوجية المعاصرة • ولقد تقدم البحث العلمي والانتاج الاقتصادي في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية تقدما اذهل العالم • ومع ذلك فهي في حاجة كبرى الى أن تعتمد على الولايات المتحدة اعتمادا كبيرا لحمايتها وحماية اسواقها ، ومضطرة الى الرضوخ ، في كثير من الاحيان ، لارادتها ولسيطرتها •

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية وليس في العالم الا قوتان كبيرتان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، استقطبتا النفوذ العالمي كله ، ولكن هذا الاستقطاب كان لا بد ان يقود بقية دول العالم الى اعادة النظر في معطياتها التقليدية ، وان يقودها الى الاتجاه الوحيد الذي يفرضه تطور العلم والتكنولوجيا اتجاه تأليف وحدات من دول كانت مستقلة عن بعضها ، مع التنازل عن بعض مظاهر السيادة الفردية للوحدة الكبرى ، لتتمكن من المحافظة على مستواها وتفتيت هذا الاستقطاب واضعاف قوته • بذلك تتبلور قوى العالم في مجموعات كبرى هي وحدها ، لا العدد الكبير من الدول الصغرى المفتتة ، قادرة على الوقوف على اقدامها ، قادرة على التعامل مع العالم بثقة وقوة ، قادرة على استغلال امكاناتها وطاقاتها •

لم تكن الصين ، الى عهد قريب جدا ، الا دولة متخلفة بين الدول المتخلفة • ولقد استهان جورج بول في كتابه المذكور الصادر عام ١٩٦٨ بقدرة الصين على تحسين وضع قوتها العالمية بدعوى ان « ميزانيات الدفاع للدولتين الكبريين تتزايد في قيمها المطلقة باسرع مما يتزايد الاقتصاد الصيني كله ، وان الولايات المتحدة وحدها تنفق سنويا على مؤسساتها العسكرية اكثر من الانتاج القومي

الاجمالي الصيني كله » • ومع ذلك فان من الواضح ان دولة كالصين تبلغ مساحتها عشرة ملايين كيلومتر مربع ويناهز سكانها الثمانمائة مليون نسمة ، ومواردها المعدنية والزراعية والبشرية ضخمة لم يستغل معظمها بعد ،وهي سائرة في طريق التصنيع والتقدم العلمي والتكنولوجي سيرا حثيثا ، مؤهلة لان تكون ثالث قوة في العالم ، لا سيما اذا تعثرت الوحدة الاوروبية الغربية •

في عالم كالذي نعيش فيه ، والذي نتجه اليه ، لا مجال للحياة الا في وحدات سياسية كبرى • واية وحدة سياسية صغيرة – وصغيرة في هذا المجال تشمل الخمسين مليونا من السكان بل والمائة مليون – لا خيار لها غير ان تكون ذيلا لدولة كبيرة ، او ان تعرض نفسها للسحق •

لقد خرج العالم الثالث من عهد الاستعمار مجزءا الى دويلات تجاوز عددها المائة حتى الآن • بعضها قادر على ان يحيا بشيء من المعونة حتى يتجاوز مرحلة الانطلاق ، وبعضها عاجز عن الحياة اصلا الا على هامش الحياة • بعضها يتجاوز سكانه المائة مليون ، وبعضها لا يتجاوز بضعة آلاف •

وهو محفوز الى اقامة وحدات قومية ، او وحدات اقليمية ، او وحدات اقتصادية ، لا من حيث دوافع معارك الماضي فحسب ، بل من حيث جواذب عالم المستقبل ، هذا العالم الذي لن يتيح الا للدول الكبيرة ، مساحة وسكانا وعلما وموارد ، ان تبقى ، وان تدافع عن حرية امتها وحرية مواطنيها ، وان تساهم في تغيير وجه الانسانية • ان هذا يعني ، بالمقابل ، ان كل محاولة للانفصال عن دولة كبيرة ، سواء كانت دوافعها عنصرية او اقليمية او طائفية ، هي محاولة في عكس اتجاه التاريخ ، لن تستفيد منها غير القوى الامبريالية المتسلطة •

ان للقوميات الصغيرة ان تحافظ على خصائصها القومية ، ضمن وحدات سياسية كبرى • والقوميات الكبيرة لا بد ان تتوحد ، مع الانفتاح على القوميات الصغيرة المتداخلة فيها ، والاعتراف بحقوقها القومية • وليس من حق قوميات العالم الثالث ، الخارجة حديثا من نير الاستعباد ، ان تنصرف الى محاربة بعضها بعضا في جهد افقي ضائع • فهي ، تاريخيا ، ليست متعادية ولا متناقضة ولا متضاربة المصالح • صراعات هذه القوميات الجانبية معادية للتاريخ وغير مغتفرة • ان صراعها التاريخي الوحيد هو صراعها مع الامبريالية ومع التخلف •

ليس للراسمالية مكان :

من اهم ما يخوض العالم اليوم من صراعات ذلك الصراع بين النظام

الرأسمالي والنظام الاشتراكي ٠ وهذا الصراع ليس صراعا بين نظامين فحسب بل بين عقيدتين وفلسفتين وموقفين من الانسان والحياة ٠ على ان متابعة سير التاريخ انما تظهر لنا كيف ان العقيدة الرأسمالية في تراجع مستمر ، وان العقيدة الاشتراكية في تقدم مستمر ، وان المستقبل مستقبل لا مكان فيه للرأسمالية ٠

ولعل من الضروري ان نوضح ، باديء ذي بدء ، ان لا هذه العقيدة ولا تلك حافظتا ، في التطبيق العملي على الاقل ، على معطياتهما الاولى ٠

ففي الحياة الرأسمالية ، التي نشأت عقيدتها تبريرا لواقع قائم فرضته طبيعة الاكتشافات الجغرافية والاستعمار ، ولم تنشأ فلسفة مسبقة لمجتمع منشود ، بقيت منطلقات آدم سميث في السعي الفردي للربح ، وتراكم الارباح ، وتكوين رأس المال ، وبناء الثروات المنتجة ، وحرية الكسب والاستغلال والمنافسة ، وامتداد السوق ، قاعدة الفلسفة الرأسمالية ، وبقي الايمان بان ما يصلح لتنمية ثروات الرأسماليين والاحتكاريين يصلح للمجتمع كله ٠ ولكن ظروف التغير التاريخي السريع الذي رافق نمو التصنيع ، وبشكل أخص بعد الثورة التكنولوجية ، وما دفعت به الى العالم من وسائل جديدة في الانتاج وفي الاستهلاك وفي الاتصال العالمي وفي العلاقات الاجتماعية والانتاجية والسياسية والثقافية ، فرضت على تلك المنطلقات تعديلات اساسية ٠

فقد كان من رأي آدم سميث ان الدولة لا يجوز لها ان تتدخل في الاقتصاد ولا ان تنظمه ، وان وظيفتها الاساسية يجب ان تقتصر على حفظ الامن ٠ والدولة الرأسمالية لا مهمة لها اليوم تفوق مهمتها في تنظيم سير اقتصادها ٠ انها هي المهيمن الاول على العلاقات الاقتصادية ، وعلاقات الانتاج والتوزيع والاستهلاك والاستثمار وسعر الفائدة واجور العمال واسعار السلع ٠ اضف الى ذلك ان الدولة قد أصبحت المستهلك الاكبر والمنتج الاكبر في السوق وسبقت في اهمية مشترياتها وانتاجها ، مباشرا كان او غير مباشر ، المستهلكين العاديين والمنتجين العاديين انها قد لا تقوم بالانتاج المباشر ولكن الشركات الكبرى انما تنفذ « العقود » الانتاجية التي تتعاقد عليها مع الدولة ٠

اما في التطبيق الاشتراكي ، الذي قام مبدئيا على ان وسائل الانتاج يجب ان تكون ملك المجتمع ، وان تستعمل بواسطة المجتمع لمصلحة المجتمع ، مجتمع العاملين والشغيلة والكادحين ، على انه لا مكان في المجتمع الاشتراكي الكامل للعملة ولا للملكية الخاصة ولا للدولة ولا للبوليس ولا لقوى القهر ولا للقومية ، بل ملكية عامة ، وحرية عامة ، وعقلانية منطلقة لبناء الذات الانسانية ، فعلى رغم ان الملكية العامة بقيت اساس ملكية وسائل الانتاج ، فهذه

الملكية تحولت لتصبح ملكية الدولة ، التي قد تمثل مصالح البروليتاريا ولكنها ليست هي هم ، وعاشت جنبا الى جنب مع هذه الملكية ، الملكيـة الخاصة ، والعملة ، والدولة ، والبوليس ، والحزب ، وقوى القمع ، والقومية بل لقد اصبحت هذه من صلب التطبيق الاشتراكي · واختفت الحرية وحل محلها التنظيم الفوقي ·

على ان هذه التعديلات الطارئة المهمة ، التي فرضتها ظروف موضوعية خارجة الى حد كبير عن ارادة القيمين على النظامين ، والتي جعلت التطبيق، في كلا الحالين ، مختلفا اختلافا اساسيا عن منطلقات عقيدتيهما ، لم تختزل التناقض الاساسي بينهما ، والقائم على كيفية استعمال رأس المال المتراكم فالرأسمالية ترى ان قوانين السوق ، القائمة على دوافع الربح ، ومقاييس النجاح والاخفاق ، تظل هي المرشد الاساسي للاقتصاد · والاشتراكية ترى ان قيادة المجتمع ، بعقلانيتها المتصلة بمصالح المنتجين المباشرين ، والمتحررة من قيود السوق ، هي الاقدر على التخطيط وتوجيه امكانات المجتمع وطاقاته لمصلحة المجتمع

لقد مر على تطبيق النظام الرأسمالي في البلدان المصنعة الغربية قرون· ومر على تطبيق النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي ستون عاما · ولقد اصبح من الممكن المقارنة بين النظامين ، لا من الوجهة النظرية فحسب ، بل من الوجهة التطبيقية كذلك ، على رغم فرق الزمن · فالنظام الرأسمالي يمكنه ان يشير الى مبلغ الرفاه الذي يعيش فيه ابناؤه ، والى التقدم العلمي والاقتصادي والتكنولوجي والانتاجي والاستهلاكي الذي حققه · ولكننا لا ننسى بالمقابل انه حتى في اغنى هذه البلاد الرأسمالية واكثرها تقدما ، الولايات المتحدة الاميركية ، ما يزال سدس السكان يعيشون في فقر مدقع اخفقت كل محاولات النظام في القضاء عليه · كما ان تاريخ هذا النظام يدل على بقاء الازمات الاقتصادية بل وازديادها · وعلى رغم التعديلات التي ادخلها النظام على معطياته ، لا سيما بعد كينز نظريا ، وبعد روزفلت عمليا ، فالاقتصاد يعاني من الازمة تلو الازمة · ولئن لم تكن الازمة التي تعاني منها الولايات المتحدة في السبعينات اشد الازمات التي عانت منها ، فانها بتعقيدها ، اذ كانت ازمة انحسار اقتصادي وتضخم مالي في نفس الوقت ، وبطول امدها ، اذ انقضى عليها سنوات وليس في الافق بعد بوادر لانفراجها ، وبارتفاع عدد العاطلين عن العمل فيها ، اذ بلغ عددهم عشر القوة العاملة ، فانها من اشدها ومن اعسرها حلا . وتدل دلالة عميقة على عقم كل الاجراءات التي يمكن ان يتخذها النظام الرأسمالي للتخلص من ازماته ، الا اذا تخلص من اهم ما في النظام الرأسمالي نفسه . فوضى الانتاج وفوضى الاستهلاك ، وانعدام العناية في المجتمع ·

اما النظام الاشتراكي فيمكنه ان يشير الى ما حققه من تقدم علمي واقتصادي واجتماعي ، في كل دول الكتلة الاشتراكية ، في فترة تعتبر وجيزة ، بحيث انقلبت مجتمعاتها من مجتمعات متخلفة فقيرة ، الى مجتمعات صناعية وتكنولوجية حديثة ٠ كما يمكن ان يشير الى ما تمكن من تحقيقه من رفع في مستويات المعيشة ، وتأمين للخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية بشكل لا مثيل له في العالم ٠ والى حصانته من الازمات الاقتصادية والبطالة ، الا بذلك القدر الذي تفرضه الطبيعة او الذي يفرضه تعامله الاقتصادي مع الدول الرأسمالية ٠ ولكننا لا ننسى ، كذلك ، ان هذا كله ، بدل ان يتحقق لحساب خلق الانسان الحر الاشتراكي ، قد تحقق على حساب الانسان الحر في المجتمع الاشتراكي ، وان الثمن في كثير من الاحيان كان باهظا ٠

ومع ذلك كله ، فليس ثمة سبيل للمفاضلة بين نظام ونظام دون العودة الى خلفياته التاريخية ٠ ولئن كان ذلك ممكنا في المنطق الستاتيكي ، فانه ليس له مكان في المنطق الجدلي التاريخي ، الا في نطاق اخلاقي انساني ٠ ان الذي يقرر بقاء الرأسمالية او زوالها ، وبقاء الاشتراكية او زوالها ، هو الظروف الموضوعية المتغيرة التي تحكم وتسير تغيرات التاريخ ٠

ففي العالم الثالث ، ليس ثمة مجال لتنمية حقيقية ، مستقلة عن التبعية ، منسجمة مع المعارك النضالية التي خاضتها الشعوب ، متسقة مع الوعي السياسي والاجتماعي الذي نما مع النضال قبل ان ينمو مع تغير وسائل الانتاج ، مستجيبة لندرة رأس المال المتراكم ووفرة اليد العاملة غير الفنية ، غير التنمية الاشتراكية ٠

ان التنمية الرأسمالية في بلد متخلف تنمية متجهة من فوق الى تحت ، من الشرائح العليا للمجتمع الى الجماهير العاملة في المجتمع ٠ وهي لا يمكن ان تعني ، اولا ، الا تبعية مطلقة لمصدر رأس المال الاجنبي ، اي تناقضا مع غاية التحرر ، الغاية الاساسية لكل حركات النضال القومي ، تبعية تتزايد تزايدا طرديا مع تزايد التنمية الرأسمالية ٠ ولا يمكن ان تعني ، ثانيا ، الا التوجه الى تنمية القطاع الذي يدر ربحا اكثر في امد اقصر ، لا الى تنمية القطاع الاكثر ضرورة للمجتمع ٠ وبالتالي بعثرة رأس المال الضعيف النادر في غير ميادين الانتاج الاساسية ٠ ولا يمكن ان يعني ، ثالثا ، الا زيادة التناقض الاجتماعي بين طبقات الجماهير وبين الشريحة العليا في المجتمع ، القابضة على المصالح الاقتصادية وعلى السلطة السياسية في آن معا ، والمرور من ذلك الى مسلسل الثورات والانقلابات المتلاحقة ، واقامة الدكتاتوريات البورجوازية واحلالها محل « الديموقراطية الليبرالية » التي هي شعار مثل هذه العهود ٠

في عهد الثورة التكنولوجية بالذات اصبح تحدي التنمية في البلدان المتخلفة اكثر حدية وصعوبة . واذا كان لا بد ان تبدأ التنمية في البلد المتخلف انطلاقا من القواعد الصناعية الميكانيكية البسيطة ، فانها ، ان لم تقفز من هذه البداية قفزة سريعة الى البناء العلمي التكنولوجي ، ستظل متخلفة بأي مقياس من المقاييس ، وستتسع الهوة بينها وبين الدول المتقدمة اتساعا لا سبيل الى اللحاق به . ومشاريع التنمية الكفيلة بتحقيق مثل هذه القفزة مشاريع كبيرة فيما تحتاج اليه من رأسمال ، بطيئة في المردود ، لا يمكن ان يقدم عليها رأسمال ضعيف متطلع الى ربح سريع . الدولة وحدها هي القادرة على تخطيط وتنفيذ مثل هذه المشاريع .واذا كانت الولايات المتحدة نفسها ، قائدة الرأسمالية في العالم، انما تنفذ مشروع كمشروع « وادي تنيسي » الكبير بواسطة الدولة ، فان الدولة وحدها ، في الدول المتخلفة ، تملك القدرة على تركيز راس المال المتوفر، وعلى استعماله في اولويات عقلانية مخططة ، وعلى البدء في مشاريع قاعدية وبناء تحتي ، وانتاج سلعي اساسي ، متجهة في تنميتها من تحت الى فوق ، اي من القاعدة الاقتصادية الى تفرعاتها الفوقية ، متجنبة التبذير والضياع والتضارب والاختناق . ان النظام الاشتراكي ، في العالم الثالث ، ليس له بديل. لانه الوحيد الذي يربط بين متطلبات الجماهير وتطلعاتها ، ومقتضيات التحدي المستقبلي ، والوحيد الذي يتفادى التبعية الخارجية ، ويتفادى التناقضات .

ولكن ليس العالم الثالث وحده هو الذي تحتم عليه تطورات التاريخ الاتجاه نحو الاشتراكية . فالرأسمالية كما عرفناها تلفظ انفاسها الاخيرة في العالم الرأسمالي نفسه . لقد ظن تروتسكي وظن لينين معه ان قيام الثورة في روسيا سيكون منطلقا لقيام الثورة البروليتارية العالمية . ولكن الرأسمالية تمكنت من اجتياز تلك المرحلة الخطرة ، اولا بسبب احتفاظها بالاستغلال الاستعماري ، وثانيا بسبب تصاعد الانتاج الصناعي ، وثالثا بتصاعد القدرة الرأسمالية على امتصاص النقمة البروليتارية ، ورابعا بارتباط التطبيق الاشتراكي في اذهان العالم بالاساليب الستالينية الرهيبة .

ولكن الرأسمالية تتعرض اليوم لضغوط جديدة قوية . فثمة ، من جهة ، تزايد تطلع شعوب العالم الثالث الى التحرر الاقتصادي من قبضة الاستغلال الامبريالي ، واغلاق ذلك الباب الذي طالما تنفست منه الرأسمالية . وثمة ، من جهة اخرى ، ما تفعله الثورة التكنولوجية في مجتمعها نفسه . وثمة ، من جهة ثالثة ، اعادة ولادة الاشتراكية الانسانية .

ان العالم الثالث ليس اقوى قوة موجودة على سطح الارض ، ولكنه احفل هذه القوى بعوامل تغيير المجتمع الانساني ، ولئن تمكن الرأسمال الغربي ، حتى

بعد انسحابه من الاستعمار الاحتلالي ، من الابقاء على قوانين السوق العالمية الامبريالية ، وتمكن بذلك من المحافظة على المعادلة التي وفقت بين زيادة انتاجه، ورفع مستواه ، وتوسيع خدماته ، وامتصاص نقمة الطبقة العاملة ، فان استكمال بلدان العالم الثالث لتحررها الاقتصادي يعني انهاء عهد الاستغلال وانهاء تلك المعادلة ، ووضع الغرب الرأسمالي وجها لوجه أمام ازمته الذاتية ، دون تغطيتها بالفوائد والمغانم المستوردة من الخارج . واذا كانت تجربة « حرب البترول » عام ١٩٧٣ ، على كل ما رافقها من ضعف وتخاذل وتردد وانصاف حلول ، قد هزت العالم الرأسمالي ونظامه الاقتصادي من جذوره ، فان استكمال التجربة وتعميمها سيجعل هذا العالم ونظامه وجها لوجه امام مصيره .

فاذا اضفنا الى ذلك حتميات تطور الثورة التكنولوجية تعرت ازمة الرأسمالية الداخلية . فغلبة العمل الفكري والمهارة الفنية على العمل اليدوي الميكانيكي ، وقيادة « العلم » للانتاج بدل ان يكون مقودا بالانتاج ، وحلول العلماء والباحثين والفنيين والاداريين التكنولوجيين محل الرأسمالية في توجيه العمل وازدياد تدخل الدولة في شؤون الحياة والانتاج والاستهلاك وتوجيهها والتخطيط لها ، كل ذلك لم يعد يتناسب مع بقاء سيطرة رأس المال غير العقلانية وغير المنطقية على انتاج يعتمد ، من قمته الى قاعدته ، على قوة غير قوة رأس المال .

ان معنى ذلك ، في رأي روجيه غارودي « ان الثورة العلمية التقنية الجديدة تتيح انفتاح امكانية « نفي النفي » ... اي امكانية قلب جديد للعلاقات بين الذات والموضوع ، بين الانسان والآلة ، تمنح الذات ، اي الانسان ، اولويته وسيطرته ، وتتجاوز التعارض بين القيادة والتنفيذ ، بين العمل العقلي والعمل العضلي، محققة للانسان بذلك كماله وكليته، مقابل ازدواجات الماضي الشريرة» .

ان التناقض القائم اليوم بين « واقع » النظام الرأسمالي وبين « اهدافه » و « شعاراته » الموروثة من القرن التاسع عشر ، بلغ حدا معلنا عن نفسه منذ عام ١٩٦٨ على الاقل ، وبدأت مظاهره تتبدى يوما بعد يوم . ان نجاح قوى التغيير في ايصال السناتور ماك غوفرن الى الترشيح عن الحزب الديموقراطي لمنصب الرئاسة ، وفي انهاء حرب فيتنام وارغام الولايات المتحدة على الانسحاب منها ، وفي اسقاط نكسون ، وفي فضح جرائم المخابرات المركزية والشركات المتعددة الجنسية ، وفي الهجوم على ما تسببه الشركات الصناعية من تلوث في البيئة وانضاب لها واستهتار بصحة المواطنين ، وفي تركيز الهجمات ضد المركب العسكري المالي الموجه لسياسة الدولة والانتاج ، وفي نجاح الطلاب في فرض انفسهم في مجالس ادارة الكليات والجامعات وتعديل برامجها الدراسية ، وفي

مطالبة الفنيين والتكنولوجيين بالاشتراك في اتخاذ القرارات الهامة في الشركات، وفي احتجاج عدد من العلماء على ما يكلفون به من تطوير آلة الحرب وادوات الدمار - اوبنهايمر وغيره - ، والازمة الاقتصادية العنيفة الممسكة بخناق الاقتصاد والتي لا يبدو لها حل معقول ، كل ذلك مؤشرات على الاتجاه الجديد الذي بدأ يغزو هذا النظام الرأسمالي ، ويكشف ما في داخله من اهتراء ، والذي ان لم يتمكن من النضوج والانتصار بعد ، فان استمرار التغير التقني في البلدان المصنعة ، واستمرار دول العالم الثالث في متابعة خط التحرر الاقتصادي ،سوف يوصلانه الى غايته ٠

واذا كانت هذه هي شواهد انهيار النظام في اغنى الدول الرأسمالية واقواها ، فان ظواهر انهياره في اوربا ادهى وامرّ ٠ والاضطراب الحالي الذي يأخذ بتلابيب الدول الاوربية ويجعلها على شفا حفزة من الانهيار السياسي والاقتصادي لاوضح من ان يحتاج الى تفصيل ٠

ليس في المستقبل ، اذن ، مكان للرأسمالية ، لا في العالم الثالث ، ولا في العالم كله ٠ فاذا كان العالم الثالث مدفوعا نحو الاشتراكية بحكم طبيعة صراعاته الماضية والحالية ، وبحكم مقتضيات تنميته والخلاص من تخلفه ، فهو الى جانب ذلك ، مجذوب ايضا الى الاشتراكية ، بحكم انها نظام المستقبل ، وانها تحد مستقبلي ٠

واشتراكية المستقبل لن تكون على نفس خطوط الاشتراكية المطروحة في القرن التاسع عشر ، ولا على نفس خطوط الاشتراكية التي طبقت في العالم الاشتراكي التي طبعها ستالين بطابعه الفوقي المستبد ٠ وافتراقها عنها سوف يكون بالقدر الذي افترقت فيه الثورة التكنولوجية عن الثورة الصناعية الميكانيكية وبوادر التغيير التي ظهرت في عدد من دول الكتلة الاشتراكية ، لا سيما في يوغوسلافيا ، ثم في بولونيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ، ثم في الاتحاد السوفييتي نفسه ، ليست كمثل بوادر التغيير التي ظهرت في النظام الرأسمالي والتي تستهدف انهاءه ، وانما هي بوادر عودة النظام الاشتراكي لمنابع الحرية والانسانية فيه ٠ ان الاشتراكية المستقبلية ليست حلا لمشاكل الماضي بل لمشاكل المستقبل ٠ والحلول الجديدة المطروحة ليست جديدة كل الجدة ٠ فلقد طرحت بذورها في ادب ماركس وفي ادب لينين نفسه ٠ ولكنها اليوم اينعت وحل قطافها بالتغيير الجذري لموقف الانسان من الآلة ، ذلك الموقف الذي اكدته الثورة التكنولوجية ٠

عالم واحـد :

منذ زمن طويل والعالم يحلم بان يكون عالما واحدا يسود فيه السلام وتعمه الاخوة الانسانية · ولكن مثل هذا الحلم لا بد ان يظل حلما اذا لم تتوفر له الظروف الموضوعية التي تحول الحلم الى حقيقة ممكنة ، ومن ثم الى حقيقة قائمة · ومثل هذه الظروف لم تتوفر في تاريخ الانسانية كما بدأت تتوفر اليوم· ومن هنا فان الحلم بدأ يتحول الى حقيقة ممكنة ، والى تحـد مستقبلي ، على الانسانية ان تناضل من أجل تحقيقه ·

قبل عصر الاكتشافات الجغرافية كان في العالم « عوالم » ، تكاد الصلة بينها تكون مقطوعة الا في التخوم وفي نقط التماس · كان ثمة عالم الصين ، وعالم الهند ، وعالم الاسلام ، وعالم المسيحية ، وعوالم صغيرة اخرى منعزلة او شبـه منعزلـة ·

على ان تطور الملاحة البحرية ، واكتشاف اميركا ، واكتشاف الطريق البحري الى الهند ، وقيام « ماجلان » بالدوران حول الارض ، بدأ الخطوة الاولى في وضع العالم كله أمام وضعه الجديد القائم على رفع جدران العزلة ، والاقتراب من فكرة « العالم الواحد » · وضاعف من تسارع هذا التطور وسائل المواصلات البحرية والبرية والجوية ، ثم تطور وسائل الاعلام والاتصال ، حتى اصبحت « القاعدة الجغرافية » لاقامة عالم واحد قائمة فعلا ·

وكان من شأن قيام الثورة الصناعية ان تقيم « القاعدة الاقتصادية » لاقامة مثل هذا العالم · فحاجة البلاد المصنعة الى المواد الخام ، والى طرق المواصلات والى اليد العاملة الرخيصة ، والى الاستثمار الخارجي ، دفعها الى أن تصل الى زوايا العالم ، وان تقيم الصلات الواسعة بينها وبين جميع انحائه ، وان تحطم جدران « العزلة الاقتصادية » التي عاشت فيها معظم العوالم القديمة · ولم يكن غريبا ، بسبب ذلك ، ان تولد فكرة « العالم الواحد » في اذهـان الرأسمالية الكبيرة المسيطرة على اقتصاديات العـالم وهـي التي تجاوزت حدود فعالياتها حدودها القومية ، وان تدعو الى حرية التجـارة العالمية ، وحرية المنافسة ، واقامة السلام بين الدول ، ومحاربة القيود الجمركيـة والتعرفات ، وان يكون ميلاد هذه الفكرة في بريطانيا بالذات ، اكثر هذه البلاد تقدما ، واكثرها توسعا واستعمارا ·

ولكن هذه الفكرة عن العالم الواحد ، بسبب انطلاقها من ظروف رأسمالية امبريالية ، وبسبب تحول الرأسمالية الحرة الى رأسمالية احتكارية ، ما لبثت

ان اخذت سمات العالم الواحد الذي تسوده علاقات السيد والمسود ، والمتبوع والتابع ، والمستغل والمستغل ، فالعالم الواحد لا بد ان تسوده نفس العلاقات القائمة فيداخل المجتمع الرأسمالي · ولكن مثل هذا العالم لم يكن ليخدم الا مصالح بريطانيا بالذات ، التي سبقت غيرها من البلدان المصنعة وزرعت نفوذها في اركان الارض جميعا · فحتى البلدان المصنعة الاخرى الطامحة الى ان تلحق ببريطانيا او ان تسبقها ، لا شعوب المستعمرات فحسب ، لم تكن مصالحها لتتفق مع معطيات مثل هذه الفكرة · ومن اجل ذلك ، فبدلا من ان يقترب العالم من تحقيق فكرة العالم الواحد ، انتهى الى قيام الحرب العالمية الاولى ·

لقد كانت « عصبة الامم » ، التي نشأت بعد تلك الحرب ، المحاولة الاولى لوضع فكرة العالم الواحد ، وفكرة السلام المرتبطة بها ، موضع التنفيذ ، حين جمعت دول العالم المستقلة في هيئة عامة تنظم العلاقات الدولية ، وتقيمها حسب « القانون الدولي » ، وتحل المباحثات والمناقشات في القضايا المختلف عليها محل الحروب · ولكن هذه المحاولة نفسها اخفقت وانتهت الى قيام الحرب العالمية الثانية · ذلك انها كانت تحمل نقائضها معها في داخلها فالاساس النظري الذي قامت عليه ، والذي يلخصه هارولد لاسكي في كتابه « الدولة في النظرية والتطبيق » بقوله « ليس ثمة دولة تعيش حياتها لذاتها فحسب ، فالدولة عضو في مجموعة من الدول ، لكل منها ، نظريا ، نفس الحقوق والواجبات » ، هذا الاساس ينقضه ، في رأي لاسكي ايضا ، ان العلاقات الحقيقية القائمة بين الدول لا صلة لها بهذا التساوي النظري في الحقوق والواجبات · وان ما يسمى بالقانون الدولي هو القانون المتفق عليه بين اقوى الدول من اجل فرض سلطانها من جهة ، ومحاولة تجنب الاحتكاك بينها وبين الدول القوية الاخرى من جهة · وهو غير قابل للتطبيق الا على المستضعفين · « فالدولة في مجتمع رأسمالي ، لا بد لها من ان تحافظ على سلطتها ـ فلا تتنازل عن شيء منها لسلطة دولية اعلى منها ـ لتحافظ على امتيازات الرأسمالية ومكاسبها » · ويستنتج لاسكي انه ما دامت السلطة طبقية ، والنظام راسماليا ، فان قيام سلطة دولية حقيقية ضرب من المحال ·

وحين اتفقت الدول ، بعد الحرب العالمية الثانية ، على اقامة هيئة الامم المتحدة حاولت ان تتجنب بعض المشاكل التي اعتبرتها نقصا في عصبة الامم ادى الى قيام الحرب · ولكن المحاولة الثانية لم تكن اكثر جدوى من الاولى، الا في الميادين الصحية والاجتماعية والثقافية · ذلك انها لم تعالج اساس الاخفاق في المحاولتين ، وهو ان هذا العالم الواحد لن يتاح له ان يقوم ما دام قائما على الاستعمار ، وعلى الاستغلال ، وعلى تمسك كل دولة بما لها من

امتيازات على حساب الدول الاخرى ٠

وفي مقابل هذه الدعوة الرأسمالية الى العالم الواحد ، قامت « الدعوة الاممية » ، ممثلة لتطلع القوى الاشتراكية في البلدان المصنعة الى اقامة عالم واحد تحكمه البروليتاريا العالمية الموحدة بعد ثورتها على البورجوازية وبعد ازالة معالم القوميات والدول القوميـــة ٠

ولم يكن جظ هذه الاممية في توحيد العالم بأحسن من حظ البورجوازية فالثورة لم تقم ، كما قدر الماركسيون الاوائل ، في البلدان المتقدمـــة صناعيا التي تقود المسيرة التاريخية العالمية وتحدد مصائر الدنيا ،وانما قامت فـي بلد متخلف ، يعيش في ظل دولة جامعة تضم مختلف القوميـــات ، وواجهت منذ قيامها عداء داخليا وحصارا خارجيا وحربا اهلية وعدوانا ، شغـــل الثورة عن غير مهمة البقاء المحض ، بعد ان كانت تطمح الى ان تكون نـــواة الثورة العالمية ٠

واذا كان للماركسية الاولى عذرها في مقاومة الشعور القومـــي لان واقعها الذي قامت بدراسته وبحثه كان واقع القوميات الاوربية البورجوازية الاستعمارية التي كانت ضد تحرر شعوب العالم مثلما كانت ضد تحـــرر شعوبها هي ، فقد كان على الدعوة الاممية ، بعد ولادة حركات التحـــرر ونضالات الشعوب ، وبعد ادراك لينين لمدى الشعور القومي وعمقه عنـــد الشعوب الفقيرة المضطهدة ، ان تدرك ان نقيض القوميـــة البورجوازيـــة الاستعمارية ليس انعدام القومية ، وانما هو القومية التحررية المناضلـــة ضد الاستعمار ، مثلما ان نقيض الثورة الصناعية البورجوازية ليس العـــودة الى المجتمع الزراعي الاقطاعي ، وانما هو المجتمع الصناعي الاشتراكي ٠

ان هذه « الاممية » قد عبرت عن نفسها في عهد ستالين وخلفائه ، وبعد الحرب العالمية الثانية بشكل اخص ، بنقيض للاممية يحاول ان يفرض تجربة الاتحاد السوفييتي الخاصة ونموذجه الخاص لتطبيـــق الاشتراكيـــة ـ على رغم ان معالم التجربة والنموذج مستقاة من اوضاع روسيـــا الخـاصـة ، بالاضافة الى استقائها من معين ماركس ولينين ـ ان يفرضها على جميـــع البلدان الاشتراكية الحديثة النشأة ، سواء منها التي نبعت الثورة الاشتراكية فيها من خلال نضالها الثوري او تلك التي فرضت عليها الاشتراكية نتيجة تحرير الجيش الاحمر لها من الاحتلال النازي ، حتى ولو اختلفت ظروف هذه البلدان اختلافا كليا عن ظروف الثورة في الاتحاد السوفييتي ٠ لقد اعترف ستاليـــن لهذه البلدان بحق الاستقلال السياسي ، ولكنه لم يعترف لها بحقهـــا في ادارة استقلالها الاقتصادي والاجتماعي والتنموي والحضاري ، حتى ضمن نطـــاق

الايديولوجية الماركسية نفسها ٠

ومن الواضح ان هذا التطبيق المقلوب لمعنى « الاممية » القائم على الحرية والاخوة والتكافؤ لم يسيء الى الهدف الماركسي فحسب ، بل ادى الى انشقاقات في العالم الاشتراكي كان من الممكن تفاديها لو اعترف الاتحاد السوفييتي بالخصائص القومية لكل شعب من شعوب الكتلة الاشتراكية ، وخصوصية ظروفه ، وحرية ارادته ٠ ان طرد يوغوسلافيا من « الكومنفورم » ، وحجب المساعدات عن الصين والقطيعة معها ، وتدخل الجيش السوفييتي في ثورتي بولونيا وهنغاريا عام ١٩٥٦ ،واحتلال تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، كل ذلك كان نقضا لمعنى الاممية الحقيقية ، واعطى الحجة لمعارضي الاشتراكية لاتهام السوفييت بالتسلط الفوقي ، وقسم الحركة الاشتراكية في اوروبا وفي العالم ٠

ان بعض التصرفات الستالينية المناقضة للمبادىء الماركسية الانسانية قد تجد بعض التفسير ،ان لم تجد التبرير ، في حالة الحصار الدولي التي كانت تحيط بالاتحاد السوفييتي ، وفي حالة مقتضيات الاسراع في بناء مجتمع جديد على انقاض مجتمع متخلف مهترىء ٠ ولكن الاتحاد السوفييتي ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد دخوله عصر الثورة التكنولوجية التي سبق في بعض معالمها على الاقل الولايات المتحدة الاميركية ، قد تجاوز هذه المرحلة ، كما تغير العالم ايضا بعد هذه الحرب تغيرا لم يعد يسمح معه لدولة اشتراكية ، بل لكبرى الدول الاشتراكية ، ان تسلك سلوكا يعيبه على الدول الامبريالية ٠

لقد ادرك خلفاء ستالين من بعده بعض جوانب هذه الحقيقة لا سيما فيما يتعلق بحركات التحرر في العالم الثالث ٠ ولكن الفهم الجدلي العلمي للتاريخ ومعطياته ومتغيراته ، وميراث ماركس ولينين الانساني ، كانا يتطلبان من الاتحاد السوفييتي ، لا ان يتجنب هذه الاخطاء فحسب ، بل ان يفهم الاممية فهما جديدا متسقا مع المعطيات الجديدة للعالم ٠ ومن المؤكد ان الاممية التي تلغي دور القومية المتحررة ليست طريق تحقيق العالم الواحد ٠ وانما طريق العالم الواحد ، طريق الاممية الحقيقية ، هي طريق القومية المتحررة المناضلة ضد اي تدخل تعسفي من اية قوة عالمية في شؤون الشعوب المتطلعة الى الحرية ٠

فاذا اخفق العالم حتى الآن في الوصول الى طريق تحقيقالعالم الواحد ، فلأن حلم البورجوازية بهذا العالم يتضمن نقيضه ، ولان التطبيق الاشتراكي اغضى عن الحقائق التي تخلق يوميا امام عينيه ٠ فالعالم الواحد لا يتحقق مع وجود الاستعباد والاستغلال ، كما لا يتحقق في ظل فرض نماذج جاهزة من المجتمع ، هي نفسها بنت ظروفها واوضاعها التاريخية ، على امم

ومجتمعات مختلفة في معطياتها الحضارية وظروفها التاريخية ، بقوة مفروضة من الخارج ، ولو تضمنت احسن النيات ٠

لقد توفر للعالم اليوم عاملان تاريخيان مهمان في سبيل التوجه الى تحقيق حلم العالم الواحد ٠ عاملان لم يتم نضوجهما بعد ، ولكنهما يمهدان الطريق ويشيران اليه ٠

اولهما هذه الثورة التكنولوجية التي اظهرت ترابط العالم كله ، واعتماده بعضه على بعض ، وانهيار اسطورة « الامه المكتفية ذاتيا » ، بحيث لم يعد ممكنا ان تعيش الدول الغنية بمنأى عن مصادرها الطبيعية واسواقها في العالم ، كما لم يعد ممكنا ان تحتفظ الدول الفقيرة بمواردها محفوظة ومخزونة وغير مستغلة ، ولا ان تحتفظ بفقرها وتخلفها ٠ ان الاتحاد السوفييتي ، على كل ثرواته الواسعة ، وتكنولوجيته المتقدمة ، ما يزال في حاجة الى القمح والتكنولوجيا من اميركا ٠ وما زالت اميركا في حاجة الى النفط العربي ، وما زال العالم الفقير بحاجة الى العون والى التكنولوجيا ٠ ان كل شعب من شعوب العالم في حاجة الى كل شعب اخر من شعوب العالم والتواصل الثقافي الذي اذكته طرق الاتصال الحديثة ، في الصحافة والاذاعة والتلفزة والكتب والجامعات والمؤتمرات الدولية ، خفض الحواجز بين الشعوب، ووحد الى حد كبير آمالها وتطلعاتها ، وقرب الحضارات من بعضها وافقدها حدية تميزها ، بشكل لم يعرفه الانسان من قبل ٠

وثانيهما نضال الشعوب المضطهدة ، وسيرها في طريق تحقيق تحررها الاقتصادي بعد تحررها السياسي ، وظهورها على المسرح العالمي بقوة ، ان لم تتناسب مع عددها وعدد سكانها ، فهي قوة متصاعدة باستمرار ، اثبتت وجودها وقدرتها على التاثير في الاحداث ، وألزمت قوى الامبريالية على التقهقر والتراجع ، وبدات تاخذ دورها التاريخي في أن تكون القوة الكبرى المطالبة بتحقيق اقامة هذا العالم الواحد ٠ هذه القوة ، بفضل تعاونها في مؤتمرات دول عدم الانحياز ، وعلى رغم خلافاتها الافقية الكثيرة الموروثة عن عهد الاستعمار ، وعن آثار التخلف فيها ، وعن تعرضها المستمر لضغط القوى الرجعية المحافظة في العالم ، تمكنت من ان تجعل نفسها اكبر قوة عالمية منادية باخاء بشري قائم على المساواة والعدل والتكامل وتبادل المصالح دون اكراه ولا تعسف ولا استغلال ٠

« لقد تطلع العالم دوما الى تحقيق الحرية والرخاء والسلام ٠ وهذه الطموحات لم تعد مستحيلة التحقيق ، ولا هي مقتصرة على اقلية من العالم ٠

كل شعوب العالم الان يمكنها أن تتطلع اليها ... ان تضامن قوى التحرر القومي والاجتماعي الذي ما زال يهز البنية العتيقة لعالم يتعرض لتغيرات كاملة، بالاضافة الى التقدم الموصول للثورة العلمية التكنولوجية ، انما يمهد السبيل نحو التحرر الكامل للانسانية جمعاء ». ذلك ما تضمنته بعض قرارات مؤتمر دول عدم الانحياز المعقود في الجزائر عام ١٩٧٣ ، وما يمثل طموحات هذه القوة الصاعدة .

ليس ثمة تناقض بين مصالح الشعوب المتخلفة ومصالح الشعوب المتقدمة . وانما التناقض بين عقلية عفى عليها الزمن تتوهم ان مصالحها لا تنمو الا بالاستغلال والضغط والاكراه ، وعقلية تقدمية ترى ان مصالح الشعوب كافة ، المتقدمة منها والمتخلفة ، انما يخدمها التعاون والتكاتف والتكامل . لقد توهمت دول اوروبا الاستعمارية عند زوال الاستعمار ان اقتصادها سينهار . والحقيقة هي ان معدلات النمو التي حققتها هذه الدول منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم هي اكبر معدلات حققتها في تاريخ تطورها الاقتصادي كله . وتضاعفت عدة مرات كمية التجارة الدولية بين البلدان المتقدمة وبين البلاد العربية بعد رفع اسعار البترول ، وبلغت عام ١٩٧٦ ٢٠ ألف مليون دولار مع الولايات المتحدة وحدها . ان رفع مستوى الانتاج ومستوى التطوير والتنمية ومستوى الاستهلاك في البلدان النامية هو الضمان الوحيد لاستمرار نمو الانتاج في البلدان المتقدمة ، ولتوسيع الاسواق وتعميقها ، ولتضييق الفجوة الهائلة بين تسارع الدول المتقدمة والدول المتخلفة . ان قهر الدول الفقيرة لن يزيدها الا فقرا ولن ينتهي بها الا الى الافلاس وتضييق الاسواق العالمية ، وتباطؤ نمو اقتصاد الدول المتقدمة . وتحرر الدول الفقيرة الاقتصادي وتنميتها هو الوسيلة الوحيدة لضمان نمو الاقتصاد المصنع المتقدم . ومن هنا فان مساعدات الدول الغنية للدول الفقيرة ، ليست منة ولا يجوز ان تكون قيدا . انها سبيل الدول المصنعة الى الابقاء على اقتصادها ومنع انهياره .

يوم تختفي الامبريالية من على سطح الكرة الارضية ستدرك الشعوب الغنية والشعوب الفقيرة تشابك مصالحها وتكاملها . والقوة الاساسية التي تحمل في داخلها امكانات تحقيق هذا الهدف هي في الاساس قوة نضال شعوب العالم الثالث ، مسلحة بوعيها التحرري اولا ، ومسلحة بتصاعد تحررها السياسي والقومي والاقتصادي والاجتماعي ثانيا ، ومسلحة بتضامنها وتكاتفها، وبتحالفها مع جميع قوى الاشتراكية والتحرر في العالم ثالثا .

وكما كانت البروليتاريا في الثورة الصناعية مهيأة للقيام بالثورة لانها اكثر الطبقات انسحاقا ، فكذلك شعوب العالم الثالث ، بروليتارية العالم كله ،

مهيأة للقيام بتحطيم الامبريالية ، واقامة العالم الواحد ، لانها اكثر شعوب العالم انسحاقا ٠

عالم الانســان :

ان عالم الغد ليس عالما بعيدا كما قد يتوهم الكثيرون ٠ اقل من ربع قرن يفصلنا عن عام ٢٠٠٠ ٠ انه العالم الذي سيدخله شبيبة اطفال اليوم ٠ ولئن درجت البلاد التي تخطط لاقتصادها على أن تضع خططها وتجددها كل ثـــلاث سنوات او خمس او عشر ، فان عليها ان تعي انها حين تخطط لدور الحضانة ورياض الاطفال والمدارس الابتدائية منذ اليوم ، فيجب ان تضع نصب عينيهـــا ما تتصور ان يكون الشباب عليه سنة ٢٠٠٠ ، لا ما تفهم هي من مهمات التربية والتعليم اليوم ، والتي بينت معطياتها قبل ربع قرن على الاقل من اليوم ٠

ان الجيل المولود بين الحربين العالميتين يكاد يفقد توازنـــه اليوم ازاء التغيرات العظيمة المتسارعة من حوله ، سواء في طراز حياته ، او في قيمـه او في علاقاته الاجتماعية ، لانه لم يهيأ لمواجهة مثل هذه التغيرات ٠ لذلك فهو يشهد ما يسميه الناس في البلدان المصنعة ثورة الجيل الجـــديد ٠ فلا آمال هذا الجيل ، ولا أمنياته وطموحاته ، ولا أذواقه الفنية ، ولا اساليب حياتـه ، تمت بأية صلة لاية قيمة كانت سائدة قبل ربع قرن ٠ ثمة حاجز بين عقليتـــي جيلين ٠ وقليلون جدا ، من جيل الاباء ، هم الذين تمكنوا من القفز فوق الحاجز ومتابعة تطورات عقلية الجيل الجديد وفهمها ، لان ذلك الجيل لم يهيء لا نفسه ولا ابناءه لتقبل مثل هذا التغير السريع ٠ ولا يحق لجيل آباء اليوم ان يكرر نفس الخطيئة في حق ابنائه ، فيحاول ان يصب الجيل الجديـد في القوالب التي ارتضاها ويرتضيها لنفسه ، وان يغمض عينيه عن المتغيرات السريعـة المنهالة عليه من حوله ، وان يقيم حواجز أمام تطور الجيل الجديد ما يلبـث هذا الجيل ، باندفاعه وتعميمه واستجابته العفوية لتأثيرات هذه المتغيرات ، ان يجرفها وان يندفع في طريقه التي يرسمها لنفسه ٠

قد لا يكون من السهل علينا ، ونحن في غمار تغيرات سريعة ، ان ندرك بوضوح صورة المستقبل التي يجب ان نهيء اولادنا لها ٠ ولكننا نعـرف بعض الظروف الموضوعية التي تهيء لرسم هذه الصورة ٠ ونعرف ان على رأس هذه الظروف ان الثورة التكنولوجية ستتابع طريقها لا سبيل الى وقفهـــا ٠ لان الانسان لن يغلق ، ولن يتمكن من ان يغلق ، ابواب العلم المفتوحة له علـى مصاريعها ، ونعرف كذلك انه مثلما ان الثورة التكنولوجية ستتابع طريقها ، فثورة الانسان ضد الاستعباد التكنولوجي وفي سبيل استرجاع القيم الانسانية

من اغترابها ، لن تتوقف وستتابع طريقها كذلك ·

ان الثورة التكنولوجية نفسها ، بما تحتاج اليه من عمل فني وعلمي في كل نواحي الحياة ، وما تهيئه من أتممة تقلل من الحاجة الى العمل اليدوي ، سوف تخلق قاعدة عمل مختلفة اساسيا عن قاعدة العمل في الثورة الصناعية · انها تهيء الجو لتحويل العمل من عبء على الانسان الى تعبير عن قدراته وطاقاته · انها تختصر المسافة ، بين العمل اليدوي والعمل الذهني وتخلق الترابط بينهما · انها تخلق المجال للمبادرة الفردية والجماعية والابداع في كل مستوى من مستويات البحث والانتاج والادارة · انها تتيح للانسان من وقت الفراغ ما لا يمكن ان يقتصر على ان يكون ترويحا للنفس من عناء العمل ، ولكن فرصة ، كذلك ، من اجل تنمية القدرات والمواهب سواء في مجال العمل او في مجالات اخرى غير العمل المقرر نفسه · انها تزيل هذا الحاجز القائم حاليا بين التعليم وبين العمل وتجعل كليهما شيئا ممتدا من الصغر الى الكبر في تداخل مستمر موصول · وبالتالي فالثورة التكنولوجية سوف تخلق عالما تكنولوجيا ، ولكن ذا علاقات انسانية تهيء للانسان ان يجد ذاته من بعد اغتراب · « ان المطلوب الان ليس انتاجا من نوع جديد فحسب ، بل انسان من نوع جديد» ·

ومع ذلك ، فنحن حين نقدم صورة لما يمكن ان يكون عليه المستقبل من معطيات الاتجاهات الحاضرة ، يجب ان نذكر انه ليس ثمة شيء اسمه مستقبل محتوم · كل ما تفعله التغيرات التاريخية في قوى الانتاج هو ان تهيء للانسان ظرفا موضوعية تقود الى وضع تاريخي · كما يجب ان نذكر ان تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية لن يخلق ، بصورة اوتوماتيكية حتمية ، انسانا جديدا · انها مهمة الانسان ان يصنع هذا الوضع ، او ان يتخلى عن صنعه مقاوما ضغط الظروف الموضوعية الداعية الى التغيير · ونضال الانسان هو الذي يعطيه القدرة على ان يطوع الظروف الموضوعية ويجعلها في خدمة اهدافه · وهدف كل نضال انساني هو الانسان ، وحرية الانسان ، واطلاق طاقات الانسان · وكل ما يسعى اليه الانسان من خلق وسائل انتاج جديدة ، وعلاقات انتاج جديدة ، وما يناضل من اجل تحقيقه ، سواء في وجوده القومي ، او في خلق مجتمعه الاشتراكي ، او في معناه الانساني ، ليس الغاية الاساسية من عمله ومن نضاله · وانما هي « الشروط الضرورية » من اجل تحقيق ذاته ، وتحقيق حريته ، والتي من دونها لا يمكن ان تتحقق ·

واذا كانت الثورة التكنولوجية قد بدات في خلق القوى المناهضة لاستعبادها للانسان في داخل البلدان المصنعة المتقدمة ، فان القوى الضاغطة

الحقيقية في العالم ضد سوء استعمـال التكنولوجيـا ، وضد استعبادها للانسان ، وضد استغلالها للشعوب ، وضد توجيهها لغايات الربح والحرب، وضد تبذيرها في ما لا طائل للانسانية وراءه ، انما هي قوى التحرر في العالم الثالث ، على رغم كل ما يسود حقوقها اليوم من فوضى ومن بعثرة ومن ضعف داخلي وتآمر خارجي • وكلما زادت هذه القوى من بنـاء ذاتها وتكاتفها وتصميمها على النضال وصعدت مواجهتها لقوى الاستعباد ، كلما منحت القوى الداخلية الثورية التحررية في داخل البلدان المصنعة مزيدا من القوة لمواصلة نضالها في سبيل السيطرة على الالة التكنولوجية لمصلحة الانسان ، كل انسان ، لا لدماره وخرابه وافقاره والامعان في تغريبه •

والعالم الثالث مهيأ لهذا الدور • لانه العالم الذي فيه دوافع الثورة • ولانه العالم المتضرر اكثر من غيره من استعباد الربح للتكنولوجيا ، واستعباد التكنولوجيا للانسان • ولانه العالم الذي ما تزال قيمه الانسانية والاخلاقيـة والروحية حية لم تدمرها فردية الراسمالية القديمة ولا طغيان التكنولوجيـا الجديدة بعد • ولان بامكانه ، وهو يدخل عصر التكنولوجيا مع ولادة أزمتها مع الانسان ، ان يدخل هذا العصر بعقلانية مسبقة ، متسلحا بايمانه بالانسان وايمانه بالحرية •

لينين والحركات القومية في العالم المتخلف

لا ريب في أن لينين هو أعظم ثوري انتجه القرن العشرون بل لعله اعظم ثوري انتجه العصر الحديث كله . فالعصر الحديث لم يعرف ثورياً شامل النظرة شمولاً يتسع للعالم كله ، عميق النظرة عمقاً ينفذ الى أعماق حركة التاريخ ، اتجه بكل طاقاته وقدراته فكراً وعملاً ، نظرية وتطبيقاً ، استراتيجيا وتكتيكاً ، نحو هدف أساسي لا يقل عن تغيير المجتمع كله بكل معطياته ، ليبنيه من جديد ، من الأساس ، من القواعد ، بناء جديداً في شكل مجتمع جديد وانسان جديد ، وعلاقات جديدة ، وتمكن فعلاً من تحقيق هذا وما يزال ما حققه يتفاعل في جميع انحاء العالم ، كمثل لينين العظيم .

على ان للينين منزلة خاصة في بلدان العالم الثالث بالذات .

فالذي لا ريب فيه هو أنه اذا كانت آثار تلك الثورة العظيمة التي قادها لينين ضد القيصرية الروسية والمجتمع الاتوقراطي المتخلف لم تعط اصداءها الايجابية في العالم الغربي المتقدم كما كان هو وكما كان كل الثوريين الماركسيين معه يتوقعون ، بل لعلها تركت آثاراً سلبية دفعت الرجعية والبورجوازية الى أن تكون اكثر تمسكاً بمواقفها في ذلك المجتمع ، فإن هذه الآثار في العالم المتخلف قد بدأ يتلو بعضها بعضاً في ايجابية وتجاوب ووضوح كما تنبأ هو ، بعد فشل الثورات الاشتراكية الغربية ، وكما عجز الكثير من انصاره الماركسيين ان يدركوه في عمقه وفي بعد نظرته الى المعنى الحقيقي الكامن في حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا بشكل خاص .

والواقع أن نظرة لينين الى معنى التناقض الاصيل والاساسي بين الامبريالية من جهة وبين حركات التحرر الوطني من جهة اخرى نظرة اصيلة وجديدة ونافذة في الأدب الماركسي سبق فيها زمناً وعمقاً معاصريه الماركسيين بل سبق فيها مفكري العالم الثالث نفسه ، حتى الماركسيين منهم ، سبقاً ليس له مثيل . وفي الواقع فإن الماركسيين قبل لينين

لم يروا في الاستعمار ذاتـه سبة يستحق ان يحـاربها الاشتـراكيون . كـل ما أخـذوه على الاستعمار هو أنه كان قائماً من اجل مصلحة البورجوازيـة بينما يجب ان يقـوم من اجل مصلحة البروليتاريا .

خذ مثلاً ما قاله تقرير رسمي في المؤتمر الاشتراكي الدولي المعقود في امستردام عام ١٩٠٤ . « ان الحـاجات الجـديدة التي ستنشـأ بعد انتصـار الطبقـة العـاملة وتحـررهـا الاقتصـادي ستجعل احتـلال المستعمرات ضـرورة حتى في ظـل الحكم الاشتـراكي . فالدولة الحديثة سوف تعجز عن السير والتقدم دون أن تحصل على المواد الخام ومنتوجات البلاد الحارة التي لا تستغني عنها لصناعتها ولتقدم الانسانية » وخذ مثلاً ما قاله تقرير آخر في مؤتمر شتوتجارت عام ١٩٠٧ « أن المؤتمـر لا يشجب في المبدأ وفي كـل الاوقات كـل سياسة استعمارية فالاستعمار في ظـل نظام اشتـراكي يمكن ان يكون عمـلاً من أعمال التمدين » .

غـير ان لينين لاحظ منـذ ذلك الـوقت تهاوي هـذه النظرة وسمـاها الانتهـازيـة الاشتراكية الواقعة تحت تأثير البورجوازية . بل قال في تعليق مهم على ذلك المؤتمر جملة سيكـون لها صداها العميق فيـما بعد حيث قـال « نتيجة للسيـاسة الاستعمـاريـة فـإن البروليتاريا الاوروبية وصلت الى حد ما الى وضع لم يعد استغلالها فيه هو الـذي يحفظ نـظام المجتمع (البـورجوازي) وإنمـا الذي يحفـظه هو استغـلال المستعبدين من اهـل المستعمرات . ان البورجوازية البـريطانيـة مثلاً تستخلص اربـاحاً من عشـرات ومئات الملايين من السكان في الهند والمستعمرات الأخرى أكثر بكثير ممـا تستخلص من العمال البريطانيين . بل إنه في بعض البلاد فإن هذه الاحوال تخلق الأساس الاقتصادي والمادي لدفع البروليتاريا الى التمسك بالافكار الاستعمارية الشوفينية » .

وفي عام ١٩١٣ كتب لينين في مقالته المشهورة بعنوان « اوروبـا وآسيا المتقدمة » كتب يقول « في كل انحاء آسيا تنمو حركة ديمقراطية وتنتشر وتقوى وحتى البورجوازيـة هناك تقف مع الشعب ضد الرجعية المتحالفة مع الاستعمار . مئات الملايين من البشر يفيقون الى الحياة والثورة والحرية ، وليس ثمة قوة في العالم يمكن أن تمنـع انتصار هـذه الحركة التي سوف تحرر شعوب اوروبا نفسها كما تحرر شعوب آسيا » .

وفي عام ١٩١٧ نشر كتابه المشهور « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » والذي

يشرح فيه فيما يشرح تهاوي الاشتراكية الديمقراطية في البلدان المتقدمة واثر الاستعمار في افساد هذا التيار وفي وضعه في صف البورجوازية المستغلة . ولكنه ادرك بالمقابل الأثر المضاد في البلدان المستعمرة الذي يوقظ روح القومية . ومنذ ذلك الحين بدأ لينين يربط بين حركة التحرر القومي في المستعمرات وحركة التحرر الطبقي في البلدان المتقدمة .

وفي رده على روزا لوكسمبورغ التي انكرت امكانية قيام حرب التحرير في هذا العصر الامبريالي قال لينين « ان الحرب القومية ضد القوى الامبريالية ليست فقط ممكنة ومحتملة وإنما هي حتمية وتقدمية ، وثورية ايضا ولو أنه من اجل ضمان نجاحها فإن الجماهير الواسعة من الشعب يجب ان تساهم فيها » .

من هذه المقتطفات البسيطة التي سردناها يتبين لنا أن لينين العظيم كان في تصوره الفكري حتى عام ١٩١٧ قد توصل الى الاكتشافات التالية :

١ ـ دور الامبريالية في استغلال واستعباد الشعوب المستعمرة .

٢ ـ دور الامبريالية في مساندة بقاء النظام الرأسمالي وتحويل الاستغلال المباشر من العمال المحليين الى سكان المستعمرات .

٣ ـ دور الامبريالية في حرف الاشتراكية الديمقراطية في البلدان المتقدمة عن غاياتها ومبادئها الحقيقية بل وعن ثورتها ، وتحالفها مع البورجوازية في المسألة الاستعمارية .

٤ ـ حق الشعوب المضطهدة في الثورة القومية ، والصفة التقدمية لهذه الثورات ، وأثرها في تحرير الشعوب المضطهدة وتحرير شعوب اوروبا نفسها في نفس الوقت .

إن أهمية هذه المواقف اللينينية تنبع من كونه كشفها وفصلها وادخلها في اطارها العلمي ضد كل الظروف التي كانت تحيط به . فمن ناحية ، فماركس لم يتطرق الى موضوع الاستعمار الا في اضيق الحدود ، ولينين ماركسي اصيل . ومن ناحية ، فالحركة الاشتراكية الغربية لم تر في الاستعمار جوهره القائم على الاستغلال الكلي للشعوب ، وإنه نتيجة طبيعية للنظام الرأسمالي . ان محاربة الرأسمالية تقتضي بالضرورة محاربة الاستعمار ، ولينين اشتراكي اصيل . ومن ناحية ثانية فالحركات القومية في آسيا لم تكن

بعد الا في بدايتها ، و كانت تتسم بسطحيتها وعفويتها وبعدها عن أي محتوى اجتماعي ظاهر .

ومن هنا كانت عظمة لينين وعمقه واصالته التي ادت الى تفرده وتميزه عن الحركة الاشتراكية وخلافه معها بل وعزلته الشديدة لاسيما بعد قيام الحرب وبعد انحلال الحركة الاشتراكية وبعد انضمام معظم قادتها ومنظميها الى صف الدول البورجوازية المتحاربة . هو وحده الذي لم يفقد توازنه ولا ايمانه ولا رفضه لكل ما يجري حوله . ولكنه وهو في ظل عزلته الفريدة كان مؤمناً وكأنه في قمة نصره . مما دفعه الى ان يصيح بأعلى صوته بعد مؤتمر زيمرفالد الثاني وبعد التهاوي الظاهري لكل امل حقيقي في ثورة اشتراكية « إنني اعلم بكل تأكيد أن البرنامج والتكتيك الضروريين لاشتراكية جديدة ، لماركسية ثورية حقاً ، لا ماركسية كاوتسكي القذر ، مطروحان في كل مكان على جدول الأعمال » . من خلال الظلام الدامس كان يرى النور . ومن خلال اليأس العميق كان يحس حتمية الأمل . وفي الواقع فلم تمض اشهر معدودات حتى كان لينين على رأس ثورته العظيمة في روسيا .

لو كان لينين قد اقتصر في خلافه بشأن الحركات القومية في آسيا على خلافه مع الماركسيين التقليديين في اوروبا لكان ذلك مفهوماً الى حد كبير . ولكن موضع العظمة فيه انه بعد ذلك اختلف مع الماركسيين التقليديين في الشعوب المستعمرة نفسها وأنه في اختلافه هذا كان أقرب الى جوهر الحقيقة في تحليله لهذه الحركات القومية من الاسيويين انفسهم . ولا شك في ان متابعة مناقشات المؤتمر الثاني للشيوعية الأممية المعقود في عام ١٩٢٠ والذي حضره « روي » عن الهند ودارت بينه وبين لينين مناظرات في معنى الحركات القومية ضد الاستعمار ، لتدل دلالة واضحة على العمق والاصالة وبعد النظر التي كان يتمتع بها لينين . كان « روي » يعلن « أن الجماهير الشعبية في الهند لا تحركها الروح القومية وان اهتمامها مقصور على المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وأن هذه الجماهير الشعبية الواسعة ليست لها أية علاقة بالحركة الوطنية التحررية » . قال روي هذا في وقت كان فيه غاندي قد رجع الى الهند ليقود حركتها التحررية الواسعة المستندة الى تحريك كل جماهير الشعب ضد الاستعمار البريطاني . كان روي يرى الصراع الطبقي حتى في المستعمرات مقدماً على الصراع القومي وان لا سبيل الى تحالف الحركة الطبقية الموجهة ضد الاستغلال مع الحركة الوطنية الموجهة ضد الاستعمار .

ويرد عليه لينين مفصلاً ، ويضع القواعد الأساسية للمعنى العميق لحركات التحرر الوطني . فيذكر « روي » أولاً ، بأنه على الرغم من ان البروليتاريا في الهند تبلغ خمسة ملايين وان الفلاحين المعدمين يبلغون ٣٧ مليوناً ، فالشيوعيون الهنود لم ينجحوا بعد في تكوين حزب شيوعي ، وأن هذه الحقيقة وحدها كافية لرفض آراء « روي » .

ثم يضع لينين مفهومه الواضح المحدد بالنسبة للحركات التقدمية في البلدان المتخلفة ، فيعلن « ان الجمهورية الروسية السوفياتية يجب أن تتحالف تحالفاً وثيقاً مع الحركة السوفياتية للبلدان المتقدمة من جهة ، ومع كل حركات التحرر الوطني في المستعمرات ومع الشعوب المضطهدة من جهة اخرى .

ويعلن ان على جميع الاحزاب الشيوعية ان تدعم دعـما علميا حركات التحرر الوطني في المستعمرات .

ويفسر موقفه هذا حين يعلن « أن الاضطهاد الطويل الذي مارسته القوى الامبريالية على شعوب المستعمرات والشعوب المستضعفة قد زرع في قلوب جماهير هذه الشعوب الحقد والكراهية للشعوب المستعمرة بما في ذلك طبقتها العمالية . وأن الخيانة الحقيرة للمبادىء الاشتراكية التي مارستها معظم قيادات هذه الطبقة بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٩ ، حين دافعت عن حق بورجوازيتها الحاكمة في اضطهاد مستعمراتها واستغلال شعوبها باسم الدفاع عن الوطن ، إنما عمقت هذا الشعور بالحقد وعدم الثقة . ولن يموت هذا الشعور بسهولة وبيسر . لأن عدم الثقة والتعصب القومي لا يمكن ان يختفيا الا بعد ازالة الامبريالية والاستعمار من الدول المتخلفة . وإلا بعد تغيير أساسي في كل القاعدة الاقتصادية للحيارة في البلدان المتخلفة . ومن هنا كان من واجب كل البروليتاريا الشيوعية الواعية سياسياً في كل انحاء العالم ان تراعي بحذر وانتباه الشعور القومي عند الشعوب التي طال امد استعبادها . وكذلك فإن من واجبهم ان يتقدموا ببعض التنازلات ليسرعوا في ازالة عدم الثقة والتعصب القومي . وما لم تحاول البروليتاريا ، مستندة الى كل الجماهير في كل الأقطار والشعوب ، النضال الطوعي لتحقيق التحالف والوحدة ، فإنه لن يتحقق نصر على الرأسمالية » .

بذلك وضع لينين المفهوم الحقيقي لمعنى حركات التحرر الوطني ولعله رأى بنافذ بصيرته ما سيحصل بعد الحرب العالمية الثانية حين قال أيضاً « إن من الواجب ان نوضح باستمرار لكل الجماهير الكادحة من كل الأقطار والشعوب ولاسيا المتخلفة منها اساليب

الخداع التي تمارسها القوى الامبريالية بالتحالف مع الطبقات المستفيدة من الشعوب المضطهدة ، تحت ستار منح الاستقلال السياسي لبعض الدول ، لتضع هذه الدول ذاتها تحت سيطرتها الاقتصادية والمالية والعسكرية » .

حركات التحرر الوطني اذن عند لينين حركات اصيلة وهي رد فعل طبيعي للاضطهاد الاستعماري الطويل ، ولاشتراك الطبقة العاملة الانتهازية في البلدان المستعمرة في هذا الاضطهاد .

حركات التحرر الوطني هي حليف طبيعي للثورة العمالية ضد الامبريالية والاستعمار والرأسمالية وجميع انواع الاضهاد والاستغلال .

حركات التحرر الوطني لا يجوز أن تقتصر على الاستقلال السياسي وانما يجب أن تستهدف التحرر الاقتصادي والمالي والعسكري وان يكون لها محتوى تحرري اجتماعي طبقي اشتراكي . الصراع الطبقي ليس متناقضاً مع الصراع القومي وإنما هو جزء لا يتجزأ منه وعلى الطبقات الكادحة عمالاً وفلاحين في البلدان المستعمرة ان تكون القوة الدافعة الأولى في الصراع القومي لمنع حرف هذا الصراع عن غاياته ولضمان سير هذا الصراع نحو غايات التحرر الاجتماعي وبناء المجتمع الاشتراكي الحديث .

كل هذا وضع قواعده لينين في وقت كانت الحركات القومية التحررية فيه ما تزال في بدايتها وكانت الافكار الاشتراكية ، بعد ، لا تدور في آسيا وافريقيا الا في رؤوس عدد ضئيل من المثقفين ، ولم يكن الحزب الشيوعي ولا أي حزب اشتراكي قد تكون رسمياً بعد ، لا في الصين ولا في الهند ولا في الوطن العربي . ومن هنا يمكن ان نرى مقدار التراث الكبير الذي تركه لينين لشعوب العالم الثالث في فهم وظيفتها الحقيقية ودورها الحقيقي لا في تحرير العالم الثالث فحسب ، بل في تحرير العالم كله كذلك ، والمعنى العميق الذي اعطاه للتناقض التاريخي الكبير بين الامبريالية وبين حركات التحرر الوطني .

على أنه لا بد لنا هنا من وقفة نتساءل فيها عن سر تلك العظمة التي تفرد بها لينين عن كل ماركسي زمانه ، والتي لم تظهر طبعاً في موقفه من قضايا التحرر الوطني فحسب ، وإنما كانت عامة وشاملة بحيث اصبح لها ذلك الاسم المحدد « اللينينية » التي اصبحت صنواً ومكملاً للماركسية تعطيها دفقة حياة وتجدد كاد ان يطمسها الماركسيون الغربيون الاوروبيون .

طبعاً يمكن أن نقول من ناحية انه لأن لينين كان روسياً ، أي كان ماركسياً ولكن من بلد متخلف صناعياً ، ومن بلد أتوقراطي مفتقر الى الحركات العامة ، ومن بلد هو في طبيعته يضم قوميات عدة ، فقد كان عليه ان يحل مشكلة التناقض بين هذه الظروف الموضوعية وبين ظاهر النظرية الماركسية التي ركزت آخر ايامها على الأخص على التغييرات الاقتصادية وما يتبعها من تناقضات اجتماعية في العالم الصناعي المتقدم .

ولا شك أن هذه الخلفية وضعت لينين في الظرف الموضوعي الذي هيأه للقيام بهذه الثورة الفكرية في الماركسية . ولكن سر عظمة لينين يكمن في أنه انطلاقا من هذه الخلفية بالذات تمكن من النفاذ العميق الى النقطة الأساسية في النظرية الماركسية خلافاً لكل الماركسيين « الارثوذكس » كما سموا انفسهم ، الذين حولوا الماركسية الى دوغماتية لفظية تكاد تقرب من الترانيم الطقسية ، وخلعوا عنها السر الحقيقي في عظمتها الخالدة على الرغم من أن كثيراً منهم كانوا يحفظون كتابات ماركس عن ظهر قلب .

ميز لينين نفسه عن كل اولئك حين نفذ بعمق بصيرته الى البذرة الأساسية في فكر ماركس كله التي بنى عليها بناءه الشامخ في تحليل المجتمع البورجوازي الصناعي . نفذ الى معنى « الصيرورة » في الجدلية ، الى عملية التغيير المستمر في التاريخ ، الى هيجل في ماركس . ليس في الفكر الماركسي الحقيقي شيء ثابت في التاريخ . الشيء الوحيد الثابت في التاريخ هو عملية التغيير الدائمة . ليست هناك قوانين ثابتة لكل الأوضاع . ولكن هناك قوانين مستمدة بالتحليل الجدلي من اوضاع . فإذا تغيرت الاوضاع تغيرت القوانين . لذلك قال لينين « ان فلسفة ترى في الصيرورة أساس الوجود لا يمكن أن ترى ذاتها كاملة وتامة ومحيطة بكل الأمور وعاجزة عن التطور والتغير والنمو » وقال أيضاً « لأن الماركسية ليست عقيدة ميتة ولا مذهباً مكتملاً جاهزاً ثابتاً بل هي دليل حي للعمل ، فهي لا تستطيع إلا أن تعكس التغير الفريد في سرعته لشروط الحياة الاجتماعية » .

وقال ايضا « إننا لا نعتبر نظرية ماركس كلاً مكتملاً لا يتغير . إننا نعتقد على العكس أن هذه النظرية قد ارست فقط الاحجار الأساسية للعلم . علم سينبغي على الاشتراكيين أن يعمقوه في جميع الاتجاهات اذا ارادوا الا تتجاوزهم الحياة . إننا نعتقد فيما يتعلق بالاشتراكيين الروس ان صياغة مستقلة لنظرية ماركس أمر بالغ الضرورة » .

هذا التميز الفريد الذي تميز به لينين عن معظم الماركسيين ولاسيما عن الماركسيين

الارثوذكس في اوروبا ، هذا التميز الذي جعله يرى التاريخ حياة وصيرورة ويرى الماركسية كذلك حياة وصيرورة ، هو الذي اطلقه من القيود الفكرية الحديدية التي حبس الماركسيون الارثوذكس انفسهم فيها ، ودارت الحياة من حولهم وهم حبيسو النص ، وتحليل النص ، حتى قتلوا الماركسية درساً ، وقتلوا الثورة فعلاً .

من هنا كانت عظمة لينين الأساسية . من هنا سر ثورته على الجمود الذي اضفاه الماركسيون على الفكر الماركسي . من هنا سر تحرره وفهمه للتغيرات الهائلة التي طرأت في التاريخ منذ موت ماركس في أوروبا ، في روسيا وفي المستعمرات ، وسر قدرته على استنباط الحلول من الماركسية نفسها لمشاكل لم تكن مطروحة أيام كان ماركس . ومن هنا سر ما سمي فيما بعد « باللينينية » .

قال الارثوذكس ان الثورة الاشتراكية غير ممكنة في روسيا القيصرية ، المتخلفة الزراعية . لأن ظروفها الموضوعية غير متوافرة . وإن الثورة الاشتراكية مرتبطة بالضرورة وبحسب النصوص الماركسية التي يحتمون بها بالبلدان المصنعة فحسب . وإن الثورة في روسيا ، إن قامت ، فهي بالضرورة الحتمية ثورة بورجوازية ديمقراطية . ولكن لينين الذي انفك من آثار النصوص ونفذ الى عمق تيار الحياة في الماركسية وفي جدليتها ، كان يرى أنه ، وإن كانت الظروف الموضوعية اميل الى قيام ثورة بورجوازية ديمقراطية ، فإن في الامكان متابعة هذه الثورة حتى تصل الى غاياتها الاشتراكية ، لوضع نظرية « الثورة غير المنقطعة » .

ووضع تبعاً لذلك نظريته في ضرورة اعداد الحزب الطليعي المعبر عن مصالح البروليتاريا دون أن يكون صورة منها . وفصل بين الحركة العمالية الطبقية من جهة والحركة العمالية الحزبية من جهة . تلك حركة نقابية وهذه حركة سياسية .

فصل بين الظروف الموضوعية وبين الارادة الذاتية التي تستعجل مجيء هذه الظروف . أزال من حتمية التاريخ اوتوماتيكيتها . وادخل مبدأ اللحظة الحاسمة واغتنام الفرصة بالنضال المنظم .

رأى تطور الرأسمالية الى الامبريالية ، وفهم المعنى العميق لهذا التطور الهائل ، وتمكن من تلمس القوة الكامنة في نضال الشعوب ضد الاستعمار ، والتحالف الطبيعي الذي لا بد أن ينشأ بين هذه القوة ، اذا ما تحولت الى فعل واع ، وبين الحركة العمالية

الثورية في اوروبا الغربية ، ثم بعد قيام الثورة في روسيا مع اتحاد الجمهوريات السوفياتية .

بذلك كله حرر الماركسية نفسها . فلم يعد الماركسي ، كما كان يريده الارثوذكس ، مجرد عبد للتاريخ . بل أصبح صانعاً للتاريخ . لم يعد ضرورياً ان تتغير قواعد الانتاج من اجل قيام الثورة ، بل اصبح ممكنا قيام الثورة من اجل تغيير قواعد الانتاج . لم يعد الاقتصاد وحده يتحكم في السياسة ، بل اصبحت السياسة قادرة على التحكم في الانتاج .

تلك هي الثورة التي حققها لينين في الماركسية . فلم تعد الماركسية فلسفة البلدان المصنعة فحسب ، ولا فلسفة للغرب فحسب ، ولا فلسفة للبروليتاريا فحسب ، بل ولا فلسفة للشيوعيين فحسب ، بل جعل منها معيناً ثرا حيا لكل فكر ثوري ولكل حركة ثورية في كل ناحية من انحاء العالم وعلى الأخص في البلدان المتخلفة .

لقد استقلت بلدان العالم الثالث . وتوهمت حين استقلت انها قد تحررت من الامبريالية ومن كل قيودها معها . ولكن جماهير هذه البلدان ما لبثت ان اكتشفت ان استقلالها في واقعه لم يكن الا ستاراً تحتمي وراءه الامبريالية من أجل استمرار هذه الامبريالية في استغلال البلاد وثرواتها بواسطة شركاتها واحتكاراتها ، وفي ابقائها سوقاً مستهلكة لسلعها ، ومصدرا رخيصاً لمواردها الأولية ، واستمرار ربط الاقتصاد الوطني القائم على الاسلوب البورجوازي بمصالح البورجوازية الغربية الكبرى .

والامبريالية ، لا تعدم وسائلها الكثيرة في استمرار تحكمها في رقاب بلدان العالم الثالث . وسائلها السياسية حيناً ، والعسكرية حيناً ، واقامة قلاع حامية لمصالحها حيناً ، بل والتخلي عن هذه القلاع اذا لزم الأمر حيناً ، ولكن شعوب العالم الثالث لا تملك اليوم ، كما لم تكن تملك في الماضي ، الا اسلوبا واحداً في محاربة الامبريالية نقيضها الأول ، هو اسلوب المجابهة والمواجهة والنضال حتى تحرر نفسها تحريرا حقيقياً وصادقاً وأساسياً ، لا أسلوب الانفتاح على الامبريالية ولا أسلوب الصداقة معها . . .

في آخر مقالة كتبها لينين قبل ان يصاب بالشلل ، كان قد ادرك ان فرص الثورة في الغرب قد ابتعدت ، وأن الدول الامبريالية الرأسمالية قد رسخت قواعدها ، وان النظام السوفياتي في روسيا ما يزال مهدداً من القوى المضادة للثورة . ولكنه كان واثقاً من النصر « لأن (وهذه كلماته هو) نتيجة الصراع يمكن التنبؤ بها ، استناداً فقط وفي التحليل الاخير ، الى ان الكثرة الغالبة من سكان العالم انما يدفعها الى تعلم النضال وممارسة

النضال ، الرأسمالية نفسها . ان نتيجة الصراع في النهاية سوف تقررها الحقيقة الواقعة وهي ان سكان روسيا والهند والصين وغيرها يشكلون اغلبية سكان العالم ، وهذه الأغلبية خلال السنوات القليلة الماضية قد اندفعت في نضالها من اجل التحرير بسرعة فائقة . لذلك لن يكون هناك ادنى شك في نتيجة هذا الصراع . بهذا المعنى فإن الانتصار التام للاشتراكية يصبح مؤكدا » .

لقد اعطى لينين بلدان العالم الثالث دوراً أخشى أن كثيراً من هذه البلدان لم يقدره حتى الآن . ان رسالتها لا تتوقف عند تحرير نفسها فحسب . إنها مكلفة بتحرير العالم من الطغيان الامبريالي ومن كل حلفائه . وهي قادرة على ذلك حين تعي دورها وقوتها الكامنة . ولعل حرب البترول التي جرت مع حرب رمضان كانت ايذاناً واشارة الى القوة الكبيرة الكامنة في هذا العالم الثالث .

فهل يستعمل العالم الثالث قوته الكامنة هذه ليحولها قوة فاعلة وليؤدي بها رسالته ؟

اما لينين فقد قال نعم . اما شعوب العالم الثالث فما زال امامها ان تكمل الرسالة . .

الفهرســـت

الموضوع	الصفحة

التجربة المرّة

فلسفة الحركة القومية العربية : الخلفية الفلسفية

فلسفة الحركة القومية العربية : التحدي الاستعماري

منيف الرزاز في سطور :

١ - ولد في دمشق عام ١٩١٩ .

٢ - هاجر مع أسرته إلى عمان ١٩٢٥ .

٣ - تخرج طبيبا في جامعة القاهرة وعاد الى عمان .

٤ - انتخب أميناً عاماً لحزب البعث العربي الاشتراكي سنة ١٩٦٥ فانتقل إلى دمشق . ثم عاد إلى الأردن سنة ١٩٦٧ .

٥ - شارك في الهيئات القيادية للمقاومة الفلسطينية .

٦ - انتخب سنة ١٩٧٧ أميناً عاماً مساعداً لحزب البعث فانتقل من عمان إلى بغداد .

٧ - نحي عن هذا المنصب عام ١٩٧٩ في ظروف معينة .

٨ - توفي عام ١٩٨٤ في بغداد .

نشر بدعم من مؤسسة منيف الرزاز للدراسات القومية .